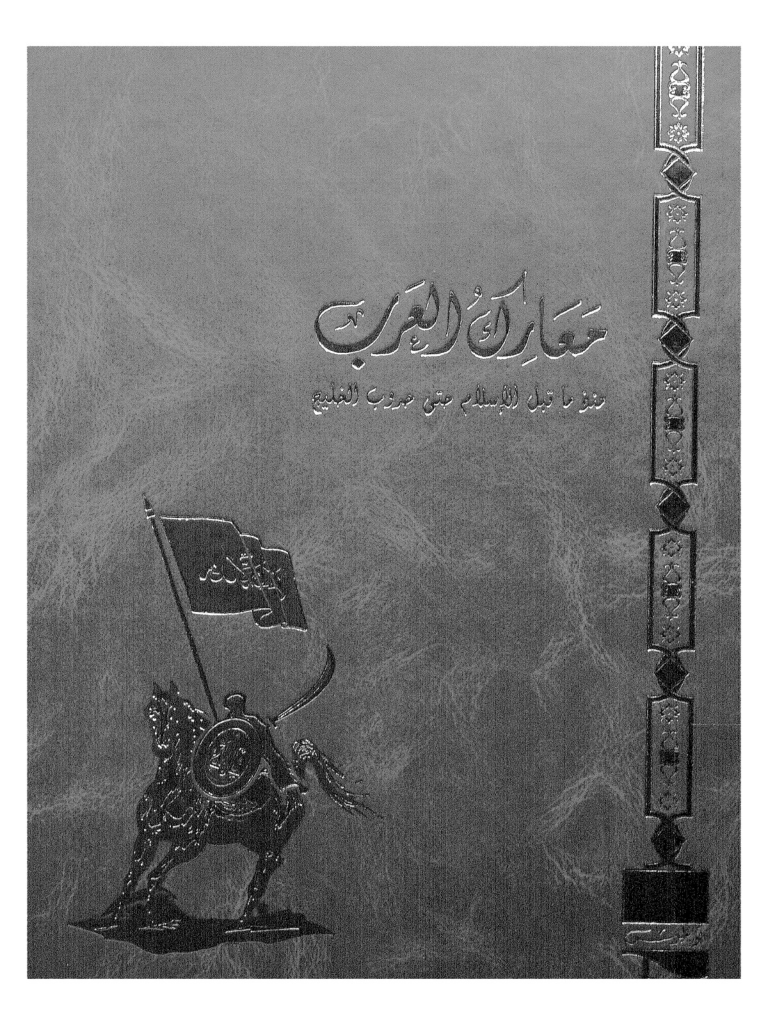
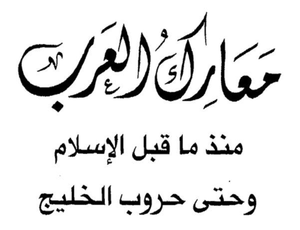

معارك العرب
منذ ما قبل الإسلام حتى حروب الخليج

معارك العرب 15

اسم الموسوعة	:	معارك العرب
		منذ ما قبل الإسلام وحتى حروب الخليج
اسم الكتاب	:	الخلافة العبّاسيّة (6)
		من النفوذ السلجوقي إلى سيطرة آل زنكي
المؤلّف	:	العميد الركن الدكتور سامي ريحانا
قياس الكتاب	:	20x28 سم
عدد الصفحات	:	216
عدد صفحات الموسوعة	:	5920
مكان النشر	:	بيروت – لبنان
دار النشر والتوزيع	:	دار نوبليس
تلفاكس	:	961 1 58 34 75
هاتف	:	961 (1) 58 11 21 - 961 (3) 58 11 21
بريد إلكتروني	:	NOBILIS_INTERNATIONAL@hotmail.com
الطبعة الأولى	:	2007

العميد الركن سامي ريحانا

دكتور في التاريخ



منذ ما قبل الإسلام
وحتى حروب الخليج

المجلّد (15)

الخلافة العباسيّة (6)

من النفوذ السلجوقي إلى سيطرة آل زنكي

NOBILIS

2007

المقدّمة

شهد مطلع القرن السادس الهجري بداية ظهور أسرة جديدة على الساحة السياسية والعسكرية الإسلامية في الشرق. هذه الأسرة، التي ستنتقل إليها مهمّة حماية الخلافة العباسية والسيطرة على مقدراتها، هي أسرة البرسقي، التي تحدّر منها آل زنكي الذين لعبوا دوراً بارزاً في الصراع ضد الوجود الفرنجي في الشرق.

ففي السنة تسع وتسعين وأربعمائة كان أول ظهور لزنكي البرسقي، الذي احتجزه السلطان محمد السلجوقي للضغط على إخوته لحملهم على عدم إطاعة منكبرس الخارج على السلطنة ونصرته. لذلك، قبض هؤلاء على منكبرس وسلّموه إلى السلطان محمد، فعلا شأنهم عنده وثبّتهم في إقطاعاتهم في الأهواز وهمذان.(١)

وفي السنة ثمان وخمسمائة للهجرة، وبعد مقتل الأمير مودود قائد الحملة السلجوقية على الموصل، عيّن السلطان عليها الأمير آقسنفر البرسقي،(٢) وسيّره في جيش كبير ضد الفرنجة.(٣) وكان في عداد الحملة عماد الدين زنكي الذي سيلعب لاحقاً دوراً مهماً في تثبيت ملك آل زنكي، والذي سنتكلّم عن إنجازاته العسكرية في هذه المقدّمة. وقد انتصر

---

(١) إبن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٩٩، جزء ٩، ص ٧٧ - ٧٨.

(٢) آقسنفر هو الجد الأعلى لعائلة البرسقي التي تحدّر منها آل زنكي. عن إبن كثير، البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، جزء ١٢، ص ٢١٣.

(٣) انظر الجزء ١٤ من هذه الموسوعة - القسم الثاني - الفقرة ٢٣.

البرسقي على إيلغازي صاحب ماردين، وحاصر الرها وأطاعه صاحب مرعش.[١]

وفي السنة نفسها جهز السلطان جيشاً كبيراً بقيادة الأمير برسق بن برسق صاحب همذان، وأمره بالتوجّه إلى قتال المسلمين العاصين على قيادته، والفرنجة. فتحت هذه الحملة حلب وكفرطاب التي دخلتها عنوة وانتصرت على الفرنجة فيها، وأسرت صاحبها وقتلت من فيها.[٢]

وفي السنة اثنتي عشرة وخمسمائة للهجرة، وبعد وفاة السلطان محمد وتولية ابنه السلطان محمود، كان آقسنفر البرسقي مقيماً في الرحبة، فعيّنه السلطان محمود على بغداد. وكان الأمراء يؤيّدون البرسقي ويتعصّبون له. وفي السنة نفسها جرى قتال بين البرسقي وحسين بن أزبك، وهو أحد الأمراء الأتراك وصاحب أسدأباذ. وقد انتصر البرسقي خلال هذا القتال.[٣]

وفي السنة نفسها أيضاً، سار عز الدين مسعود بن البرسقي مع الملك مسعود بن السلطان محمد السلجوقي وقسيم الدولة زنكي بن آقسنفر، جدّ ملوك آل زنكي، لقتال دبيس ووزّع فيهم الأموال الكثيرة والسلاح، كما انضمّ إليه الأمير عماد الدين منكبرس في جيش كبير.

لعب عماد الدين زنكي بن آقسنفر دوراً مهماً في القتال الذي جرى بين الجيشين، وذلك قبل أن يوقّع الصلح بينهما.[٤]

وفي السنة خمس عشرة وخمسمائة للهجرة أقطع السلطان محمود مدينة الموصل وأعمالها وما يضاف إليها، كالجزيرة وسنجار وغيرهما، للأمير آقسنفر البرسقي، كونه كان خادماً للسلطان، ناصحاً وملازماً له في حروبه. وآقسنفر هو الذي صالح الملك مسعود مع أخيه السلطان محمود إثر الخلاف الذي وقع بينهما. لذلك عظم شأنه

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، جزء ٩، ص ١٥٣ - ١٥٤.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٩٠.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٧٢ - ١٧٣.

(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٩٦ - ٩٧.

عند السلطان، وسيّره إلى الموصل في جند كثير. وهكذا بدأ آقسنفر يلعب دوراً مهماً في الشؤون السياسية والعسكرية في العالم الإسلامي الشرقي.(١)

وفي السنة ثمان عشرة وخمسمائة للهجرة، انتزع آقسنفر البرسقي مدينة حلب من الفرنجة الذين كانوا قد احتلوها بمساعدة دبيس بن صدقة. واستنجد أهل حلب بالبرسقي صاحب الموصل، الذي جمع جيشاً كبيراً وتسلّم قلعة حلب من أهلها. وهكذا غادر الفرنجة المدينة، الأمر الذي أعطى البرسقي أهمية كبرى في منطقة شمال بلاد الشام.(٢)

وفي السنة تسع عشرة وخمسمائة للهجرة، جمع البرسقي جيشاً وسار إلى الشام، فقصد كفرطاب وحاصرها وملكها من الفرنجة. ثمّ سار إلى قلعة عزاز، وهي من أعمال حلب وصاحبها جوسلين الفرنجي، فحاصرها. اجتمعت عليه الفرنجة بجيش من الفرسان والرجّالة، فجرى قتال عنيف بينهم انهزم فيه المسلمون، وعاد البرسقي مهزوماً إلى حلب حيث خلف ابنه مسعوداً. ثمّ عبر الفرات إلى الموصل ليجمع جيشاً جديداً ويعاود القتال.(٣)

هكذا نرى أن الجهاد ضد الفرنجة في شمال بلاد الشام كان قد أمسى منذ السنة ٥١٩هـ. على عاتق آقسنفر البرسقي. لكن آقسنفر هذا، الذي اعتبر يومذاك بطل الصراع ضد الفرنجة، قتل على أيدي الباطنية في جامع الموصل فيما كان يصلّي صلاة الجمعة. وملك بعده ابنه عز الدين مسعود، فاستمرّت مسيرة آل البرسقي معه.(٤)

وفي السنة إحدى وعشرين وخمسمائة للهجرة أسند السلطان محمود ولاية العراق إلى عماد الدين زنكي بن آقسنفر، بعد أن نجح في الدفاع عن واسط والبصرة وما جاورهما، الأمر الذي عجز عنه سواه. لذلك عظم شأنه في عين السلطان وأمرائه.

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٠٥.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١١٢.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٣٤.

(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢١٣.

وفي السنة نفسها، جمع عز الدين بن البرسقي جيشاً كبيراً، وسار به إلى الشام فحاصر الرحبة وافتتحها. لكن مرضاً حاداً أصابه بعد ان افتتح الرحبة فتوفي، مما أدى إلى تفرّق عسكره وانشغالهم بدفنه.

خلال هذه المرحلة هدّد الفرنجة الجزيرة والشام، بعدما تمكّنوا من شمال بلاد الشام، وكان البرسقي هو الذي يقوم بمواجهتهم. لذلك، وبغية متابعة آل زنكي التعهّد بالصراع ضد الفرنجة، عيّن السلطان عماد الدين زنكي على الموصل، فبدأ بتسلّم البوازيخ. ثمّ سار إلى الموصل ودخلها وهزم المماليك في جزيرة ابن عمر، بعد أن اجتاز جيشه دجلة سباحة. ثمّ حاصر نصيبين وأمّن أهلها ودخلها، وسار منها إلى سنجار التي ملكها صلحاً. وأرسل جيشاً إلى الخابور وحرّان فملكهما. ثمّ صالح الفرنجة في الرها وسروج والحيرة ونواحيها، ليتفرّغ للجهاد في المناطق الأخرى، ثمّ عبر الفرات السنة ٥٢٢هـ إلى حلب فملكها مع منبج ومراغة.(١)

وهكذا تمكّن عماد الدين زنكي من السيطرة سيطرة تامة على الموصل والجزيرة والشام وشمالها، مضطلعاً بمهمة كبيرة هي الجهاد ضد الفرنجة. وهذا ما سيؤهّله لإقامة دولة آل زنكي التي ستقوم بحماية الخلافة العباسية مستبدلة السلطنة السلجوقية.

لقد لعب عماد الدين زنكي دوراً مهماً في إقامة دولة آل زنكي، بعد أن ملك على التوالي:

- مدينة حلب (٥٢٣هـ)، وحصن الأثارب (٥٢٤هـ)، ومدينة سرجي ودارا (٥٢٤هـ)، وآمد وقلعة الصور وقلاع الأكراد الحميدية والهكارية وكواشي (٥٢٧هـ)، وقلعة بعرين (٥٣١هـ)، وحمص وغيرها من أعمال دمشق (٥٣٢هـ)، وبعلبك (٥٣٣هـ)، وشهرزور وأعمالها (٥٣٤هـ)، وقلعة أشب وغيرها من قلاع الهكارية (٥٣٧هـ)، وبعض ديار بكر (٥٣٨هـ)، والرها وغيرها من حصون الفرنجة في الجزيرة (٥٣٩هـ).

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١١٩ - ١٢٠.

أما خليفته نور الدين زنكي فقد حاصر حصن جعفر وفنل السنة ٥٤١هـ، وقلعة حارم السنة ٥٥١هـ، والكرك السنة ٥٦٥هـ، كما تمكّن من فتح المدن والقلاع التالية:

- مواضع عدّة من بلدان الفرنجة (٥٤١هـ)، حصن العزيمة (٥٤٣هـ)، سنجار (٥٤٤هـ)، مدينة دمشق وتل باشر (٥٤٩هـ)، حصن شيزر (٥٥١هـ)، مدينة بعلبك (٥٥٢هـ)، حرّان (٥٥٤هـ)، قلعتي حارم وبانياس (٥٥٩هـ)، صافيتا وعريمة (٥٦٢هـ)، قلعة جعبر (٥٦٤هـ)، الموصل (٥٦٦هـ).

هذه المسيرة القتالية التي قام بها عماد الدين ونور الدين زنكي ساهمت في تقدّم هذه العائلة ودفعها قدماً في ميدان الصراع ضد الفرنجة. وهذا ما أهّلها لتسلّم مهمّة حماية الخلافة العباسية ورعاية شؤون العالم الإسلامي الشرقي خلال حقبة من أهم حقب التاريخ نظراً لتهديد الخلافة في عقر دارها، أي في الشرق، من قبل الغزاة الأوروبيين.

كلّ هذه الوقائع التي أوردناها في هذه المقدّمة، سنعمل على معالجتها في الجزء الخامس عشر من موسوعتنا، مع التركيز في صورة خاصة على العمليات العسكرية والوقائع الحربية. فالتاريخ يعيد نفسه، لاسيما التاريخ العسكري. لذلك على القائد المتبصّر دراسة معارك الماضي وسير القادة الكبار فيه للإفادة منها في شكل يعيد التاريخ الجيد نفسه، ويُستبعد التاريخ العسكري القاتم فلا يعيد نفسه، إذ نكون قد تعلّمنا منه فتجنّبنا الأخطاء التي حصلت في السابق.[١]

(١) انظر ملحق رقم ١: سلالة آل زنكي.

ملحق رقم ١:

سلالة ملوك آل زنكي

الإسم	مدّة حكمه (بالسنين الهجرية) من	إلى	ملاحظات
– آقسنفر البرسقي	–	٥٢٠هـ	سنة ٥٦٤هـ: ملك أسد الدين شيركوه مصر
– عز الدين مسعود	٥٢٠	٥٢١	سنة ٥٦٤هـ: وفاة أسد الدين شيركوه
			وملك صلاح الدين الأيوبي مصر
– عماد الدين زنكي	٥٢١	٥٤١	
– نور الدين محمود زنكي	٥٤١	٥٦٩	سنة ٥٦٧هـ: إقامة الخطبة في مصر للخلافة
وسيف الدين غازي بن زنكي	٥٤١	٥٤٤	العباسية وانقراض الدولة الفاطمية
– قطب الدين بن زنكي	٥٤٤	٥٥٦	سنة ٥٦٤هـ: بداية صعود نجم صلاح الدين
– سيف الدين غازي بن زنكي	٥٥٦	٥٧٦	الأيوبي في مصر، وأخذ الدولة الأيوبية المبادرة
– الملك الصالح بن نور الدين زنكي	٥٦٩		في الصراع ضد الصليبيين
– عز الدين زنكي	٥٧٦	٥٨٩	
– عماد الدين زنكي	٥٨٩	٥٩٤	
– قطب الدين محمد زنكي	٥٩٤		
خلاف مع نور الدين بن مسعود زنكي		٦٠٧	
– الملك القاهر عز الدين مسعود	٦٠٧	٦١٥	
– ابنه نور الدين ارسلانشاه بن الملك القاهر	٦١٥	٦١٥	
– ناصر الدين بن الملك القاهر	٦١٥		

الفصل الأول

العمليات العسكرية في عهد السلطان محمود السلجوقي

توفي السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه بن ألب ارسلان السنة إحدى عشرة وخمسمائة للهجرة بعد أن أحضر ولده محموداً، وعمره أربع عشرة سنة، وأمره بأن يخرج ويجلس على تخت السلطنة وينظر في أمور الناس. خرج الفتى وجلس في السلطنة على التخت مع التاج والسوارين، ثمّ أحضر الأمراء وأعلمهم بوفاة والده، وتليت وصيّته إلى ولده محمود التي يأمره فيها بالعدل والإحسان.(١)

خُطب للسلطان محمود في بغداد يوم الجمعة في الثالث عشر من المحرم، وعُيّن الربيب أبو منصور وزيراً له.

وكان السلطان محمد قد ولّى على الموصل ابنه مسعوداً، فلما توفي وولي ابنه محمود السلطنة خرج مسعود عن طاعة أخيه وسار من الموصل في جيش كبير إلى بغداد حيث نزل بدار الملك. ثمّ عُقد الصلح بين الأخوين بعد أن أقطع محمود أخاه مسعوداً اذربيجان.(٢)

وفي السنة ثلاث عشرة وخمسمائة للهجرة عصا الملك طغرل على أخيه السلطان محمود في قلعة سرجهان، فقصده السلطان بجيش من عشرة آلاف فارس وجرى قتال شديد بينهما. وفي السنة نفسها جرت حروب طويلة بين السلطان محمود وعمّه سنجر، وكان الأول قد تزوّج من ابنة الأخير، فسيّر محمود جيشاً من عشرة آلاف فارس، ثمّ عزّزه بعشرين

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء١ ٢، ص ١٩٧ – ١٩٨.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٩٧ – ٩٨.

ألفاً آخرين، فجرى قتال مع عمّه في جوار الري.[1] وكان جند سنجر عشرين ألفاً ومعهم ثمانية عشر فيلاً، الأمر الذي أهّله للانتصار على محمود، فخطب له في بغداد من السادس والعشرين من جمادى الأولى، قبل أن يتصالح الفريقان على أن يجعل سنجر محموداً ولي عهده ويعيد إليه ما كان قد استولى عليه من بلاده.[2]

وفي السنة ست عشرة وخمسمائة للهجرة صالح الملك طغرل أخاه السلطان محمود بعد أن كان خرج عن طاعته وقصد أذربيجان واعتصم فيها.

وفي السنة سبع عشرة وخمسمائة للهجرة تغلّب جيش السلطان على جيوش الكرج في مدينة شماخي.[3]

وفي السنة عشرين وخمسمائة للهجرة، جرت وحشة بين السلطان والخليفة المسترشد بالله، ودخلت مجموعة من جند السلطان دار الخلافة ونهبت التاج، ما جعل أهل بغداد يتألّبون لقتال السلطان. خرج الخليفة من قصره وراح ينادي بأعلى صوته: «يا لهاشم»، الأمر الذي دفع ثلاثين ألفاً من أهل بغداد إلى الاستجابة لندائه. وهكذا جرى قتال بين جيشي الخليفة والسلطان في البرّ وفي السفن، وحفرت الخنادق داخل بغداد، واشتدّ الأمر على أهلها.[4]

ثمّ صالح الخليفة السلطان وحمل إليه المال وأرسل إليه الخلع والهدايا، فرحل هذا الأخير عن بغداد إلى اصبهان، بعد أن حمل بدوره الخلع والهدايا إلى الخليفة.

وفي السنة خمس وعشرين وخمسمائة للهجرة توفي السلطان محمود في همذان إثر مرض ألمّ به، وكان عمره يومذاك سبعاً وعشرين سنة، وكانت ولايته للسلطنة اثنتي عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً.[5]

---

(١) المرجع نفسه، ص ٩٨ - ٩٩.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٨٢ - ١٨٣.

(٣) شماخي مدينة عامرة من قصبة بلاد شروان تعد من أعمال باب الأبواب.
- ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢١١.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٣٨ - ٢٣٩.

(٥) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٢١.

سنعالج في هذا الفصل العمليات العسكرية التي حصلت في عهد السلطان محمود والتي لخصناها في هذه المقدّمة.

١ - حصار قابس والمهدية[١]

كان الأمير يحيى صاحب افريقيا قد أنشأ أسطولاً بحرياً في المهدية، وكان يستعمله لنقل التجار عبر البحر الأبيض المتوسّط. وفي السنة إحدى عشرة وخمسمائة للهجرة قام رافع بن مكن الدهماني صاحب قابس بانزال مركب بحري على سواحل مدينته لاستعماله لنقل التجار أيضاً. لم يعارض يحيى الأمر، إلاّ أنه، وعند وفاته، ولّي أمر افريقيا ابنه علي، الذي لم يقبل بالأمر الواقع وقال: «لا يكون لأحد من أهل افريقيا أن يناوبني في إجراء المركب في البحر». ثمّ أرسل أسطوله إلى قابس وحاصرها.

خشي رافع نتيجة الحصار فراسل راجار ملك الفرنجة في صقلية، الذي وعده بنصره وأنفذ في الحال أسطولاً إلى قابس حيث تواجه الاسطولان. لكن أسطول الفرنجة ما لبث أن تراجع عن قابس وبقي أسطول افريقيا يحاصرها ويضيّق عليها الحصار.

في المقابل جمع رافع قبائل العرب في منطقة تونس وسار بهم حتى نزل على المهدية وحاصرها، وخادع علياً بأن أوهمه أنه إنما قدم المهدية للدخول في طاعته ولتوقيع الصلح معه. لكن علياً لم يقع في الفخ بل أخرج جيشه من المهدية وحمل حملة قوية على جيش رافع. واشتدّ القتال ومالت كفّة الربح إلى جانب جيش علي، فتراجع جيش رافع أمام الهجوم الصاعق وقتل عدد كبير من جنده.

واستمرّ القتال طوال يومين وكانت الغلبة لجيش المهدية، فاضطرّ رافع إلى التراجع بجيشه عنها ليلاً والسير إلى القيروان التي منعه أهلها عن دخولها، فقاتلهم أياماً، ثمّ دخلها.

بعد دخول رافع القيروان سيّر علي جيشاً كبيراً إليها، فحاصرها وأجبره على الخروج منها بجيشه والعودة إلى مدينته قابس. بعد ذلك وقّع الصلح بين الجانبين المتصارعين.

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٦٩ - ١٧٠.

أما راجار صاحب صقلّية فقد احتاط منه علي وأمر بتجديد الأسطول الافريقي وإعداد العدّة للقاء العدو. كما راسل قائد المرابطين في المغرب الأقصى وطلب الاجتماع معه تمهيداً لغزو صقلية، الأمر الذي دفع صاحبها إلى الكف عن تحرّكاته المعادية.

الدروس المستقاة:

أ - من دراسة مجرى المعارك المذكورة يتبيّن أن القائد علياً بن يحيى صاحب افريقيا كان يتمتع بحس استراتيجي مميّز. فهو لم يقع في حبائل حيلة عدوّه الذي قصده بجيشه لقتاله مدّعياً أنه قدم للمصالحة. وهكذا طبّق قاعدة «الشك بنوايا العدو» بنجاح فربح معركته.

ب - الملاحظ أيضاً أن الأمور الاقتصادية والسياسية هي التي فرضت المعركة على صاحب افريقيا الذي رفض إنهاء استئثاره بنقل التجار في البحر المتوسّط الغربي. «فالحرب هي متابعة السياسة بوسائل أخرى» أي بالعنف. فعندما لم يتمكّن علي من اقناع رافع بعدم إنزال مركبه في البحر، بدأ بحربه ضده.

ج - أمّا رافع فقد طبّق قاعدة «الغاية تبرّر الوسيلة». لذلك، ومن أجل الدفاع عن نفسه، لم يجد سوى وسيلة واحدة، وهي التحالف مع عدو المسلمين المشترك، الفرنجي صاحب صقلية.

د - طبّق راجار الفرنجي صاحب افريقيا خلال هذه الحرب مبدأ «نسبية الأهداف للوسائل». فهو، عندما تأكّد أن ميزان القوى راجحٌ لمصلحة خصمه صاحب افريقيا، تخلّى عن الصراع، فعاد أسطوله عن قابس إلى صقلية. فالقائد الذي يتمتع بحسّ المقياس وبالحسّ الواقعي يتجنّب المعركة الخاسرة ويعزف عن خوضها.

هـ - ومن مآثر علي صاحب افريقيا أنه قام بعقد تحالفات استباقية تمهيداً للصراع المحتمل ضد صاحب صقلية الفرنجي. فهو لم يكتفِ بتجديد أسطوله وإعداد عدّته للقاء عدوّه، إنّما راسل قائد المرابطين في المغرب وطلب الاجتماع معه كمقدّمة لغزو صقلية، الأمر الذي كوّن ردعاً ناجحاً لثني الملك الفرنجي عن مخططاته العدوانية ضد أفريقيا الاسلامية.

لكلّ هذه الأسباب يمكننا تصنيف علي ابن يحيى صاحب افريقيا من القادة العرب المسلمين المميّزين عبر التاريخ العسكري العربي الإسلامي.

٢ – الحرب بين السلطان محمود وعمّه سنجر

في السنة ثلاث عشرة وخمسمائة للهجرة قامت حرب شديدة بين السلطان محمود وعمّه سنجر،[١] انتصر فيها الأخير.[٢]

وكان السلطان سنجر قد سار إلى غزنة السنة ثمان وخمسمائة للهجرة، وحاصرها وفتحها، ثمّ عاد عنها إلى خراسان. فلما بلغته وفاة شقيقه، تلقّب بلقب أبيه ملكشاه «معز الدين»، وعزم على قصد بلدي الجبل والعراق وانتزاعهما من ابن أخيه.[٣]

فلما علم السلطان محمود بمسير عمّه أرسل إليه الهدايا والتُحف للكفّ عن التأهّب للقتال. لكن سنجر رفض ذلك بحجّة أن ابن أخيه صبي، وقد تحكّم به وزيره وحاجبه، ثمّ سار إلى جرجان وعلى مقدّمته الأمير أنز.[٤]

من جهته سيّر السلطان محمود في مقدّمته الأمير علي بن عمر،[٥] بعد أن أمّن له جمعاً كبيراً من الجند والأمراء الذين اجتمعوا في عشرة آلاف فارس وساروا إلى أن قاربوا طليعة جيش سنجر، حيث جرى قتال بين الطليعتين انتصر فيه الأمير علي واستولى على قسم من سواد أنز وأسر عدداً من أصحابه.[٦]

في هذا الوقت سار السلطان محمود إلى الري، قبل أن ينتقل إلى جرجان حيث عُزّز بجيش من العراق قوامه عشرة آلاف فارس

---

(١) سنجر هو والد زوجة السلطان محمود وشقيق والده السلطان محمد.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٠١.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٩٩.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٥١٣.

(٥) الأمير علي بن عمر كان حاجب السلطان محمد، وأصبح حاجب السلطان محمود.

(٦) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠٢٨.

بقيادة الأميرين منكبرس ومنصور بن صدقة،[١] والأمراء البكجية وغيرهم.

ثمّ سار سنجر إلى الري قاصداً قتال ابن شقيقه، فالتقى الجيشان قرب ساوة ثاني جمادى الأولى من السنة ثلاث عشرة وخمسمائة للهجرة، بعد أن سبق جيش السلطان محمود إلى الماء وملكه وحال دون وصول جيش سنجر إليه.

أ - عديد الجيشين:

بلغ عديد جيشي محمود وسنجر كالآتي:[٢]

- جيش السلطان محمود: ثلاثين ألفاً، وفيه كبار الأمراء، ومنهم علي بن عمر والحاجب ومنكبرس والاتابك غزغلي وبنو برسق وسنقر البخاري وقراجة الساقي ومعه ٩٠٠ حمل من السلاح.
- جيش سنجر: عشرين ألفاً، ومعهم ثمانية عشر فيلاً، كبيرها وقائدها اسمه «باذهو»، والأمير أنز وقماج صاحب سجستان وخرازمشاه.

ب - مجرى المعركة:

- في المرحلة الأولى استخفّ قادة جيش السلطان محمود بجيش عمّه سنجر، وذلك بسبب كثرة عديد جيش الأول وشجاعة أمرائه ووفرة خيلهم. فلما التقى الجمعان ضعفت معنويات جيش سنجر.

فلما بدأ القتال حملت ميسرة محمود وميمنته على جيش سنجر، الذي انهزمت ميمنته وميسرته، واختلط أصحابه واضطرب أمرهم وانهزموا لا يلوون على شيء. كما نهبت أثقالهم وكثر القتل فيهم.[٣]

- في المرحلة الثانية أشار أصحاب سنجر عليه بالهزيمة، فأبى وقال: «إمّا النصر وإمّا القتل. أمّا الهزيمة فلا».[٤]

ثمّ وقف القائد سنجر بين الفيلة في جمع من أصحابه، مقابل السلطان محمود ومعه

---

(١) منصور بن صدقة هو شقيق دبيس بن صدقة.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٠١.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠٢٩.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٨٤.

أتابكه غزغلي، فاضطرّ سنجر حيال تعاظم الخطب إلى إعطاء الأمر بهجوم الفيلة.

فلمّا تقدّمت الفيلة وشاهدتها خيل محمود تراجعت بأصحابها على أعقابها، ومالت كفّة الربح إلى جانب سنجر بعدما كان قد أوشك على الهزيمة. وهكذا كانت الفيلة، أو دبابات ذلك الزمان، هي من حسم القتال.

ج - نتائج القتال:

حيال ذلك أشفق سنجر على ابن أخيه وزوج ابنته فأمر بكفّ الفيلة عن جيشه، بعد أن انهزم محمود ومن معه في القلب وأُسر أتابكه غزغلي.

ثمّ أرسل سنجر من أعاد المنهزمين من أصحابه إليه.

وصل خبر انتصار سنجر إلى بغداد فأرسل دبيس بن صدقة إلى الخليفة المسترشد بالله يطلب منه الخطبة للسلطان سنجر، فخُطب له في السادس والعشرين من جمادى الأولى[1] وقطعت خطبة السلطان محمود الذي سار إلى أصبهان، حيث اجتمعت عليه العساكر وكثر عديد جيشه فخاف عمّه من القتال مجدداً، فراسله بالصلح بعد أن استولى على غزنة وأعمالها وما وراء النهر وخراسان.[2]

راسل سنجر محموداً بالصلح عارضاً عليه أن يجعله وليّ عهده، فأجابه هذا إلى ذلك واستقرّ الأمر بينهما، فسار محمود إلى عمّه سنجر في همذان وحمل إليه هديّة ثمينة فقبلها. وكتب سنجر إلى سائر الأعمال التي بيده، في خراسان، وغزنة وما وراء النهر وبغداد وغيرها من الولايات، بأن يخطب للسلطان محمود بعده. ثمّ أعاد له كلّ ما كان استولى عليه منه من البلاد، باستثناء الري، وصار محمود في طاعة عمّه سنجر.

د - الدروس المستقاة:

- قيل: «إن الحرب هي متابعة السياسة بوسائل أخرى، ولاسيما بالعنف».

وقد صحّ هذا القول في الحرب بين السلطانين السلجوقيين. فقد جرت

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٠١.

(٢) كان مشروع الصلح بمسعى من جدّة محمود ووالدة سنجر.

مباحثات سلمية قبل القتال لم يتوصّل فيها الطرفان إلى أي اتفاق، فأصبحت الحرب بينهما وشيكة لحلّ خلافهما السياسي والذي يتلخّص في من سيكون السلطان السلجوقي الأول، ومن سيكون التابع له.

وبعد حسم المعركة لصالح سنجر، عاد هذا الأخير وطبّق المبدأ نفسه، إذ أوقف القتال لأن هدفه ليس القتال الذي هو وسيلة لبلوغ هذا الهدف. وبعد هذا الحسم عمل على مصالحة خصمه الذي هو صهره وعيّنه وليّ عهده.

لذلك يمكن وصف السلطان سنجر بالاستراتيجي الكبير.

- هذه المعركة أظهرت ان مبدأ الحرب الذي ينصّ على «نسبية الأهداف للوسائل» لا يعني أن مقارنة جيشين تقتصر فقط على تعداد جندهما أو أسلحتهما. فجيش السلطان محمود كان متفوّقاً بالعديد والعدّة، لكن جيش سنجر كان يتمتع بمزايا أخرى أهمّ، ومنها:

- قيادة سنجر الناجحة لجيشه،

- استعمال سلاح جديد، هو سلاح الفيلة.

هذان العاملان حسما المعركة لمصلحة الجيش الأقل عدداً، رغم هزيمة جناحيه قبل زجّ الفيلة في القتال.

- سبق جيش السلطان محمود الجيش الآخر إلى مصدر الماء وحال دون وصوله إليه. وهذا ما يذكّرنا بمعركتين سابقتين من معارك الإسلام استعمل فيهما سلاح اللوجستية في القتال، هما معركة القادسية ووقعة كربلاء.(١)

ذلك لأن اللوجستية قد تقرّر مصير المعركة تمشياً مع المبدأ القائل: «إذا قالت اللوجستية: لا، فعلى القائد تغيير خطة عملياته التكتية».

لذلك شكّلت عملية تموين الجيوش الكبيرة أثناء الحملات، وما تزال، مسألة معقّدة ينبغي على القائد حلّها كي لا تتسبّب بكوارث. والمثال الأبرز على أهمية

---

(١) للاطلاع على تفاصيل الاستئثار بالمياه في القادسية انظر الجزء الرابع من هذه الموسوعة، وفي كربلاء انظر الجزء الثامن منها.

التموين يمكننا استخلاصه من معركة ستالنغراد، إذ أن مجموعة الجيوش الالمانية التي كان يقودها الماريشال ڤون باوليس، لم تستسلم للقيادة الروسية إلاّ عندما أصبح موضوع تموينها بالذخيرة والطعام والمياه متعذّراً، نظراً لتضييق الطوق عليها من قبل القيادة الروسية.

أما تأمين المياه في المنطقة التي جرت فيها عمليات الجيوش العربية الإسلامية خلال المرحلة التي نتكلّم عنها فكان أساسياً في كلّ خطة عمليات لهذه الجيوش، نظراً للطبيعة الصحراوية لأرض العمليات وللطقس الحار الذي يسودها. لذلك كانت السيطرة على مصادر المياه عاملاً مهماً في صراع أي جيش للنصر.

- في بداية المعركة استهان قادة جيش السلطان محمود بجيش عمّه سنجر، وهذا خطأ معنوي كبير خلال المعارك العسكرية. فالاستخفاف بقوّة العدو قد يجرّ إلى خسارة المعركة. لذلك تجهد القيادات العسكرية في جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن العدو، كي لا تقع في مفاجآت غير محمودة النتائج. من هنا يأتي دور أجهزة الاستخبارات العسكرية التي تعمل لهدفين:

- الأول: منع العدو عن الحصول على معلومات عن القوات الصديقة.
- الثاني: جمع معلومات صحيحة عن وضع القوات العدوّة لمقارنتها مع القوات الصديقة قبل وقوع القتال بينهما، وذلك ضمن شعار «اعرف عدوّك».

- ساهمت معنويات السلطان سنجر وإصراره على النجاح في ربح المعركة. فعندما انهارت معنويات معاونيه بسبب انهزام ميمنة جيشه وميسرته بقي محافظاً على رباطة جأشه ومصراً على النجاح ورافضاً الهزيمة. وهذا يظهر مدى أهمية القائد في المعركة.

فالأمثلة في التاريخ متعدّدة عن القادة الكبار الذين كان دورهم عاملاً حاسماً في معاركهم، وهؤلاء صُنّفوا من كبار القادة العالميين، أمثال الاسكندر المقدوني ويوليوس قيصر وهنيبعل وبونابرت وجينكيزخان وخالد بن الوليد وغيرهم.

- طبّق سنجر في المرحلة الثانية من المعركة مبدأ «الحصيل الأقصى للوسائل»

وقاعدة «المفاجأة التكتية». فقد ترك فيلته احتياطاً عاماً، وأحسن استعمال هذا الاحتياط في الوقت اللازم، فأحسن تطبيق مبدأ الحرب المشار إليه.

كما فوجىء قادة جيش السلطان محمود بهجوم الفيلة، فمالت كفّة النصر إلى جانب خصمهم.

واستعمال الفيلة يذكّر باستعمالها في معركة القادسية، رغم أن النتيجة لم تكن نفسها في المعركتين. ففي القادسية تمكّن القائد العربي سعد بن أبي وقاص من استيعاب صدمة هجوم الفيلة واختطّ طريقة لمواجهتها ووضعها خارج القتال. أما في معركة السلطانين فقد حسم هجوم الفيلة المعركة فوراً.

كما يذكّر هذا الاستعمال بالمفاجأة التكتية التي حصلت السنة ١٩١٧ خلال الحرب العالمية الأولى، عندما أُنزلت الدبابات البريطانية للمرة الأولى إلى القتال في معركة كونبري حيث حسمت المعركة بسرعة لمصلحة الحلفاء، وأنزلت بالجيش الالماني هزيمة كبرى. فالفيلة كانت خلال المرحلة التي نتكلّم عنها شبيهة بدبابات القرون المعاصرة كما سبق أن أشرنا إلى ذلك غير مرّة.

– أخيراً نرى أن هذه المعركة، أسوة بمعارك عديدة سبق الحديث عنها في هذه الموسوعة، وقعت لأسباب شخصية، وليس بسبب مبادىء عامة أو لأسباب استراتيجية تتعلّق بسياسة الدولة أو استراتيجيتها. فالقتال جرى بين سلطانين سلجوقيين نسيبين، ولم يبدأ إلاّ عندما رفض الأول رئاسة الثاني. وعندما انتهى القتال تبودلت الهدايا بين القائدين، وعيّن أحدهما ولي عهد الثاني، وأُعيدت إليه الولايات التي انتُزعت منه. أما الخسائر بالأرواح والممتلكات فكان من الممكن تفاديها لو أن كلاً من القائدين كان يتمتع بروح المسؤولية وحسّ المقياس لمعرفة إمكاناته مقابل إمكانات خصمه.

٣ – الحرب بين السلطان محمود وأخيه الملك مسعود

في ربيع الأول من السنة أربع عشرة وخمسمائة للهجرة وقعت فتنة بين السلطان محمود وأخيه الملك مسعود أدّت إلى الحرب

بينهما.[1] وكان مسعود حاكماً على الموصل وآذربيجان.

ردّ ابن الأثير أسباب الخلاف إلى دسائس بعض الأمراء المقرّبين من مسعود، فكتب:[2]

«وكان سبب ذلك أن دبيس بن صدقة كان يكاتب جيوش بك أتابك مسعود بحثّه على طلب السلطنة للملك مسعود ويعده المساعدة. وكان غرضه أن يختلفوا فينال من الجاه وعلو المنزلة ما ناله أبوه باختلاف السلاطين بركيارق ومحمد ابني ملكشاه على ما ذكرناه. وكان قسيم الدولة البرسقي أتابك الملك مسعود قد فارق شحنكية بغداد وقد أقطعه مسعود مراغة مضافة إلى الرحبة وبينه وبين دبيس عداوة محكمة، فكاتب دبيس جيوش بك يشير عليه بقبض البرسقي ذلك ففارقهم إلى السلطان محمود، فأكرمه وأعلى محله وزاد في تقديمه».

كما ساعد دبيس في تحرّكاته المعادية للسلطان وزير الملك مسعود الأستاذ أبو إسماعيل.

بلغ السلطان محمود خبر هذه التحرّكات، فكتب إلى أصحابها يخوّفهم ان خالفوه ويعدهم بالإحسان إن أطاعوه. لكنهم لم يصغوا إليه، وقرروا مهاجمته قبل أن يجتمع جنده الذي كان متفرّقاً.

إلاّ أن السلطان محمود تمكّن من حشد جيش قوامه خمسة عشر ألف مقاتل وسار إليهم، فالتقى الجيشان عند عقبة «أسدأباذ» حيث جرى قتال طيلة النهار. وكان القائد قسيم الدولة البرسقي[3] في مقدّمة السلطان محمود، فحمل على العدو حملة قوية انهزم خلالها جيش الملك مسعود وأُسر عدد كبير

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٩٦.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٩١.

(٣) كان البرسقي أتأ بك السلطان مسعود الذي اقطعه مراغة والرحبة. لكن دبيس بن صدقة كاتب جيوش بك يشير عليه بالقبض عليه متهماً إياه بالميل إلى السلطان محمود. علم البرسقي بالأمر فالتحق بالسلطان محمود الذي أكرمه وقدّمه على جنده.

من أعيانه ومقدّميه وجنوده، وبينهم وزيره أبو إسماعيل الذي أمر السلطان بقتله بسبب مساهمته في زرع الخلاف بين الشقيقين.(١)

أما الملك مسعود فانه، لما انهزم أصحابه وتفرّقوا عنه، قصد جبلاً يبعد عن مكان المعركة اثني عشر فرسخاً، فاحتمى به ومعه غلمانه وأخصاؤه. ثمّ أرسل في طلب الأمان من شقيقه الذي أمّنه واستقبله وأكرمه وأمر بالخطبة له في أذربيجان وبلد الموصل والجزيرة طوال ثمانية عشر يوماً.(٢)

أ - إخضاع دبيس بن صدقة:

لّما علم دبيس بن صدقة، الذي كان محرّك الخلاف بين الشقيقين، بعفو السلطان عن أخيه نهب بغداد وسوادها وأخرب المنازل والبساتين، وذلك رغم وصول رسول السلطان إليه حاملاً معه كتاب الأمان. لذلك أرسل إليه الخليفة المسترشد بالله رسالة يأمره فيها بالكف عن تصرّفاته، فلم يفعل بل سار إلى بغداد وضرب سرادقه مقابل دار الخلافة، وأرسل يهدّد الخليفة.(٣)

وهكذا أصبح الصراع وشيكاً بين السلطان ودبيس.

وبالفعل، لّما عاد السلطان إلى بغداد في رجب السنة أربع عشرة وخمسمائة للهجرة، خرج دبيس منها وأرسل الرسل في الهدايا لاسترضاء السلطان الذي رفض ذلك وقصد الحلة في ألف سفينة ليعبر بها النهر.(٤)

غادر دبيس الحلة بعد أن نهبها ولجأ إلى الأمير ايلغازي، وأرسل أخاه منصوراً في جيش من قلعة جعبر إلى العراق. ثمّ سار بنفسه في جيش كبير إلى الحلة السنة خمس عشرة وخمسمائة للهجرة، فحاصرها ودخلها وملكها، وأرسل إلى الخليفة والسلطان يعتذر ويعد بالطاعة. لم يستجب طلبه، بل سيّر السلطان جيشاً كبيراً إلى الحلة لإخضاعه بالقوّة.(٥)

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق ، جزء ١٢، ص ٢٠٣.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠٣٢.
(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٠٣.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٩٣.
(٥) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠٣٢ - ١٠٣٤.

وجد الجيش السلطاني الحلة خالية من سكانها، فاتخذ تدابير احترازية لمنع دبيس عن العودة للسيطرة على المنطقة، ومن هذه التدابير:[١]

١ - تركيز حامية في الحلة من خمسمائة فارس.

٢ - تركيز حامية أخرى في الكوفة وتكليفها بحفظ الطريق إليها ومنع دبيس عن السيطرة عليها.

٣ - تكليف جنود واسط بحفظ طريق البطيحة.

بعد اتخاذ هذه التدابير عبر السلطان بجيشه إلى دبيس، وتواجه الجيشان يفصلهما عن بعضهما مجرى ماء يمكن اجتيازه من أماكن عدّة. فلما رأى دبيس تصميم السلطان على مواجهته وتأكّد من التدابير الاحترازية التي اتخذها، أعلن عودته إلى طاعته، وأرسل أخاه منصوراً إليه رهينة.[٢]

ب - الدروس المستقاة:

- إنتهى الصراع السنة ست عشرة وخمسمائة للهجرة بعد أن طبّق السلطان مبدأ «اظهر القوّة كي لا تضطر لاستعمالها» الذي يذكّر بمبادىء حفظ الأمن الداخلي، حيث من الأفضل عدم اللجوء إلى العنف ضد المواطنين عندما يرتدعون عن متابعتهم العبث بأمن البلاد.

لقد اعتبر الصراع ضد دبيس بن صدقة صراعاً داخلياً، فاكتفى السلطان باتخاذ التدابير الرادعة ضده وإظهار جيشه الكبير، الأمر الذي أعاده إلى الطاعة.

- عمل الأمراء على زرع الخلاف بين السلطانين الشقيقين، وهذا أمر ليس بمستغرب، إذ أن الجيوش عرفت عبر عصور تاريخها الطويل، أمثلة مشابهة عندما كان يساهم القادة الصغار في وقوع خلافات بين كبار القادة مما يؤدّي إلى الصدام. فصغار الضباط والرتباء في الجيوش الحديثة يساهمون أحياناً، عن معرفة أو عن غير

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٩٣.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٠٣.

معرفة، في توسيع شق الخلاف بين رؤسائهم. ولقد سجّلنا خلال حياتنا العسكرية، لاسيما خلال قيادتنا للوحدات الكبرى، محاولات عديدة من مرؤوسينا لإيقاع الخلاف بيننا وبين قادة آخرين.

لذلك ينبغي على القائد العسكري عدم مماشاة مرؤوسيه دائماً في اقتراحاتهم في شأن العلاقات مع القادة الآخرين، بل عليه التثبت من المعلومات ومقاطعتها بمعلومات من مصادر أخرى غير منحازة قبل اتخاذ قراراته.

– أحسن السلطان محمود تطبيق مبدأي الحرب: «نسبية الأهداف للوسائل» و«حرية العمل». فبعد أن تأكّد من حجم جيش خصمه جمع جيشاً كبيراً، محققاً بذلك المبدأ الأول. ثمّ، وبهدف تأمين «حرية عمله»، اتخذ تدابير احترازية لحماية منطقة العمليات، ولاسيما خطوط المواصلات والتموين، ثمّ سار إلى خصمه ناشراً جيشه الكبير لردع هذا الأخير عن متابعة عملياته التخريبية.

وهكذا نجح في تنفيذ خطته المحكمة وربح المعركة.

٤ – الحرب بين المسلمين والكرج

في السنة أربع عشرة وخمسمائة للهجرة خرج الكرج[١] إلى بلاد الإسلام قاصدين تفليس[٢] غازين، ومعهم أُمم أخرى مجاورة لبلادهم، أبرزها القفجاق.[٣]

أمام هذا التهديد تكاتف المسلمون المجاورون لبلادهم واجتمعوا لقتالهم والدفاع عن مناطقهم، ومنهم الأمير إيلغازي ودبيس ابن صدقة الذي كان لاجئاً عنده والملك طغرل بن محمد وأتابكه كنتفدي.

---

(١) الكرج أو الخزر كانوا يغيرون قديماً على بلاد الإسلام. إلاّ أنهم امتنعوا عن ذلك منذ عهد السلطان ملكشاه وحتى آخر أيام السلطان السلجوقي محمد. وقد سبق الحديث عنهم في هذه الموسوعة. عن ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٠٤.

(٢) كانت تفليس داخلة في إطار الفتح الإسلامي واستمرّت بيد المسلمين حتى وقعت هذه المعركة فاتخذها بعدها الكرج مقراً لملكهم.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٠٣.

التقى الجيشان قرب تفليس، وكان عدد جيش المسلمين ثلاثين ألفاً. واصطفّا مقابل بعضهما تمهيداً لبدء المعركة، فخرج من الكرج مائتا مقاتل اتجهوا نحو صفوف المسلمين، الذين ظنّوا أنهم جاؤوا مستأمنين، فلم يأخذوا حذرهم منهم. ودخل هؤلاء بين صفوف المسلمين ورموا رشقاً من السهام فاضطربت صفوف المسلمين الأولى، فظنّ المقاتلون في الصفوف الخلفية ان الهزيمة قد نزلت بجيشهم، فانهزموا وتبعتهم الصفوف الأخرى التي اصطدم مقاتلوها بعضهم ببعض بسبب الازدحام.[1]

قتل عدد كبير من الجيش الإسلامي المنهزم، الذي تبعه الكرج مستغلّين النصر مسافة عشر فراسخ وأنزلوا بالمسلمين خسائر جسيمة جداً بالأرواح وأسروا أربعة آلاف مقاتل. ونجا الملك طغرل وإيلغازي ودبيس.[2]

ثمّ عاد الكرج من الملاحقة فنهبوا المنطقة المجاورة لبقعة العمليات وحاصروا تفليس مشدّدين الحصار عليها الذي دام حتى سنة خمس عشرة وخمسمائة للهجرة، فتمكّنوا من احتلالها رغم مقاومة أهلها الباسلة.

وكان أهل المدينة، وبعد أن تأكّدوا من صعوبة متابعة المقاومة، قد أرسلوا قاضي المدينة وخطيبها إلى الكرج في طلب الأمان. لم يقبل هؤلاء، بل أحرقوا الرسولين ودخلوا المدينة عنوة واستباحوها ونهبوها، ففرّ قسم من أهلها إلى بغداد مستنجدين بالخليفة وبالسلطان محمود.[3]

كتب ابن خلدون عن استيلاء الكرج على تفليس:[4]

«كان الكرج قديماً يغيرون على أذربيجان، وبلاد أرّان. قال ابن الأثير: والكُرْجُ هم الخُزْرُ وقد بينا الصحيح من ذلك عند ذكر الانساب. وأنَّ الخُزْرَ هم التركمان، إلاّ أن

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٩٤.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٠٣.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٠٤ - ١٠٥.

يكون الكرج في بعض شعوبهم فيمكن. ولما استفحل ملك السُّلْجوقيَّة أمسكوا عن الإغارة على البلاد المجاورة لهم. فلما توفي السلطان محمد رجعوا إلى الغارة فكانت سراياهم وسرايا القَفْجاق تغير على البلاد. ثمّ اجتمعوا وكانت بلد الملك طغرك، وهي أرّان ونقجوان إلى أوس مجاورة لهم فكانوا يغيرون عليها إلى العراق لملك بغداد. ونزل على دَبيس بن صَدَقَة فسار هو وأتابك كبغري ودَبيس بن صَدَقة وأبي الغازي بن ارتق. وسار في ثلاثين ألفاً إلى الكرج والقفجان فاضطرب المسلمون وانهزموا، وقتل منهم خلق، وتبعهم الكفار عشرة فراسخ. وعادوا عنهم وحاصروا مدينة تفليس، وأقاموا عليها سنة وملكوها عنوة».

أ - حملة السلطان محمود على الكرج:

سار السلطان محمود إلى أذربيجان وأقام في مدينة تبريز، ثم أرسل جيشاً إلى بلاد الكرج بعد أن وصلت جيوش الكرج إلى شماخي[1] من بلاد شروان.

نقل ابن الأثير رواية عن سير الحملة ورحيل الكرج عن المنطقة الإسلامية من دون قتال، بعد أن دبّ الخلاف في صفوفهم، فكتب:[2]

«اشتدّت نكاية الكرج في بلد الإسلام وعظم الأمر على الناس لاسيما أهل دوبند شروان، فسار منهم جماعة كثيرة من أعيانهم إلى السلطان وشكوا إليه ما يلقون منهم وأعلموه بما هم عليه من الضعف والعجز عن حفظ بلادهم. فسار إليهم والكرج قد وصلوا إلى شَمَاخي، فنزل السلطان في بستان هناك وتقدّم الكرج إليه فخافهم العسكر خوفاً شديداً. وأشار الوزير شمس الملك عثمان بن نظام الملك على السلطان بالعود من هناك. فلما سمع أهل شروان بذلك قصدوا السلطان وقالوا له: «نحن نقاتل مهما أتت عندنا وإن تأخّرت عنا ضعفت نفوس المسلمين وهلكوا». فقبل قولهم وأقام بمكانه

(١) شماخي: مدينة عامرة، وهي قصبة بلاد شرون - وتعد من أعمال باب الأبواب.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٢٤.

وبات العسكر على رجل عظيم وهم بنية المصاف، فأتاهم الله بفرج من عنده، وألقى بين الكرج وقفجاق اختلافاً وعداوة فاقتتلوا تلك الليلة ورحلوا شبه المنهزمين».

كما كتب ابن خلدون عن الموضوع نفسه:[1]

«ثمّ وفد سنة سبع عشرة على السلطان محمود جماعة من أهل دنباوند وشروان يستصرخونه على الكرج، ويشكون ما يلقون منهم فسار لصريخهم. ولما تقارب الفئتان همّ السلطان بالرجوع، وأشار به وزيره شمس، وتطارح عليه أهل شروان فأقام وباتوا على وجل. ثمّ وقع الاختلاف بين الكرج وقفجاق واقتتلوا ليلتهم ورحلوا منهزمين وعاد السلطان إلى هَمَذان والله تعالى أعلم».

ب - الدروس المستقاة:

- كان شعب الكرج ما يزال على بداوته لم يعرف الحضارة أو العمران. لذلك كان يغير دائماً على مناطق إسلامية مجاورة له كان أهلها قد عرفوا الحضارة والعمران فابتعدوا بذلك عن الأعمال الحربية.

كتب إبن خلدون في مقدّمته وتحت عنوان «أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر» ما يلي:[2]

«والسبب في ذلك أن أهل الحضر القوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة وانغمسوا في النعم والترف ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولّت حراستهم، واستناموا إلى الأسوار التي تحوطهم...

وأهل البدو، لتفرّدهم عن المجتمع وتوحّشهم في الضواحي وبعدهم عن الحامية وانتباذهم عن الأسوار والأبواب، قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم. فهم دائماً يحملون السلاح... وقد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية».

ينطبق هذا القول على سكان تفليس، الذين لم تحمِهم أسوارهم ولا تمكّن السلطان

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١١٠ - ١١١.

(٢) ابن خلدون، المقدّمة، دار الفكر، بيروت، ص ٩٩.

محمود من نجدتهم. وينطبق أيضاً على مختلف المجتمعات المتحضّرة التي تحيط بها شعوب ما زالت على بداوتها تغير دوماً على أطراف امبراطوريات هذه المجتمعات وتقتطع منها مناطق تسيطر عليها. فالثابت عسكرياً أنّ أهل البدو أشدّ بأساً وأكثر تحمّلاً للمشقات من أهل الحضر. ومن الأمثلة على هذا نذكر المقاتلين العرب في أيام الجاهلية الذين كانوا يغيرون على أطراف امبراطوريتين عريقتين في عالم الحرب، هما فارس وبيزنطية.

كما عرفت اوروبا الغربية أيضاً حالاً مماثلة، عندما راحت الشعوب البدوية التي أطلق عليها الرومان اسم «البرابرة» تغير من شمال أوروبا على أطراف الامبراطورية الرومانية بنجاح، والتي استطاعت السنة ٤٧٦ ميلادية إنهاء وجود هذه الامبراطورية والبدء بتكوين الأمم الأوروبية الحالية.

– حسمت المعركة بين المسلمين والكرج بسرعة، بسبب خطأ ارتكبه المسلمون حين أساؤوا فهم مناورة قام بها مائتا مقاتل من الكرج، وظنّوا أن هؤلاء جاؤوا مستأمنين، فتبيّن عكس ذلك. لذلك على القائد العسكري أن لا يأمن تحرّكات خصمه، بل يراقبها ويردّ عليها بسرعة، لأن المعارك العسكرية تتميّز عامة بسرعة اتخاذ القرارات.

كما أن اضطراب صفوف المسلمين الأولى جعل الصفوف الخلفية تعتقد بأنه بوادر هزيمة، فانهزمت. لذلك يعتبر التواصل بين القائد ووحدات جيشه مهماً جداً خلال المعركة كي لا يُساء فهم المناورات التي قد تقوم بها إحدى وحدات جيشه من قبل الوحدات الأخرى.

وهنا لا بدّ من الإشارة في معرض دراسة هذه المعركة إلى خطورة سريان الشائعات الهدّامة خلال القتال والتي قد تؤثّر سلباً في معنويات الجند وتؤدّي إلى الهزيمة. وتستحضرنا في هذا الإطار نهاية معركة «بلاط الشهداء» المأسوية في الأندلس، عندما سرت شائعات في صفوف الجيش الإسلامي نحن خطر يهدّد معسكر الغنائم، الأمر الذي دفع بمقاتلي القبائل إلى ترك ميدان القتال والتوجّه إلى ذلك المعسكر لحمايته.(١)

(١) لمزيد من التفاصيل عن معركة بلاط الشهداء، راجع الجزء السابع من هذه الموسوعة.

- حاصر الكرج مدينة تفليس مدّة طويلة من الزمن من دون أن تأتيها نجدات لفك الحصار عنها، فسقطت في أيدي المحاصرين.

ففي الاستراتيجية العسكرية، وعندما تحاصَر إحدى الوحدات حصاراً محكّماً، وبغية تخليصها من الحصار، يرى المحللون العسكريون أن أمامها احتمالين:

- الأول ويقضي بتكليف وحدات أخرى بالتوجّه إلى مكان الحصار وتنفيذ عملية هجومية هدفها فك الحصار.
- الثاني ويقضي بقيام الوحدة المحاصرة بعملية هجومية مركّزة على إحدى جهات الطوق لفكّه والخروج بسرعة من المنطقة المحاصرة والابتعاد عنها.

أما في حال مدينة تفليس، فإنه لم ينفذ أي من الاحتمالين المذكورين فسقطت في قبضة الكرج.

- أقدم الكرج على إحراق الرسولين اللذين أُرسلا للتفاوض معهم من قبل مدينة تفليس. هذا التصرّف لا يمكن أن يصدر عن جيش متحضّر، كما أننا لم نسجّل في موسوعتنا هذه أي حال مماثلة من قبل القادة العرب المسلمين. فالشهامة العربية والشرف اللذان كانت تتمتع بهما القبائل العربية قبل الإسلام، قويا مع انتشار مبادىء الدين الإسلامي، الأمر الذي دفع بالقادة المسلمين إلى احترام الرسل خلال الحرب ومعاملتهم معاملة حسنة.

٥ - غزوات الأمير إيلغازي

في السنة أربع عشرة وخمسمائة للهجرة أثنى الخليفة المسترشد بالله على الأمير إيلغازي لمساهمته في الجهاد ضد الفرنجة واقطعه مدينة ميافارقين التي تسلّمها من يد سقمان السنة خمس عشرة وخمسمائة للهجرة.(١)

وكان إيلغازي قد جمع جيشاً كبيراً وسار به إلى مكان يدعى «ذات البقل» من أعمال حلب، حيث اصطدم بجيش للفرنجة، فجرى

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠٣٤.
نقل ابن خلدون ان هذه المدينة بقيت في يد إيلغازي ويد بنيه إلى أن ملكها منهم صلاح الدين بن أيوب سنة ٥٨٠هـ.

قتال عنيف بين الجيشين تمكّن خلاله إيلغازي ومعاونه الأتابك طغتكين صاحب دمشق من محاصرة الفرنجة وتطويقهم من مختلف الجهات.[1]

حاول الفرنجة فك الطوق من دون نجاح، فأشار الأتابك طغتكين على إيلغازي بالإفراج عنهم كيلا يحملهم الخوف على أن يستبسلوا في القتال ويخرجوا بقوّة إلى المسلمين وقد يظفرون بهم. وكان خوفه بسبب جودة خيل الفرنجة وضعف خيل المقاتلين الأتراك الذين شكّلوا غالبية جيشه.[2]

نفّذ إيلغازي حركة إفراجية سمحت للفرنجة بالتخلّص من الطوق والانسحاب بعيداً من مكانه.

ومن الأسباب التي دفعت إيلغازي للقبول بالإفراج عن الفرنجة، أنه كان يجمع جيشاً من التركمان للتوجّه إلى القتال، فيحضر كلّ منهم معه جراباً فيه دقيق وبعض اللحم المقدد. ويعد التركمان الساعات لغنيمة يظفرون بها، ثمّ يسرعون عائدين إلى مناطقهم بعد ذلك، فإذا طال مقامهم تفرّقوا عنه.

الدروس المستقاة:

أ - نفّذ إيلغازي حركة إفراجية سمحت للفرنجة المحاصرين بالخروج من الحصار والابتعاد من ساحة المعركة، وذلك خوفاً من استبسالهم في القتال وجودة خيولهم.

هذه الحركة التكتية الإفراجية ليست الأولى في التاريخ العسكري الإسلامي، إذ أننا سجّلنا حركة مشابهة أمر بها القائد العربي خالد بن الوليد خلال قيادته الجيوش العربية الإسلامية في معركة اليرموك، بعد أن كانت هذه الجيوش قد حاصرت الروم بين وادي اليرموك ونهر الرقاد الذي كان المنفذ الوحيد لهم. ولما حاول فرسان الروم الخروج من الطوق، أمر خالد عمراً بن العاص بأن يُفسح لهم طريق الهرب، ففعل. وهذا ما سمح لخالد بالقضاء على مشاة الروم الذين كانوا ما يزالون داخل الطوق من دون تغطية من قبل

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٩٤ - ١٩٥.

(٢) المرجع نفسه.

الخيالة، فتمّ سحقهم بسرعة بهجوم من الخيّالة الإسلامية.[1]

ب – على الصعيد اللوجستي، نقل ابن الأثير أن المقاتل التركماني كان يُحضر معه خلال الحملات جراباً من جلد شاة فيه دقيق وبعض اللحم المقدّد، ما يسمح له بالتموّن الذاتي فلا يشكّل عقبة لوجستية للجيش. هذا الإنجاز اللوجستي سمح للجيوش السلجوقية بمتابعة القتال لمدّة طويلة في مناطق قاحلة لا تؤمّن تموين الجيش من نتاجها الزراعي.

تمكننا مقارنة طريقة التموين هذه بطريقة تموين جيوش المغول التي كان يقودها جنكيزخان. فخلال حملته على مملكة خوارزم نفّذ هذا الأخير خطّة استراتيجية رائعة امتدّت على مسافات بلغت ستمائة كيلومتراً، في جيش بلغ عديده ٢٠٠ ألف خيال مع مليون جواد وقافلة من الجواميس. أما الطريقة التي أمّن بها جنكيزخان لوجستية هذا الجيش الضخم، فكانت تقضي بأن يصطحب كلّ خيال معه عدداً من الأجربة فيها كميات من الدقيق واللحم المقدّد. وكانت هذه الأجربة تساعد الخيول في اجتياز مجاري الأنهار بعد نفخها لتصبح كالعوّامات.

جاء في كتابنا «المجتمعات العسكرية عبر التاريخ» ما يأتي:[2]

«ولم يهمل جنكيزخان اللوجستية فزوّد خيالته بحصّة طعام إحتياطية وعدّة حفر حملية موضوعة داخل جلد ماعز كان المحارب يعلّقه في ذيل الحصان ويستعمله عند اجتياز الأنهار لمساعدة الحصان على العوم».

وهكذا تمكّن القائد المغولي من اجتياز ١١٢٠ كيلومتراً في خمسة عشر يوماً خلال حملة بولونيا، و٤٥٠ كيلومتراً في ثلاثة أيام خلال حملته على المجر.

٦ – الحرب بين الخليفة المسترشد بالله ودبيس بن صدقة

أشرنا سابقاً إلى إرسال دبيس بن صدقة أخيه منصور رهينة إلى السلطان محمود،

(١) للمزيد من التفاصيل عن معركة اليرموك والحركة الافراجية انظر الجزء الرابع من هذه الموسوعة.

(٢) العميد سامي ريحانا، المجتمعات العسكرية عبر التاريخ، دار الحداثة، ١٩٩٦، ص ١٩٧.

لكن الخليفة لم يقبل بذلك، وطلب من السلطان إبعاد دبيس عن العراق وتكليف الأمير آقسنفر البرسقي بمحاربته في حال تعرّضه للأهالي مجدداً.(١)

وبالفعل أحضر البرسقي جيشه من الموصل وسار إلى الحسكة في السنة ست عشرة وخمسمائة للهجرة، فالتقى بجيش دبيس عند نهر بشير شرقي الفرات، حيث دارت معركة عنيفة انهزم فيها البرسقي.(٢)

أما سبب الهزيمة فنقله ابن الأثير الذي كتب ما يأتي:(٣)

«وكان سبب الهزيمة أنه (أي البرسقي) رأى في ميسرته خللاً وبها أمراء البكجية، فأمر بإلقاء خيمته وأن تنصب عند الميسرة ليقوى قلوب من بها. فلما رأوا الخيمة وقد سقطت، ظنوها انها هزيمة فانهزموا وتبعهم الناس والبرسقي».

ثمّ أمر دبيس جماعة من أصحابه بالعودة إلى اقطاعهم في واسط، فساروا إليها فمنعهم أتراكها عن دخولها. لذلك جهّز دبيس جيشاً بقيادة مهلهل بن أبي العسكري لقتالهم، فطلب الواسطيون مساعدة أقسنفر البرسقي الذي أمدّهم بجيش من عنده، فالتقى الجيشان وجرى قتال بينهما هزم خلاله جيش دبيس وقتل منه ما يزيد عن ألف قتيل.

ثمّ سار جند واسط إلى النعمانية فأجلوا عنها عسكر دبيس واستولوا عليها بعد أن حصل قتال بينهم وبين دبيس كان النصر خلاله إلى جانبهم.(٤)

وفي السنة سبع عشرة وخمسمائة للهجرة أرسل دبيس رسالة تهديد إلى الخليفة، الأمر الذي جعل المسترشد بالله يقرّر محاربته بنفسه، علاوة على تكليف البرسقي بالسير إليه ومقاتلته.(٥)

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢١٤.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٠٨.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢١٤.
(٤) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٢١٥.
(٥) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠٣٨.

وتحضيراً للحملة أمر الخليفة بالمناداة في بغداد لكي لا يتخلّف أحد من الأجناد، ومن أحبّ من العامة الجندية فليحضر، فجاءه خلق كثير فرّق فيهم الأموال والسلاح.

لما علم دبيس بهذه التحضيرات كتب إلى الخليفة يستعطفه، فلم يجبه إلى ذلك. وصف ابن كثير خروج الخليفة من بغداد للقتال، فكتب:(١)

«فنودي في بغداد للخروج لقتاله. وبرز الخليفة في الجيش وعليه قباء أسود وطرحة، وعلى كتفيه البردة وبيده القضيب، وفي وسطه منطقة حرير صيني، ومعه وزيره نظام الدين أحمد بن نظام الملك، ونقيب النقباء علي بن طراد الزينبي، وشيخ الشيوخ صدر الدين بن إسماعيل. وتلقاه آقسنفر البرشقي ومعه الجيش فقبلوا الأرض ورتّب البرشقي(٢) الجيش، ووقف القرّاء بين يدي الخليفة».

كما كتب ابن الأثير عن الموضوع نفسه:(٣)

«وأخرجت خيام الخليفة في العشرين من ذي الحجة من سنة ست عشرة فنادى أهل بغداد النفيرَ النفير الغزاةَ الغزاة. وكثر الضجيج من الناس وخرج منهم عالم كثير لا يحصون كثرة. وبرز الخليفة رابع عشرة ذي الحجة وعبر دجلة وعليه قباء وعمامة سوداء وطرحة وعلى كتفه البردة وفي يده القضيب وفي وسطه منطقة حرير صيني. ونزل الخيام ومعه الوزير نظام الدين أحمد بن نظام الملك ونقيب الطالبيين ونقيب النقباء علي ابن طراد وشيخ الشيوخ صدر الدين إسماعيل وغيرهم من الأعيان. وكان البرسقي قد نزل بقرية جِهار طاق ومعه عسكره، فلما بلغهم خروج الخليفة عن بغداد عادوا إلى خدمته. فلما رأوا الشمسة ترجّلوا بأجمعهم وقبّلوا الأرض بالبعد منه».

أ - التحضير للمعركة والجهازية:

نزل الخليفة بالحُديثة في نهر الملك واستدعى البرسقي والأمراء واستحلفهم

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٠٨.
(٢) في ابن خلدون وابن الأثير: البرسقي.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢١٩.

على الحرب. ثمّ سار الجميع إلى النيل ونزلوا بالمباركة، حيث عبّأ البرسقي أصحابه ووقف الخليفة من وراء الجميع مع خاصته.[١]

وكان عديد الجيشين كالآتي:[٢]

- جيش دبيس: عشرة آلاف فارس واثنا عشر ألف راجل.
- جند البرسقي: ثمانية آلاف فارس وخمسة آلاف راجل.

التعبئة للمعركة:[٣]

- عبّأ دبيس جيشه صفاً واحداً ميمنة وميسرة وقلباً، وجعل الرجّالة بين يدي الخيالة بالسلاح، وكانت الإماء تضربن بالدفوف مع المخانيث[٤] لدب الحماس في الجند.
- عبّأ البرسقي جيشه ووضع في الميمنة الأمير أبا بكر بن إلياس مع الأمراء البكجية، كما نصب كميناً غير مرئي قوامه خمسمائة فارس بقيادة الأمير آق بوري.
- أما جيش الخليفة فكانت أعلامه مع الأمير كرباوي بن خراسان، وفي ساقته سليمان بن مهاوش.

ب - مجرى المعركة:[٥]

في بداية المعركة حمل عنتر بن أبي العسكر من جيش دبيس على ميمنة البرسقي التي تراجعت على أعقابها وقتل عدد من جنودها. ثمّ عاد عنتر وحمل حملة ثانية على الميمنة نفسها، فكان حالها في الرجوع على أعقابها كحالها الأولى.

فلما رأى عسكر واسط ذلك حملوا مع قائدهم عماد الدين زنكي بن آقسنفر على جند عنتر فجاؤوهم من ظهورهم. وهكذا أصبح عنتر في الوسط وعماد الدين زنكي وجيش واسط من ورائه، والأمراء

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠٣٩.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٢٠.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) المخانيث أب المخنثين.

(٥) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٠٨.

البكجية من أمامه، فانهزم وأُسر وكلّ من معه.

ولما اختلط الناس خرج الكمين على جند دبيس وهاجمهم، ففوجئوا به وانهزموا جميعهم وألقوا بأنفسهم في الماء، فغرق عدد كبير منهم وقتل عدد آخر.(١)

وحين رأى الخليفة اشتداد الحرب جرّد سيفه وكبّر وتقدّم إلى القتال، الأمر الذي زاد حماس المحاربين إلى جانبه وحسم المعركة لمصلحته.(٢)

ولما حُمل الأسرى من جيش دبيس إلى بين يدي المسترشد، أمر بأن تضرب أعناقهم جميعاً. أما دبيس فانه، لما انهزم، نجا بفرسه وفرّ هارباً من أرض المعركة.

كتب ابن خلدون عن نتيجة المعركة:(٣)

«وكان من عسكر المسترشد كمين متوار، فلما التحم الناس خرج الكمين واشتدّ الحرب، وجرّد المسترشد سيفه وكبر وتقدّم فانهزمت عساكر دبيس. وجيء بالأسرى فقُتلوا بين يدي الخليفة وسُبي نساؤهم. ورجع الخليفة إلى بغداد في عاشوراء من سنة سبع عشرة».

ج - الدروس المستقاة:

- كان للخليفة دور بارز في الحرب ضد دبيس. فهو الذي أعطى الأمر بملاحقته من قبل البرسقي، وقام بتجنيد أهل بغداد للقتال، وحضر المعركة وخاض غمارها. وهذا ما زاد الحماس في صفوف جنده وحفّزهم على القتال.

فالقائد الذي يعطي المثل لجنده في المعركة يزيد من حوافزهم ويدفعهم إلى بذل كلّ جهدهم للنصر. فهو يأمرهم قائلاً: «اتبعوني»، فلا يعود أي منهم إلى التلكؤ أو الانهزام. لقد سبق وأوردنا في هذه الموسوعة أمثلة عن إعطاء القائد المثل الصالح لجنده في القتال، لاسيما خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعقبة بن نافع وعبد الرحمن الغافقي وغيرهم منَ الذين نجحوا في قياداتهم

(١) ابن كثير، المرجع نفسه.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠٣٩.

(٣) المرجع نفسه.

العسكرية، في زمن لم تكن مبادىء الفن العسكري قد دوّنت في الكتب العربية الإسلامية بعد.

– هُزم جيش البرسقي في المعركة الأولى عند نهر بشير شرقي الفرات بعد أن أساء الجند فهم حدث إلقاء خيمة قائدهم تمهيداً لنقلها إلى الجانب المهدد من جيشه، فاعتبروا ذلك إشارة الهزيمة. لقد أعاد التاريخ العسكري نفسه، إذ أنّ حدثاً مماثلاً كان قد حصل خلال حملة السلطان محمود على الكرج والتي ذكرت في الفقرة الرابعة من هذا الفصل. ففي تلك المعركة أدّى اضطراب صفوف المسلمين الأولى إلى هزيمة الصفوف الخلفية التي اعتقدت ذلك من بوادر الهزيمة. وقد سبق وأوردنا تعليقاً على خطورة سوء الفهم هذا على مجرى القتال.

– قام الخليفة المسترشد بالله بتجنيد أهل بغداد وتحضيرهم للقتال بعدما فرّق فيهم الأموال والسلاح. وهذا ما يسمّى في اللغة الاستراتيجية بالتعبئة العامة للحرب، والذي تنفّذه الدول عندما تتهدّد مصالحها من قبل قوّة عسكرية خارجية. ومفهوم التعبئة هو مفهوم قديم في الاستراتيجية العسكرية. ففي أوروبا، على سبيل المثال، وخلال القرون الوسطى من تاريخها، كان الإقطاعيون يعمدون إلى تعبئة أنصارهم وتسييرهم إلى القتال، أما لمصلحتهم الخاصة أو تحت راية الملك عند قيام هذا الأخير بحملات عسكرية داخلية أو خارجية. القبائل العربية اعتمدت أيضاً هذا الحل في معاركها منذ ما قبل الإسلام، إذ كانت تجنّد عند الحاجة، كلّ القادرين على حمل السلاح من أبنائها عند تعرّض مصالحها للأخطار. أما مفهوم الجيوش المحترفة فهو مفهوم متأخّر في الميدان العسكري.

– عبّأ دبيس جيشه صفاً واحداً ميمنة وميسرة وقلباً من دون الاحتفاظ باحتياط لاستعماله حيث تدعو الحاجة. أما جيش الخليفة والبرسقي فكان قد انتشر على صفوف عدّة، إذ نُشر جيش البرسقي في الصفوف الأمامية، فيما بقي الخليفة وجيشه في الخلف، وكُلّف سليمان بن مهاوش بقيادة الساقة. فمن المتعارف عليه، ومنذ الزمن القديم، أن نشر جيش خلال المعركة على صف واحد يعرّضه للهزيمة عند خرق هذا الصف. وهذا ما حصل، إذ أن ميمنة جيش

الخليفة صمدت خلال هجومين عنيفين لجيش دبيس، فيما انهار هذا الجيش عند تعرّضه للتطويق والهجوم.

والاحتياط في القتال يؤمّن للقائد مبدأ حرية العمل ويسمح له بالمناورة والتدخّل في المكان والزمان المناسبين. فالقائد القرطاجي هنيبعل كان ينشر جيشه أثناء المعركة على صفوف ثلاثة من الرجالة، ويركز الخيالة على الجانبين فيستعملها للسحق والتطويق والملاحقة. وهذا ما سمح له بسحق الجيش الروماني في معركة «كان» السنة ٢١٦ق.م. التي اعتبرت من أهم معارك الافناء في التاريخ العسكري القديم.

- نصب البرسقي كميناً غير مرئي أمّن له عنصر المفاجأة، فحُسمت المعركة لمصلحته. فهو لم يكتفِ بنشر جيشه على صفوف عدّة، بل احتفظ بورقة الكمين إلى اللحظة الأخيرة فأمّن بذلك مبدأي حرية العمل والحصيل الأقصى للوسائل بعدما فوجىء جيش دبيس بالكمين.

- لعب عماد الدين زنكي دوراً مهماً في القتال ضد جيش دبيس، فشنّ بجند واسط حملة عنيفة ضد جند عنتر الذي كان قد نفّذ هجومين ناجحين على ميمنة جيش البرسقي. وقد جاء زنكي من خلف صفوف عدوّه، الأمر الذي سمح له بتطويق جند عنتر ووضعه خارج القتال، وبالتالي الانتصار في المعركة.

لقد برز خلال هذا القتال قائدان من عائلة البرسقي التي تحدّرت منها سلالة آل زنكي، هما آقسنفر البرسقي وعماد الدين زنكي. وهذه السلالة، كما سبق القول، ستلعب في ما بعد دوراً مهماً في حماية الخلافة العباسية وفي الصراع ضد الفرنجة في الشرق الإسلامي. وهذا ما سنتكلّم عنه لاحقاً في هذا الجزء من الموسوعة.

٧ - عمليات عسكرية مختلفة

خلال السنة سبع عشرة وخمسمائة للهجرة وقعت معارك ثانوية ونفّذت أعمال عسكرية متنوّعة، نذكر منها:[١]

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٢٤ - ٢٢٦.

أ - أغار جمع كبير من مدينة لواتة على القاهرة، فأفسد فيها ونهبها واعتدى على السكان.

جمع الوزير المأمون بن البطائحي جند مصر وسار إليهم، فجرت معركة عنيفة هُزم خلالها مقاتلو لواتة وأُسر عدد منهم وقتل عدد آخر.

ب - بعد أن تهدّمت أجزاء واسعة من سور بغداد بسبب المعارك التي وقعت بين الخليفة والسلطان من جهة، ودبيس بن صدقة من جهة ثانية، وبغية تعزيز حماية المدينة من غزوات مماثلة لغزوة دبيس، أمر المسترشد بالله بإعادة بناء سور بغداد.

عمل في الورشة أهل بغداد الذين راحوا يتناوبون العمل، فيعمل أهل كلّ محلّة منفردين بالطبول والزمور وتزيين البلد.

ج - سار طغتكين صاحب دمشق إلى حمص فهاجمها ونهبها وأحرق جوانب متعدّدة منها، وحاصرها مشدداً الحصار عليها. وكان صاحب حمص القائد فرجان محتمياً بقلعتها، فاستمدّ طغّان ارسان الذي سار إليه في جيش كبير هدّد مؤخّرات جيش طغتكين الذي رفع الحصار عن المدينة وعاد إلى دمشق.

د - وفي مصر اصطدم الأسطول الإسلامي بأسطول عائد إلى البندقية، فجرى قتال بحري عنيف كان الظفر فيه للبنادقة الذين استولوا على بعض سفن الأسطول المصري، وعاد الباقي منه سالماً إلى بلاده.(١)

هـ - سار الأمير محمود بن قراجة صاحب حماه إلى حصن أفامية، فهاجم ربضه بغتة ودمّر بعضاً منه. إلاّ أن سهماً من القلعة أصابه فأودى بحياته.(٢)

فلما بلغ طغتكين صاحب دمشق خبر وفاته سيّر جيشاً إلى حماه فملكها وضمّها إلى ولايته وعيّن عليها والياً وزوّد حاميتها بجند من دمشق.(٣)

(١) المرجع نفسه، ص ٢٢٥.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢١١.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٢٦.

و - وفي السنة ثمان عشرة وخمسمائة للهجرة سار بلك بن بهرام بن أرتق صاحب حلب إلى منبج، فقبض على صاحبها الأمير حسان البعلبكي وحاصرها مع قلعتها التي امتنعت عليه بعد أن استنجد أهلها بالفرنجة الذين ساروا إليها لفك الحصار عنها.(١)

فلمّا قارب الفرنجة المدينة ترك بلك قسماً من جيشه لمتابعة محاصرة القلعة، وسار بباقي الجيش إلى الفرنجة فاصطدم بجيشهم وجرت معركة عنيفة هُزم فيها الفرنجة وقتل عدد كبير من مقاتليهم.

ثمّ عاد بلك إلى منبج وحاصرها فأصابه سهم قاتل، فاضطرب جيشه وتفرّقت عناصره. ورُفع الحصار عن منبج التي نجت بفضل السهم الذي أطاب قائد الجيش المحاصِر.(٢)

التعليق على العمليات:

أ - قام الخليفة المسترشد بالله بإعادة بناء سور بغداد في عمل احتياطي يهدف إلى حماية المدينة من غزوات مستقبلية. كما سبق وشارك الخليفة نفسه في الحرب ضد دبيس بن صدقة وحمل بنفسه على جيش خصمه.

فالملاحظ أن المسترشد، وبخلاف باقي الخلفاء العباسيين في عصرهم الرابع، كان ميّالاً إلى الخوض في غمار العمليات الاستراتيجية بدلاً من تكليف السلطان السلجوقي بتأمين حمايته وحماية بغداد. وسنرى لاحقاً الخليفة إياه يخوض غمار القتال ضد الملك طغرل، فيما تراجعت أخبار المعارك التي شارك فيها السلطان محمود.

فهل عادت الخلافة إلى الانتعاش في عهده؟ هذا ما سنراه لاحقاً.

ب - عندما حاصر طغتكين مدينة حمص كان أمام صاحبها أحد خيارين للتخلّص من الحصار، كما سبق وأوردنا سابقاً:

- أما الخروج من القلعة ومهاجمة الجيش المحاصِر بنفسه.

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢١٢.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٢٧.

- أو طلب النجدة من قوة خارجية تقوم بفك الحصار عنه.

اختار القائد فرجان الحل الثاني، فاستنجد بطغّان الذي هدّد بجيشه مؤخرات المحاصِرين الذين أصبحوا مهدّدين من الأمام ومن الوراء، فرفعوا الحصار عن المدينة.

ج - في معركتين من المعارك المذكورة أدّى مقتل القائد إلى انهزام جيشه، وفي الحالين اضطرب الجيش بعد مقتل قائده وأوقف القتال. لقد كان القائد خلال هذه المرحلة من التاريخ المحرّك والملهم لجيشه، لكن هذه الشخصانية لم تكن دائماً حاضرة في التاريخ الإسلامي، إذ سجّلنا في أجزاء سابقة من هذه الموسوعة أن النبي ﷺ والخلفاء الأوائل كانوا يعيّنون أميراً على الجيش المتجه إلى الجهاد، ويحددون من يتسلّم القيادة في حال مقتله. لذلك كان الجيش يتابع مهمّته حتى ولو قتل قائده.

وحالياً تركّز الجيوش الحديثة على مبدأ استمرارية القيادة، فتعيّن لكلّ قائد مساعداً ينوب عنه في حال غيابه ويتسلّم القيادة عندما يتعرّض القائد لأي طارىء يمنعه من تأدية دوره.

د - طبّق بلك في حصاره قلعة منبج قاعدة «المناورة بالخطوط الداخلية» بنجاح. فهو لم يرفع الحصار عنها عندما هُدّدت مؤخرات جيشه من قبل الفرنجة، بل ترك قسماً من جيشه لمتابعة الحصار وسار بنفسه مع القسم الأكبر منه فاصطدم بالفرنجة وهزمهم ووضعهم خارج المعركة. وهكذا تفرّغ مجدّداً للمهمّة الأساسية التي هي حصار القلعة قبل أن يُصرع بسهم أصاب منه مقتلاً.

لقد سبق وشرحنا قواعد المناورة بالخطوط الداخلية في موضع سابق من هذه الموسوعة.

٨ – الحرب للسيطرة على حلب

كان الفرنجة قد احتلّوا مدينة صور في السنة سبع عشرة وخمسمائة للهجرة، بعد أن كانت تتبع للخلافة الفاطمية منذ السنة ست وخمسمائة للهجرة. وهكذا قويت نفوسهم وارتفعت معنويات جنودهم،

فطمعوا بالاستيلاء على كامل بلاد الشام بعد أن أعلنوا التعبئة العامة لجيوشهم.[1]

في هذه الأثناء قصدهم دبيس بن صدقة صاحب الحلّة فاطمعهم بمدينة حلب، وقال لهم:[2]

«إن أهلها شيعة وهم يميلون إليّ لأجل المذهب، فمتى رأوني سلّموا البلد لي».

وبذل دبيس للفرنجة لمساعدته أموالاً طائلة، مشترطاً أن يكون نائبهم في حلب بعد أن يتمّ احتلالها.

وبالفعل سارت جيوش الفرنجة إلى المدينة وحاصرتها حصاراً محكماً، فجرت حول أسوارها معارك عنيفة لم يتمكّن خلالها الفرنجة من حسمها بسرعة. لذلك، ومع اقتراب فصل الشتاء، قاموا ببناء البيوت حول سور المدينة، ما يعني تصميمهم على متابعة محاصرتها حتى سقوطها بأيديهم.[3]

أمام اشتداد الضعف العسكري على حلب، وخوفاً من سقوطها بيد الفرنجة، خاصة أن معنويات صاحبها تمرتاش أصابها الوهن والعجز وقلّت الأقوات داخلها، استنجد أهلها بآقسنقر البرسقي صاحب الموصل طالبين منه مساعدتهم لقاء تسليمه المدينة.[4]

لبّى البرسقي الدعوة وملك حلب وأضافها إلى ولايته على الموصل. ونقل ابن الأثير رواية عن نهاية الصراع حول مدينة حلب بسيطرة البرسقي ورحيل الفرنجة عنها، فكتب:[5]

«فلمّا رأى أهلها ذلك ضعفت نفوسهم وخافوا الهلاك وظهر لهم من صاحبهم تمرتاش الوهن والعجز وقلّت الأقوات عندهم. فلما رأوا ما دفعوا إليه من هذه الأسباب أعملوا الرأي في طريق يتخلّصون به فرأوا أنه ليس لهم غير البرسقي صاحب الموصل

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١١٢.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٣٠.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١١٢.
(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢١٢.
(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٣٠.

فأرسلوا إليه يستنجدونه ويسألونه المجيء ليسلموا البلد إليه. فجمع عساكره وقصدهم وأرسل إلى من بالبلد وهو في الطريق يقول: «إنني لا أقدر على الوصول إليكم والفرنج يقاتلونكم إلاّ إذا سلّمتم القلعة إلى نوابي وصار أصحابي فيها، لأنني لا أدري ما يقدّره الله تعالى إذا أنا لقيت الفرنج. فإن انهزمنا منهم وليست حلب بيد أصحابي حتى أحتمي أنا وعسكري بها، لم يبقَ منا أحد. وحينئذ تؤخذ حلب وغيرها». فأجابوه إلى ذلك وسلّموا القلعة إلى نوابه. فلما استقرّوا عليها سار في العساكر التي معه، فلما أشرف عليها رحل الفرنج عنها وهو يراهم، فأراد من في مقدّمة عسكره أن يحمل عليهم فمنعهم هو بنفسه وقال: «قد كفينا شرّهم وحفظنا بلدنا منهم، والمصلحة تركهم حتى يتقرّر أمر حلب ونصلح حالها ونكثر ذخائرها ثمّ حينئذ نقصدهم ونقاتلهم». فلما رحل الفرنج خرج أهل حلب ولقوه وفرحوا به وأقام عندهم حتى أصلح الأمور وقرّرها».

أما ابن خلدون، فاختصر الرواية وكتب:(١)

«لمّا سار دبيس إلى الافرنج حرّضه على حلب، وان ينوب فيها عنهم، ووجدهم قد ملكوا مدينة صور، وطمعوا في بلاد المسلمين. وساروا مع دَبيس إلى حلب فحاصروها حتى جهد أهلها الحصار، وبها يومئذ تاس بن تمرتاش ابن أُرتُق فاستنجد بالبرسقي صاحب الموصل، وشرط عليهم أن يمكّنوه من القلعة، ويسلّموها إلى نوابه. وسار إلى أنجادهم فأجفل عنهم الافرنج، ودخل إلى حلب فأصلح أمورها.ثمّ سار إلى كفرطاب فملكها من الافرنج».

الدروس المستقاة:

أ - استنجد دبيس بن صدقة بالفرنجة لمقاتلة مدينة حلب بعد أن دفع لهم أموالاً طائلة. وقد اعتقد دبيس أن أهل حلب لن يقاوموه كونه يدين بمذهبهم الشيعي. لقد حاول دبيس اللعب على الخلافات المذهبية المتأصّلة منذ الفتنة الكبرى في الإسلام، إلاّ أن حساباته لم تنطبق على المفاهيم الاستراتيجية لأهل حلب الذين رفضوا

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١١٢.

التجاوب معه بسبب تعامله مع أعداء الإسلام، أي الفرنجة. لذلك استنجدوا من جهتهم بقائد سبق وحارب الفرنجة وهزمهم هو آقسنقر البرسقي.

ب - حرص البرسقي على تأمين «حريّة عمله» قبل الإقدام على نجدة أهل حلب، وذلك من خلال أخذ احتمال هزيمة جيشه أمام الفرنجة في الاعتبار، فطلب تسليمه قلعة حلب ليحتمي جنده فيها عند الضرورة. فالقائد المتبصّر يضمّن خطته احتمالات متعدّدة، ويصمّم خططاً بديلة للخطّة الأساسية التي يعتمدها في مناورته.

لكن البرسقي لم يستغلّ انتصاره حول حلب، فعندما انسحبت الجيوش الفرنجية عنها لم يقم باستغلال النصر وملاحقة هذه الجيوش المتراجعة. فاستغلال النصر هو مرحلة من مراحل القتال تنفّذها الجيوش بعد انتصارها في أي معركة، وتهدف إلى تدمير أكبر قدر ممكن من القوات العدوّة المتراجعة والتي تكون معنوياتها في إدنى مستوياتها.

لذلك تشكّل مرحلة تراجع الجيوش اثر الهزائم التي تمنّى بها عملية صعبة ومعقّدة، وذلك للأسباب الآتية:

- تكون معنويات الوحدات المتراجعة متدنّية جداً مقابل عدوّ يتمتع بالتفوّق وبالمعنويات المرتفعة نتيجة التفوّق.

- فك التماس مع الوحدات العدوّة المهاجمة والانسحاب من أمامها يشكّلان آلية عسكرية معقّدة، بسبب وجوب ترك قسم من هذه الوحدات في اشتباك مع العدو لتأمين انسحاب القسم الآخر.

هذا النوع من القتال يسمّى «القتال التراجعي» وتعتمده الجيوش عندما تتعرّض في صورة مفاجئة إلى عملية هجومية واسعة من قبل جيوش معادية. ويكون الهدف من هذا القتال تأخير العدو مدّة كافية لتحضير عظيم الجيوش الصديقة للمعركة. وعندما تصبح الجيوش الصديقة جاهزة تنتقل من

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٢٤٨ - ٢٤٩.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٦١ - ٢٦٢.

الدفاع إلى الهجوم، لأن أفضل وسيلة لتأمين النصر هي العمليات الهجومية.

٩ - الصراع على بغداد بين الخليفة والملك طغرل

بعدما تراجع دبيس بن صدقة عن حصار حلب، قصد في السنة تسع عشرة وخمسمائة للهجرة الملك طغرل في الشام الذي استقبله وجعله من أخصّ أمرائه، فأقنعه دبيس بمهاجمة العراق، بعدما سهّل له الأمر، ضامناً ملكيّته وهزيمة الخليفة.(١)

وبالفعل سار الملك طغرل على رأس جيشه إلى العراق في السنة تسع عشرة وخمسمائة للهجرة. فلما بلغ دقوقا،(٢) كتب مجاهد الدين بهروز من تكريت يعلم الخليفة بخبره. فأمر الخليفة بجمع الجند الذين بلغ عديدهم اثني عشر ألف فارس، علاوة على الرجالة.

خرج الخليفة بجيشه من باب النصر(٣) وبين يديه الأمراء والقادة وأرباب الدولة، وكان الجيش بقيادة يرنقش الزكوي، فنزل الجميع صحراء الشماسية. ولما علم طغرل بخروج الخليفة، سار إلى طريق خراسان حيث انصرف جنده إلى النهب والفساد، قبل أن يقصده الخليفة والوزير جلال الدين بن صدقة في جيش كبير إلى الدسكرة.

أمام هذا التهديد، ونظراً إلى تفوّق جيش الخليفة، صمّم طغرل ودبيس خطة المواجهة على الشكل الآتي:(٤)

- يعبر كامل الجيش ديالي وتامرّا(٥) ويقطعان جسر النهروان.

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢١٣.

(٢) دقوقا: بلدة قرب تكريت.

(٣) كان الخليفة قد أمر بفتح هذا الباب ودعاه باب النصر.

(٤) إبن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١١٣.

(٥) ديالي: نهر كبير قرب بغداد

- تامرّا: قسم من سواد بغداد بالجانب الشرقي.

- يقيم دبيس في المكان ليحفظ المعابر.
- يتقدّم طغرل إلى بغداد فيملكها وينهبها.

وبدأ تنفيذ الخطة فعبر دبيس تامرّا ونزل طغرل بينه وبين ديالي على أن يلحقه دبيس.

وهنا تدخّلت العوامل الطبيعية فحالت دون وقوع القتال بين الجهتين، ودون إكمال تنفيذ خطة طغرل ودبيس، خاصة أنها جاءت بعامل لم يكن جندهما معتاد عليه، وهو العواصف والمطر الغزير. فقد نزل من المطر ما لم يشاهدوا مثله من قبل، وزادت المياه وجاءت السيول، فيما الخليفة في الدسكرة.[١]

أما دبيس، وبعد أن لقي هو وأصحابه من المطر والبلل والبرد والجوع ما آذاهم، فصادف في ديالي غربي النهروان قافلة من ثلاثين جملاً تحمل الثياب والعمائم والأقبية والقلانس وغيرها من الملبوس إلى الخليفة، علاوة على الطعام، فاستولى عليها وألبس جنده ثياباً غير مبلّلة وموّنهم بالطعام. ثمَ نام الجميع في دفء الشمس، ففاجأهم الخليفة بجمع من جيشه.[٢]

ثمّ وصلت رايات الخليفة فيما جند دبيس غير مستعد للقتال، إنما جميعهم نيام في الشمس.

فلما أبصر دبيس جيش الخليفة، تقدّم بنفسه أمامه وقبّل الأرض بين يديه، فرّق له الخليفة، لكن الوزير ابن صدقة ثناه عن العفو عنه.

ثمّ تمركز الجيشان مقابل بعضهما، فوقف جيش دبيس في مواجهة جيش يرنقش الزكوي الذي عبر برجّالته إلى ديالي لإعادة إقامة الجسر على النهر، الأمر الذي دفع دبيساً إلى التراجع بجيشه والانسحاب للانضمام إلى الملك طغرل، مستغلاً انشغال جيش الخليفة بإعادة مدّ الجسر.

سيّر الخليفة وحدة من جيشه بقيادة الوزير في اثر دبيس، وعاد إلى بغداد بعد أن غاب عنها خمسة وعشرين يوماً.

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢١٣.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٣٢ - ٢٣٣.

أما طغرل ودبيس فسارا إلى همذان للالتجاء إلى الملك سنجر، فبلغ خبرها السلطان محمود الذي جنّد جيشاً واتّجه إليهما، فجرت معركة انهزم فيها طغرل ودبيس وفرّ جندهما من مكان القتال، ودخل الجميع خراسان حيث التحقوا بالملك سنجر.(١)

الدروس المستقاة:

أ - إكمالاً للمعلومات التي أوردناها في الفقرة السابقة نلاحظ أن الخليفة المسترشد بالله خاض بنفسه الصراع العسكري، فيما كان السلطان السلجوقي محمود يراقب العمليات من دون التدخّل فيها، وذلك بعكس ما كان يجري على الصعيد العسكري خلال عهود السيطرة السلجوقية على الخلافة.

ب - علم الخليفة باقتراب جيش طغرل ودبيس من أحد عيون الدولة في تكريت، فاتخذ التدابير الاحترازية وخرج بجيشه من بغداد مبعداً عنها العمليات العسكرية. لقد أُنذر الخليفة بالخطر فتجنّبه، وهذا ما يؤكّد أهمية المراقبة البعيدة لبقعة العمليات بهدف تفادي المفاجآت والاحتياط لها.

حالياً، تعمل الجيوش الحديثة على إطالة مدى مراقبتها، مستعملة الأقمار الاصطناعية وطائرات التجسّس البعيدة المدى وطائرات الإنذار المبكر، وذلك بهدف معرفة ما يحضّر العدو من خطط وما يقوم به من تحرّكات. من هنا تأتي أهمية أعمال الجاسوسية التي تجنّد لها الاستخبارات العسكرية في الدول عملاء من صفوف العدو لقاء إغراءات مادية ومعنوية مهمّة.

ج - لاحظنا أيضاً خلال هذا الصراع أن الملك طغرل ودبيساً وضعا خطة للمواجهة، تقضي بحفظ معابر النهر وتثبيت جيش الخليفة في بقعة المواجهة، تمهيداً للانتقال إلى بغداد والسيطرة عليها ونهبها. وهذه الخطة كانت محكمة ومحضّرة جيداً، وكادت تنجح لولا تدخّل الطبيعة وإفشالها.

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١١٤.

فللعوامل الطبيعة تأثير كبير في مجرى العمليات، خاصة إذا كان الجند غير محضّر لمواجهتها ولا يملك الوسائل والتجهيزات اللازمة للصمود أمامها. فالجيوش التي كانت على مسرح العمليات لم تكن مجهّزة للصمود أمام الشتاء الغزير والبرد القارس والوحول، فتراجع إداؤها في القتال.

والأمثلة على دور الطبيعة في العمليات العسكرية كثيرة خلال التاريخ العسكري، نكتفي منها بذكر دور «الجنرال ثلج» في كلّ الحروب التي جرت على مسرح عمليات روسيا منذ حملة نابوليون بونابرت الكبرى عليها والتي انتهت بكارثة عليه وعلى جيشه؛ إلى اجتياح روسيا من قبل الجيوش الالمانية الذي انتهى بسحق هذه الأخيرة في معركة ستالنغراد.

د - فاجأ جيش الخليفة دبيساً فيما لم يكن جاهزاً للقتال، مما اضطر هذا الأخير إلى الركوع أمام الخليفة وطلب عفوه. فعندما يفاجأ جيش يفقد حرية عمله فيتراجع إداؤه.

لقد أحسن الخليفة استعمال جيشه الذي كان دائم الجهوز والذي حافظ على حرية عمله طوال مدّة العمليات. كما أنه، عندما انسحب طغرل ودبيس من ساحة المعركة في اتجاه همذان، كلّف وزيره بملاحقتهما مستغلاً الانتصار المعنوي الذي حقّقه عليهما دون وقوع القتال بينهم.

أما دبيس فقد أحسن تطبيق مبدأ «نسبية الأهداف للوسائل». فلما تأكّد من تفوّق جيش الخليفة انسحب بجيشه، ولم يخُض قتالاً غير متكافىء قد يعرّض جيشه للهزيمة والسحق وخسارة الأرواح.

١٠ - الحرب بين الخليفة المسترشد بالله والسلطان محمود

في السنة عشرين وخمسمائة للهجرة غادر القائد يرنقش الزكوي بغداد بعد خلاف مع نواب الخليفة المسترشد بالله، فتوجّه إلى السلطان محمود وحذّره من الخليفة، وأعلمه أنه قد قاد الجند في الحروب فقويت شوكته وأصبح يعتبر نفسه قائداً عسكرياً. لذلك على

السلطان معالجته بقصد العراق ودخول بغداد.(١)

وبالفعل توجّه السلطان إلى العراق، فطلب منه الخليفة عدم دخول بغداد نظراً إلى المحن التي سبق وحلّت بالمدينة خلال الحرب مع دبيس، وتأخير هذا الدخول إلى أن يصلح حال المدينة. وبذل الخليفة للسلطان مالاً كثيراً، لكن هذا الأخير قويت هواجسه في شأن وضع الخليفة وقرّر الدخول إلى بغداد رغم طلب الخليفة عكس ذلك.(٢)

فلمّا بلغ الخليفة تصميم السلطان على دخول بغداد عبر هو وأهله وحرمه ومن معه من أولاد الخلفاء إلى الجانب الغربي من المدينة مظهراً الغضب والانزعاج، وذلك رغم استعطاف السلطان وطلبه منه العودة إلى داره. وهكذا دخل السلطان بغداد وغادر الخليفة داره فيها.(٣)

ثمّ أرسل الخليفة عفيفاً الخادم، وهو من خواصه، في جند إلى واسط ليمنع عنها نواب السلطان الذي أرسل بدوره جيشاً إليها بقيادة عماد الدين زنكي بن آقسنفر صاحب البصرة، فجرى قتال بين الجيشين انهزم خلاله جيش الخليفة وقتل من جنده عدد كبير، وأُسر مثلهم.(٤)

ثمّ حشد الخليفة السفن وسدّ بها أبواب دار الخلافة ما عدا باب النوبى، ولم يبقَ أحد من حواشي الخليفة في الجانب الشرقي من بغداد سوى حاجب الباب المذكور. وبقي السلطان يراسل الخليفة طالباً منه العودة إلى دار الخلافة والصلح معه، لكن الخليفة كان يمتنع دائماً عن القبول. وقد جرت بين العسكريين من الجانبين معارك جانبية عديدة.(٥)

ثمّ دخلت جماعة من جند السلطان دار الخلافة ونهبوا التاج وحجر الخليفة السنة

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٣٧.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢١٤.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠٤٢ - ١٠٤٤.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٣٨.
(٥) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠٤٣.

إحدى وعشرين وخمسمائة للهجرة،[١] فضجّ أهل بغداد واجتمعوا ونادوا للجهاد، فأقبلوا من كلّ ناحية فوقعت معركة بين الجانبين كتب عنها ابن الأثير ما يأتي:[٢]

ولمّا رآهم الخليفة خرج من السرادق والشمسة على رأسه والوزير بين يديه وأمر بضرب الكوسات والبوقات ونادى بأعلى صوته: «يا لهاشم»، وأمر بتقديم السفن ونصب الجسر. وعبر الناس دفعة واحدة، وكان له في الدار ألف رجل مختفين في السراديب، فظهروا وعسكر السلطان مشتغلون بالنهب فأسر منهم جماعة من الأمراء ونهب العامة دار وزير السلطان، ودور جماعة من الأمراء ودار عزيز الدين المستوفي ودارَ الحكيم أوحد الزمان الطبيب وقتل منهم خلق كثير في الدروب. ثمّ عبر الخليفة إلى الجانب الشرقي ومعه ثلاثون ألف مقاتل من أهل بغداد والسواد، وأمر بحفر الخنادق فحفرت بالليل وحفظوا بغداد من عسكر السلطان. ووقع الغلاء عند العسكر واشتدّ الأمر عليهم. وكان القتال كلّ يوم عليهم عند أبواب البلد وعلى شاطىء دجلة».

وأراد جند الخليفة مهاجمة جيش السلطان، لكن الأمير أبا الهيجاء الكردي صاحب إربل غدر بهم فخرج كأنه يريد القتال، لكنه التحق هو وجنوده بجيش السلطان الذي قوي به.

أ - تعزيز جيش السلطان بعماد الدين زنكي:

وكان السلطان قد استدعى عماد الدين زنكي وجيشه من واسط وأمره بأن يحضر بنفسه ومعه المقاتلون في السفن وعلى البرّ، فجمع عماد الدين سفن البصرة وسار فيها إلى بغداد، بعد أن شحنها بالمقاتلين وأكثر فيها من السلاح.[٣] فلما قارب بغداد، أمر المقاتلين في السفن وفي البر بارتداء السلاح وإظهاره، فسارت السفن في الماء والرجالة على شاطىء دجلة بعد أن أظهروا

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دار الكتب العلمية، بيروت، جزء ١٧، ص ٢٤٢.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٣٩.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢١٥.

ما عندهم من الأسلحة، ما أوقع الرعب في نفوس أهل بغداد.

ثمّ ركب السلطان وجيشه إلى لقائهم، فاجتمعت الجيوش بقيادته، فأثنى على عماد الدين زنكي الذي عزم على مقاتلة أهل بغداد في البر والماء.

أمام هذا الواقع قبل الخليفة المسترشد بالأمر واستجاب للصلح، فتردّدت الرسل بينه وبين السلطان الذي اعتذر عمّا جرى. وكان أعداء الخليفة قد أشاروا على السلطان بإحراق بغداد فلم يقبل، بل أقام فيها إلى شهر ربيع الآخر السنة إحدى وعشرين وخمسمائة للهجرة، فحمل إليه الخليفة من المال الشيء الكثير، وأهدى إليه الخيول والأسلحة.(١)

نقل ابن خلدون رواية عن الصراع الذي جرى بين الخليفة والسلطان بعد استدعاء عماد الدين زنكي، فكتب:(٢)

«وجاء عماد الدين زنكي من البصرة في حشود عظيمة ملأت البرّ والبحر فاعتزم السلطان على قتال بغداد. وأذعن المسترشد إلى الصلح فأصطلحوا، وأقام السلطان ببغداد إلى ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين، ومرض فأشير عليه بمفارقة بغداد فارتحل إلى همذان، ونظر فيمن يوليه شحنة العراق مضافاً إلى ما بيده، ويثق به في سدّ تلك الخلة. وحمل إليه الخليفة عند رحيله الهدايا والتحف والألطاف فقبل جميعها».

ب - التعليق على حرب الخليفة والسلطان:

- رغم التهديد الفرنجي الذي بلغ أشدّه خلال هذه المرحلة، انصرف أكبر زعيمين في العالم الإسلامي الشرقي إلى القتال بينهما.

- وكان من المتعارف عليه خلال العصر العباسي الرابع أن الخليفة يهتمّ عادة بقضايا الدين والعبادة، فيما ينصرف السلاطين السلاجقة إلى الأمور العسكرية العملانية وإلى القيام بمسؤولية حماية موقع الخلافة من كلّ اعتداء. لكن الخليفة المسترشد بالله شذّ عن هذه القاعدة، فقاد الجيوش ونفّذ الحملات التأديبية ضد الثائرين. وهذا

(١) ابن الجوزي، مرجع سابق، جزء ١٧، ص ٢٤٢.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠٤٤.

ما جعل الصدام حتمياً بينه وبين السلطان السلجوقي. وسينتهي الأمر بالخليفة إلى الاتفاق مع السلطان السنة تسع وعشرين وخمسمائة على ما يأتي:[١]

- يؤدي الخليفة مالاً للسلطان.
- لا يعود يجمع الجند ويقود الحملات العسكرية.
- لا يخرج من داره.

بعد هذا الاتفاق وُضع الخليفة في خيمة وفارقه من كان موكلاً بحمايته، فقصده أربعة عشر رجلاً من الباطنية، ودخلوا عليه، فقتلوه، ومثّلوا به، وجدعوا أنفه. وقُتل معه نفر من أصحابه.[٢]

- كان أهل بغداد ما يزالون متعلّقين بالخليفة، لذلك، عندما خرج من داره ونادى: «يا لهاشم»، هبَّ أهل المدينة زرافات ووحداناً لمساعدته، فبلغ مجموعهم ثلاثين ألفاً، وقاموا بحفر الخنادق ليلاً للدفاع عن خليفتهم أمير المؤمنين.

ورغم ذلك دأب السلطان السلجوقي على الخضوع للخليفة والركوع أمامه، وطلب الصلح معه، كون الخليفة رمزاً دينياً يجلّه كلّ المسلمين ويحترمونه، ولا يرضون بإذلاله.

- خلال هذه المواجهة برز القائد عماد الدين زنكي الذي حسم الصراع لمصلحة السلطان، والذي أحضر جيشه من واسط في البر والماء في تظاهرة للقوّة أعطت نتائجها الفعّالة بتراجع الخليفة عن المواجهة. وسيلعب عماد الدين زنكي لاحقاً دوراً عسكرياً مهماً يؤهّله لإقامة دولة آل زنكي وتسلّمها دور حماية الخلافة من السلطنة السلجوقية، علاوة على الاضطلاع بواجب الصراع ضد الممالك الفرنجية في الشرق. وهذا ما سنركّز عليه في ما يتبع من هذا الجزء.

- كتب ابن الأثير عن دخول زنكي إلى بغداد ما يأتي:[٣]

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٣٨.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٢٨ - ٢٢٩.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٣٩.

«فلما قارب بغداد (عماد الدين زنكي) أمر كلّ من معه في السفن وفي البر بلبس السلاح وإظهار ما عندهم من الجلد والنهضة، فسارت السفن في الماء والعسكر في البر على شاطىء دجلة قد انتشروا وملؤوا الأرض براً وبحراً، فرأى الناس منظراً عجيباً كبر في أعينهم وملأ صدورهم. وركب السلطان والعسكر إلى لقائهم فنظروا إلى ما لم يروا مثله وعظم عماد الدين في أعينهم».

– أحسن الخليفة تطبيق مبدأ «نسبية الأهداف للوسائل». فهو، وعندما تأكّد من تفوّق جيش خصمه، استجاب إلى الصلح من دون أن يخوض معركة غير متكافئة. وهكذا نجا وجنده من هزيمة مؤكّدة.

ملحق رقم ٢

مقتل القائد الأمير علي ابن عمر

في سنة ٥١٣ هـ قتل الأمير علي بن عمر حاجب السلطان محمد. وكان قد صار أكبر أمير مع السلطان محمود وانقادت العساكر له فحسده الأمراء وأفسدوا حاله مع السلطان محمود وحسّنوا له قتله. فعلم فهرب إلى قلعة برجين وهي بين بروجرد وكرج وكان بها أهله وماله. وسار منها في مائتي فارس إلى خوزستان، وكانت بيد أقبوري بن برسق وإبني أخويه أرغلي بن يلبكي وهندو بن زنكي، فأرسل إليهم وأخذ عهودهم بأمانه وحمايته، فلما سار إليهم أرسلوا عسكراً منعوه من قصدهم فلقوه على ستة فراسخ من تستتر، فاقتتلوا فانهزم هو وأصحابه، فوقف به فرسه فانتقل إلى غيره فتشبّث ذيله بسرجه الأول فأزاله فعاود التعلّق فأبطأ فأدركوه وأسروه. وكاتبوا السلطان محموداً في أمره فأمرهم بقتله فقُتل وحمل رأسه إليه.[١]

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٨٧.

ملحق رقم ٣

سيرة القائد دبيس بن صدقة

كتب ابن كثير عن دبيس ما يأتي:(١)

«ابن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد أبو الأعز الأسدي الأمير من بيت الإمرة وسادة الأعراب، كان شجاعاً بطلاً، فعل الأفاعيل وتمرّق(٢) في البلاد من خوفه من الخليفة. فلمّا قُتل الخليفة عاش بعده أربعة وثلاثين يوماً. ثمّ اتُهم عند السلطان بأنه قد كاتب زنكي ينهاه عن القدوم إلى السلطان، ويحذّره منه، ويأمره بأن ينجو بنفسه. فبعث إليه السلطان غلاماً أرمنياً فوجده منكساً رأسه في خيمته، فما كلّمه حتى شهر سيفه فضربه فأبان(٣) رأسه عن جثّته. ويقال بل استدعاه السلطان فقتله صبراً بين يديه فالله أعلم».

وكتب ابن الجوزي عن دبيس أيضاً ما يأتي:(٤)

«كان أبوه يحفظ الذمام، فلما ولي المسترشد مضى إليه الأمير أبو الحسن ظناً أنه على طريقة أبيه فأسلمه. وجرت له وقائع مع المسترشد بالله، وكان ينهب القرى ويزعج البلاد. فلما قتل المسترشد عزم دبيس على الهرب ووجد له ملطفة قد بعثها إلى زنكي يقول له: «لا تجيء واحتفظ نفسك». فبعث إليه السلطان غلاماً أرمنياً من سلاحيته، فوقف على رأسه وهو ينكت الأرض بإصبعه. فما أحسّ به حتى ضربه ضربة أبان بها رأسه. وقيل: «بل قُتل بين يدي السلطان».

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٣٠.

(٢) تمرّق: خرج.

(٣) أبان: أزال.

(٤) ابن الجوزي، مرجع سابق، جزء ١٧، ص ٣٠٣.

الفصل الثاني

بروز الأتابك عماد الدين زنكي على المسرح السياسي والعسكري

في السنة إحدى وعشرين وخمسمائة للهجرة أسند السلطان السلجوقي محمود شحنكية[١] العراق إلى عماد الدين زنكي بن آقسنقر، وذلك مكافأة له على إنجازاته العسكرية في حفظ مدينتي واسط والبصرة ونواحيهما؛ الأمر الذي كان قد عجز عنه من سبقه.[٢]

فلما عزم السلطان على الخروج من بغداد، عرض أمراء دولته وأعيانها فلم يجد فيهم من يصلح لهذا الأمر سوى عماد الدين زنكي. كما استشار السلطان معاونيه الذين نصحوه باعتماد زنكي لولاية العراق.[٣]

وهكذا سار السلطان عن بغداد بعد أن اطمأنّ إلى أنها في أيدٍ أمينة؛ وبدأت أسرة زنكي تبرز أكثر فأكثر على الساحة السياسية والعسكرية الإسلامية الشرقية.

بدأ عماد الدين في تكوين دولته مستنداً إلى إمكاناته القيادية المميّزة وإلى قادة مساعدين له برهنوا أنهم على قدر كبير من التحسّس بالمسؤولية. فخلال السنة نفسها توفي عز الدين مسعود بن البرسقي صاحب الموصل، فاستولى على البلاد مملوك له يعرف بـ«الجاولي» مستغلاً اسم ابن البرسقي الذي كان ما يزال صبياً صغيراً.[٤]

---

(١) شحنكية اسم يطلق على والي العراق.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢١٧.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١١٦ - ١١٧.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٤٣.

لكن بعض معاوني البرسقي خافوا من الجاولي ورأوا ان القائد المؤهّل لتسلّم ولاية الموصل وأعمالها والتصدّي للفرنجة هو عماد الدين زنكي.

كتب ابن الأثير عن الموضوع ما يأتي:[(١)]

«وكان لا بدّ للبلاد من رجل شهم ذي رأي وتجربة يذبُّ عنها ويحفظها ويحمي حوزتها...»

وقد رفع هؤلاء المعاونون الأمر إلى السلطان محمود الذي استحسنه وأجاب إلى توليته، فأحضره وولاّه البلاد كلّها، وكتب منشوراً بذلك. وتسلّم عماد الدين الموصل وضبط أمورها قبل أن يسير إلى جزيرة ابن عمر فيدخلها ويسيطر عليها.[(٢)]

ثمّ سيطر زنكي على نصيبين وسنجار والخابور وحرّان.[(٣)]

وفي السنة اثنتين وعشرين وخمسمائة للهجرة ملك عماد الدين مدينة حلب وقلعتها ومنبج ومراغة، وحاصر مدينة حمص من دون أن يتمكّن من فتحها.[(٤)]

وفي السنة ثلاث وعشرين وخمسمائة للهجرة ملك مدينة حماه وقلاعاً عدّة من بلاد الجزيرة.[(٥)]

وفي السنة أربع وعشرين وخمسمائة للهجرة، فتح عماد الدين حصن الأثارب[(٦)] بعد أن هزم حاميته الفرنجية، كما ملك مدينة سرجى[(٧)] ودارا، وقتل عدداً كبيراً من جندهما، فمدحه الشعراء على ذلك.[(٨)]

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢١٧.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١١٨.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٤٦.

(٥) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢١٨.

(٦) حصن الأثارب في بلاد الجزيرة.

(٧) سرجى مدينة بين ماردين ونصيبين.

(٨) ابن كثير، مرجع سابق، جز١٢ء ، حتى ٢٢٠.

في السنة خمس وعشرين وخمسمائة للهجرة خاض صراعاً طويلاً انتهى بأسر القائد الثائر دبيس بن صدقة.[١]

في السنة ست وعشرين وخمسمائة للهجرة قصد زنكي العراق لاحتلاله، فجرت معركة عنيفة بين جيشه وجيش الخليفة المسترشد بالله انهزم خلالها جيش زنكي الذي لم يتمكّن من الدخول إلى بغداد.

في السنة ثمان وعشرين وخمسمائة حاصر أتابك زنكي قلعة الصور[٢] وملكها، كما استولى على قلاع الأكراد الحميدية، وأهمها قلاع العقر وشوش وأشب وكواشي.

في السنة تسع وعشرين وخمسمائة للهجرة حاصر عماد الدين مدينة دمشق وقاتل أهلها، وكاد أن يفتحها لولا وصول رسول الخليفة المسترشد بالله يأمره بمصالحة صاحبها، ففعل.[٣]

وخلال السنة نفسها وقع خلاف بين الخليفة والسلطان السلجوقي محمود، فطلب الخليفة مساعدة عماد الدين زنكي الذي جاءه وانضمّ إلى جيشه. ولما بلغهما كثرة جيوش السلطان محمود، أشار زنكي على الخليفة بأن يذهب معه إلى الموصل.[٤]

ولم يتمكّن زنكي من الحؤول دون خلع الخليفة ومبايعة المقتفي لأمر الله بالخلافة، لكنه أثبت مرّة أخرى أنّ آل زنكي أصبحوا في قلب معادلة القوى العسكرية المتصارعة على السلطة ضمن أملاك الخلافة العباسية المنهارة.[٥]

وفي السنة الثلاثين وخمسمائة للهجرة غزا زنكي اللاذقية الفرنجية، فأسر حوالي

(١) ابن الجوزي، مرجع سابق، جزء ١٧، ص ٢٦٣.

(٢) قلعة الصور في ديار بكر.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٨٢.

(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١١٨ - ١١٩.

(٥) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٣٠ - ٢٣١.

سبعة آلاف من أهلها بين رجل وامرأة وصبي، وصادر مائة ألف رأس من الدواب والماشية، واستولى على أموال وحلي وأقمشة كثيرة منها.

وفي السنة التالية ملك زنكي قلعة بعرين[(١)] بعد معركة عنيفة بينه وبين الفرنجة هزم فيها هؤلاء، الأمر الذي دفع بهم إلى الاستنجاد بالامبراطور البيزنطي الذي سار بجيشه إلى مدينة انطاكية وحاصر نيقية وصالح أهلها.[(٢)] ثمّ ملك مدينتي اذنة والمصيصة وتل حمدون وعين زربة.[(٣)]

وفي السنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة للهجرة تمكّن الأتابك زنكي من فتح مدينة حمص بعدما حاصرها حصاراً محكماً. وملك في السنة التالية بعلبك، وحاصر دمشق مرّة جديدة من دون أن يتمكّن من فتحها، لكنه ملك شهرزور وأعمالها وما يجاورها من الحصون.[(٤)]

وفي السنة ست وثلاثين وثلاثمائة للهجرة ملك زنكي مدينة الحديثة وخُطب له في مدينة آمد التي أصبح صاحبها في طاعته، كما أغار على بلاد الفرنجة وظفر بإحدى سراياهم وقتل عدداً كبيراً من جنودهم بلغ، وفق ابن الأثير، سبعمائة رجل.[(٥)]

وفي السنة التالية ملك ديار بكر بعد أن فتح مدنها وحصونها.[(٦)]

وفي السنة إحدى وأربعين وخمسمائة للهجرة قُتل الأتابك الشهيد عماد الدين زنكي بن آقسنفر فيما كان يحاصر قلعة جعبر، على يد جماعة من مماليكه غيلة بعد أن رشاهم صاحب القلعة، فملك ولداه سيف الدين غازي ونور الدين محمود.[(٧)]

(١) بعرين: قلعة للفرنجة من أمنع الحصون، وتقع قرب مدينة حلب.

(٢) قيل إنه ملك نيقية أيضاً.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٣٣.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٠١.

(٥) المرجع نفسه، ص ٣٢٥.

(٦) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص٢ ٤٠.

(٧) ابن كثير، المرجع نفسه، جزء ١٢، ص ٢٤٣.

هذه المسيرة العسكرية المظفّرة جعلت عماد الدين زنكي يؤسّس لدولة آل زنكي ويؤهّلها لتسلّم المسيرة الإسلامية من دولة السلاجقة، وينصّب نفسه وخلفاءه كحامين لبلاد الإسلام الشرقية في وجه المدّ التوسّعي الفرنجي.

كلّ هذه الإنجازات سنتطرّق إليها في الفقرات التالية من هذا الفصل، من دون أن نعالج موضوع الحروب مع الفرنجة التي خُصّص لها جزء مستقل في هذه الموسوعة.

١ - صراع عماد الدين زنكي للسيطرة على ولاية الموصل

بعدما ولّى السلطان السلجوقي عماد الدين على الموصل سار هذا الأخير إلى البوازيج فملكها، ثمّ دخل الموصل صلحاً وأقام فيها يصلح أمورها ويقرّر قواعدها، فولّى أحد قادته لتسلّم قلعتها، وعيّن صلاح الدين محمداً أميراً حاجباً له، وبهاء الدين قاضي قضاة بلاده جميعها.(١)

ولمّا فرغ من أمر الموصل، سار السنة إحدى وعشرين وخمسمائة للهجرة إلى جزيرة ابن عمر وفيها مماليك البرسقي الذين امتنعوا عليه، فحاصرهم وجدّ في قتالهم، وكان يفصل بينهم نهر دجلة.

نقل ابن الأثير تفاصيل القتال حول جزيرة ابن عمر، فكتب:(٢)

«فلمّا فرغ من أمر الموصل سار عنها إلى جزيرة ابن عمر، وبها مماليك البرسقي فامتنعوا عليه فحصرهم وراسلهم وبذل لهم البذول الكثيرة إن سلموا فلم يجيبوه إلى ذلك. فجدّ في قتالهم وبينه وبين البلد دجلة، فأمر الناس فألقوا أنفسهم في الماء ليعبروه إلى البلد ففعلوا. وعبر بعضهم سباحة وبعضهم في السفن وبعضهم في الأكلاك وتكاثروا على أهل الجزيرة، وكانوا قد خرجوا عن البلد إلى أرض بين الجزيرة ودجلة تعرف بالزلاقة ليمنعوا من يريد عبور

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١١٨.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٤٣.

دجلة. فلما عبر العسكر إليهم قاتلوهم ومانعوهم فتكاثر عسكر عماد الدين عليهم فانهزم أهل البلد ودخلوه وتحصّنوا بأسواره، واستولى عماد الدين على الزلاقة. فلما رأى من بالبلد ذلك ضعفوا ووهنوا وأيقنوا أن البلد يملك سلماً أو عنوة فأرسلوا يطلبون الأمان فأجابهم إلى ذلك. وكان هو أيضاً مع عسكره بالزلاقة فسلّموا البلد إليه فدخله هو وعسكره. ثمّ إن دجلة زادت تلك الليلة زيادة عظيمة لحقت سور البلد وصارت الزلاقة ماء، فلو أقام ذلك اليوم لغرق هو وعسكره ولم ينج منهم أحد. فلمّا رأى الناس ذلك أيقنوا بسعادته وأيقنوا أن أمراً هذا بدايته لعظيم».

كما نقل ابن خلدون خبر القتال، فكتب:[١]

«ثمّ سار إلى جزيرة ابن عمر، وقد امتنع بها مماليك البُرسُقي فجدّ في قتالهم. وكانت دِجلَة تحول بينه وبين البلد فعبر بعسكره الماء سبحاً، واستولى على المسافة التي بين دجلة والبلد، وهزم من كان فيها من الحامية حتى أحجزهم بالبلد وضيَّق حصارهم فاستأمنوا وأمّنهم».

ثمّ سار عماد الدين إلى نصيبين فحاصرها، وكانت لحسام الدين تمرتاش صاحب ماردين الذي استنجد بابن عمّه ركن الدولة داود بن سقمان بن أُرتق صاحب حصن كيفا الذي وعده بالمساعدة.[٢]

أرسل تمرتاش رقاعاً على أجنحة الحمام الزاجل إلى حامية نصيبين يعدهم فيها بأن النجدات ستصلهم خلال أيام خمسة، لذلك عليهم الصمود في وجه هجمات عماد الدين. حطّت إحدى الحمائم في معسكر زنكي الذي أبدل جملة «الأيام الخمسة» في الكتاب بجملة «عشرين يوماً»، الأمر الذي دفع بالحامية إلى الاستسلام.[٣]

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١١٨.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٤٤.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١١٨ – ١١٩.

كتب ابن الأثير عن خدعة زنكي الذكية ما يأتي:[١]

«ثمّ سار عن الجزيرة إلى نصيبين وكانت لحسام الدين تمرتاش صاحب ماردين. فلما نزلها سار حسام الدين إلى ابن عمّه ركن الدولة داود بن سُقمان بن أُرتق، وهو صاحب حصن كيفا وغيرها. فاستنجده على أتابك زنكي فوعده النجدة بنفسه، وجمع عسكره. وعاد تمرتاش إلى ماردين وأرسل رقاعاً على أجنحة الطيور إلى نصيبين يعرّف من بها من العسكر أنه وابن عمّه سائران في العسكر الكثير إليهم وإزاحة عماد الدين عنهم، ويأمرهم بحفظ البلد خمسة أيام. فبينما أتابك في خيمته إذ سقط طائر على خيمة تقابله فأمر به فصِيد فرأى فيه رقعة فقرأها وعرف ما فيها فأمر أن يكتب غيرها يقول فيها إنني قصدت ابن عمي ركن الدولة وقد وعدني النصرة وجمع العساكر وما يتأخّر عن الوصول أكثر من عشرين يوماً ويأمرهم بحفظ البلد هذه المدّة إلى أن يصلوا. وجعلها في الطائر وأرسله فدخل نصيبين. فلما وقف من بها على الرقعة سقط في أيديهم وعلموا أنهم لا يقدرون أن يحفظوا البلد هذه المدّة، فأرسلوا إلى الشهيد وصالحوه وسلّموا البلد إليه فبطل على تمرتاش وداود وما كانا عزما عليه».

الدروس المستقاة:

قيل إن «الحرب خدعة»، كما قيل «القائد المصمّم هو الذي يربح المعركة»، وقد طبّق عماد الدين القاعدتين. ففي هجومه على جزيرة ابن عمر صمّم على الانتصار، فأمر جنوده باجتياز نهر دجلة،[٢] فعبره بعضهم سباحة والبعض الآخر في السفن، وتكاثروا على أهل الجزيرة واستولوا على الزلاّقة، الأمر الذي دفع بأهل المدينة إلى تسليمها لهم صلحاً.

أما خلال محاصرته نصيبين فقد استعمل الخدعة بعد أن وقع بيده كتاب مرسل إلى أهل المدينة، فغيّر في مضمونه

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٤٤.

(٢) يعتبر عبور نهر دجلة لا سيما في موسم الشتاء عملية خطرة وصعبة للغاية.

وعاد وأرسله إليهم، الأمر الذي دفعهم أيضاً إلى تسليمه المدينة بعد أن نجحت خدعته معهم.

والحمام الزاجل الذي استُعمل لنقل الرسالة كان من أهم وسائل الاتصال بين الجيوش خلال المرحلة التي نعالجها في هذا الجزء. وقد استمرّت الجيوش في استعمال الحمام الزاجل حتى الحرب العالمية الثانية، رغم أن الاتصال بواسطته قد يعرّض الرسالة لخطر الوقوع في أيدي العدو.

حالياً يعتبر أمن وسائل الاتصال الحديثة من أهم المسائل التي تشغل عقول المفكرين العسكريين بسبب أهميتها البالغة. فعلى سبيل المثال نذكر أن سبب مقتل القائد الياباني الشهير الأميرال ياماموتو بطل الحرب العالمية الثانية كان اعتراض القيادة الأميركية بنجاح برقية لاسلكية مجفّرة تحدّد بدقّة خط سير مجموعة طائرات يابانية تنقل الأميرال المذكور إلى إحدى الجبهات لتفقّد الوحدات اليابانية فيها. وقد عمد الأميركيون إلى فك رموز البرقية بصعوبة، فاعترضت مجموعة من طائراتهم طائرة الأميرال وأسقطتها.

فمن مهام سلاح الإشارة في الجيش نذكر مهمتين أساسيتين:

الأولى: المحافظة على سرية الاتصالات الصديقة.

الثانية: اعتراض الاتصالات العدوّة وفكّ رموزها ووضع المعلومات التي تحتويها بتصرّف القيادة الصديقة لاستغلالها.

ويعمد سلاح الإشارة أحياناً إلى إرسال برقيات مجفّرة وهمية بقصد تسريب معلوماتها الخاطئة إلى العدو لخداعه. وينسّق سلاح الإشارة في هذا الموضوع مع جهاز الاستخبارات العسكرية الذي يضطلع بدور رئيس في عملية خداع العدو من خلال تزويد بعض الجواسيس بمعلومات وهمية ودفعهم للوقوع بالأسر وإيصال هذه المعلومات إلى العدو بعد تعرّضهم لبعض الضغوط وأعمال التعذيب، كي يأتي السيناريو في شكل طبيعي. لذلك تعمد أجهزة الإستخبارات العسكرية إلى مقاطعة كلّ المعلومات التي تردها من أحد المصادر بمعلومات من مصادر أخرى

للتأكّد من مضمونها. وهكذا تتجنّب القيادة العسكرية الوقوع في الخطأ الذي وقع فيه أهل نصيبين وكانت نتيجته خسارتهم لمعركتهم وسقوط مدينتهم بيد عدوّهم.

٢ - زنكي يوسّع ولايته

في السنة ثلاث وعشرين وخمسمائة للهجرة سار عماد الدين زنكي إلى مدينة حماه فوجدها خالية من الجند الحماة لها، فاستولى عليها وملكها.(١)

وفي السنة التالية ملك بلاداً كثيرة من الجزيرة كانت بيد الفرنجة.(٢) وكان قد قصد حصن الأثارب الفرنجي بسبب شدّة ضرره على المسلمين، فجمع الفرنجة جموعهم من الفرسان والرجّالة بعدما علموا أن المعركة مع زنكي ستكون فاصلة. وقد أشار معاونو زنكي عليه بالتراجع عن الحصن وعدم مقاتلة الفرنجة في بلادهم وحيث يسيطرون، فلم يقبل وخاف أن يطمع الفرنجة فيه في حال عودته عن الحصن فيلاحقونه ويخربون بلاده.(٣)

وبالفعل عاد زنكي عن الحصن لمقاتلة الفرنجة، فاصطفّ الجيشان للقتال وصبر كلّ فريق لخصمه، واشتدّ الأمر بينهم قبل أن يُهزم الفرنجة ويقع كثيرون من فرسانهم في الأسر، ويُقتل عدد آخر منهم.(٤)

ثمّ عاد زنكي إلى حصن الأثارب فتسلّمه عنوة وقتل وأسر كلّ من كان فيه وأخربه. ثمّ سار منه إلى قلعة حارم،(٥) فحاصرها حصاراً محكماً، ثمّ عاد عنها بعد أن دفع له أهلها أموالاً طائلة.(٦)

ولمّا فرغ من حصن الأثارب ونواحيه، عاد إلى ديار الجزيرة، فحاصر مدينة سرجى،

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٥٢.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٢٠.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٥٤.
(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١١٩ - ١٢٠.
(٥) قلعة حارم: بالقرب من انطاكية.
(٦) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٥٤.

فقاومه حولها صاحب ماردين وصاحب حصن كيفا مقاومة عنيفة بعد أن جمعا جيشاً كبيراً من التركمان بلغ عديده عشرين ألف مقاتل. لكن عماد الدين هزم الجيش المعادي رغم كلّ تحضيرات قادته، فملك سرجى وقلعة دارا.[1]

أما بلد داود فقد عاد عنه من دون أن يدخله لضيق مسالكه ووعورة جباله وصعوبة الوصول إليه.

الدروس المستقاة:

أ – قاتل زنكي الفرنجة في المنطقة التي يسيطرون عليها رغم نصائح معاونيه بالانسحاب منها وعدم خوض صراع مع الفرنجة في بلادهم. وقد رأى أن تراجعه عن بلادهم سيطمعهم فيه فيلاحقونه، فقرّر المجابهة ونجح فيها. أن تصميم القائد على الانتصار يحسم نصف المعركة. كما أن استراتيجية نقل الصراع إلى أرض العدو اعتبرت ناجحة عبر العصور وطبّقها كبار القادة. فهنيبعل نقل الصراع مع روما إلى إيطاليا بعد أن اجتاز جبال الألب مع الفيلة وفاجأ الرومان بهجوم من الشمال فيما كانوا ينتظرون تقدّمه نحوهم من الجنوب. وهكذا نجح في خطته الجريئة.

بعد ذلك نقل سيبيون الافريقي استراتيجية هنيبعل فحوّل المعركة إلى شمال افريقيا فانتصر في معركة زاما سنة ٢٠٢ق.م.

أما الاسكندر المقدوني فقد قرّر المبادرة، فنقل صراع اليونان مع الفرس إلى آسيا، فيما كان سابقاً خلال الحروب الفارسية اليونانية، يحصل على الأرض اليونانية. وقد نجح الاسكندر في خطته نجاحاً كبيراً.

أما عماد الدين زنكي، فقد أهّلته جرأته لأن يصنّف من كبار القادة المسلمين عبر التاريخ العسكري الإسلامي، وسمحت له بالتمهيد لإقامة دولة آل زنكي التي أخذت على عاتقها مهمّة الصراع ضد الفرنجة في الشرق الإسلامي.

ب – من جهة ثانية طبّق زنكي استراتيجية «المناورة بالخطوط الداخلية»

(١) قلعة دارا: من قلاع بلاد الجزيرة.

فأبقى حصاراً خفيفاً على حصن الأثارب، ونقل القسم الأكبر من جيشه إلى حيث حصلت المواجهة الأساسية مع الفرنجة. وبعد أن تخلّص من الخصم الأشد خطورة، أي جيش الفرنجة، عاد إلى الحصن وشدّد عليه الحصار وفتحه عنوة.

ج - ولمّا لمس زنكي صعوبة المحافظة على حرية عمله بسبب ضيق مسالك التقدّم ووعورة الجبال، فضّل الانسحاب على خوض مجابهة غير مضمونة النتائج.

٣ - الصراع على خلافة السلطان السلجوقي محمود

في السنة خمس وعشرين وخمسمائة للهجرة، توفي السلطان السلجوقي محمود بعد مرض ألمّ به.[١] وكان عمره لما توفي سبعاً وعشرين سنة، وكانت ولايته للسلطنة اثنتي عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً. وبويع ابنه داود بالسلطنة، وخطب له في جميع بلاد الجبل واذربيجان، وأحضر وزيره جميع أمواله من الري.[٢]

كتب ابن خلدون عن وفاته ما يلي:[٣]

«ثمّ توفي السلطان محمود في شوّال من سنة خمس وعشرين، لثلاث عشرة سنة من ملكه؛ واتفق وزيره أبو القاسم النشاباذي، وأتابكه اقسنفر الأحمديلي على ولاية ابنه داود مكانه؛ وخطب له في جميع بلاد الجبل وأذربيجان، ووقعت الفتنة بهمذان ونواحيها. ثم سكنت فسار الوزير بأمواله إلى الريّ ليأمن في ايالة السلطان سنجر. ثمّ أن الملك داود سار في ذي القعدة من سنة خمس وعشرين من همذان إلى ربكان؛ وبعث إلى المسترشد ببغداد في الخطبة».

وفي السنة ست وعشرين وخمسمائة للهجرة، سار السلطان مسعود السلجوقي من جرجان إلى تبريز فاستولى عليها؛[٤] وكانت من أعمال ابن أخيه السلطان داود الذي سار

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٢١.
(٢) ابن الجوزي، مرجع سابق، جزء ١٧، ص ٢٦٤.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠٤٦.
(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٢١.

إليها وحاصرها حصاراً شديداً فجرى قتال عنيف حولها قبل أن يتصالح السلطانان.(١)

بعد هذا القتال اعترف الخليفة بمسعود سلطاناً على بغداد، على أن يكون شقيقه سلجوقشاه ولي عهده؛ فدخل مسعود المدينة التي سار إليها في عشرة آلاف مقاتل، ونزل بدار السلطنة. ونزل سلجوقشاه بدار الشحنكية، وقطعت الخطبة لسنجر في بغداد.(٢)

أ - الحرب بين السلطان مسعود وعمّه السلطان سنجر:

لما توفي السلطان محمود كان نائباً لعمّه سنجر في العراق. لذلك سار سنجر، ومعه الملك طغرل بن السلطان محمد، إلى الري، ومنها إلى همذان، فبلغ خبره الخليفة المسترشد بالله والسلطان مسعود اللذين قرّرا مواجهته عسكرياً.(٣)

وهكذا وقعت الحرب بين معسكرين:(٤)

- المعسكر الأول يضم الخليفة والسلطانين مسعود وسلجوقشاه وقراجا الساقي صاحب فارس وخوزستان.
- المعسكر الثاني يضم السلطان سنجر والملك طغرل وعماد الدين زنكي الذي أعطاه سنجر شحنكية بغداد، ودبيس بن صدقة بعد أن أقطعه سنجر الحلّة.

وبلغت الجيوش الأعداد التالية:(٥)

- في المعسكر الأول: ثلاثين ألف مقاتل.
- في المعسكر الثاني: مائة وستين ألف مقاتل.

١ - التحضير للقتال:

بعد الاستعداد للقتال، قطعت خطبة سنجر في العراق وعاد الخليفة إلى بغداد وأمر أهلها بالاستعداد للمدافعة عنها ضد جند زنكي مندوب سنجر فيها.

نزل سنجر في أسد أباذ في مائة ألف

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠٤٦.
(٢) ابن الجوزي، مرجع سابق، جزء ١٧، ص ٢٧٠.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٦٣.
(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٢٢ - ١٢٣.
(٥) ابن الجوزي، مرجع سابق، جزء ١٧، ص ٢٧٠ - ٢٧١.

فارس، وسار مسعود وسلجوقشاه إلى جبلين يقال لهما «كاو» و«ماهي» فنزلا بينهما ليحتميا بهما. ولما قصدهما سنجر تراجعا عنهما واجتازا مسيرة أربعة أيام في يوم وليلة.(١)

٢ - **الجهازية:**

أخيراً التقى الجيشان قرب الدينور، فوضع سنجر على ميمنته طغرل ابن أخيه، وعلى ميسرته خوارزمشاه أتسز بن محمد مع جميع الأمراء. أما مسعود فجعل على ميمنته قراجا الساقي، وعلى ميسرته يرنقش بازدار وغيره من الأمراء.(٢)

٣ - **المعركة:**

في بداية المعركة حمل قراجا الساقي على قلب جيش سنجر وفيه السلطان سنجر في عشرة آلاف من شجعان الفرسان، وبين يديه الفيلة.(٣)

رداً على هذا الهجوم حمل طغرل وخوارزمشاه على قراجا من خلفه فأصبح في الوسط وقد طوّقته القوات العدوّة، فقاتل حتى جرح جروحاً عدّة، وقتل كثير من أصحابه وأُخذ أسيراً، فقتله السلطان سنجر.(٤)

لما رأى السلطان مسعود ذلك، انهزم وفرّ من المعركة.

وصف ابن الأثير مجرى المعركة التي انتصر فيها سنجر فكتب:(٥)

«ووقعت الحرب وقامت على ساق. وكان يوماً مشهوداً فحمل قراجة الساقي على القلب وفيه السلطان سنجر في عشرة آلاف فارس من شجعان العسكر وبين يديه الفيلة. فلما حمل قراجة على القلب رجع الملك طغرل وخوارزمشاه إلى وراء ظهره، فصار قراجة في الوسط فقاتل إلى أن جرح عدّة

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٦٤.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠٤٨.
(٤) ابن الجوزي، مرجع سابق، جزء ١٧، ص ٢٧١.
(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٦٤ - ٢٦٥.

جرحات وقتل كثير من أصحابه وأخذ هو أسيراً وبه جرحات كثيرة. فلما رأى السلطان مسعود ذلك انهزم وسلم من المعركة. وقتل يوسف جاووش وحسين أزبك وهما من أكابر الأمراء. وكانت الوقعة ثامن رجب من هذه السنة فلما تمّت الهزيمة على مسعود نزل سنجر وأخضر قراجة، فلما حضر قراجة سبّه وقال: «يا مفسد أي شيء كنت ترجو بقتالي؟» قال: «كنت أرجو أن أقتلك وأقيم سلطاناً أحكم عليه». فقتله صبراً وأرسل إلى السلطان مسعود يستدعيه فحضر عنده، وكان قد بلغ خونج. فلما رآه قبله وأكرمه وعاتبه على العصيان عليه ومخالفته وأعاده إلى كنجة. وأجلس الملك طغرل ابن أخيه محمد في السلطنة وخطب له في جميع البلاد وجعل في وزارته أبا القاسم الانساباذي وزير السلطان محمود وعاد إلى خراسان».

وبعد نهاية المعركة كتب ابن الجوزي، أن عدد القتلى بلغ أربعين ألفاً، وأن قراجا قتل وأُجلس طغرل بن محمد على سرير الملك، وعاد سنجر إلى بلاده.(١)

ب - مسير عماد الدين زنكي إلى بغداد وانهزامه:

نقل ابن الجوزي «أن السلطان سنجر كاتب دبيساً وزنكي بعد انتهاء المعركة وطلب منهما التوجّه إلى بغداد وفتحها، فتوجّها إليها من الموصل بالعدّة التامة في سبعة آلاف فارس».(٢)

أما الخليفة المسترشد بالله، فلما بلغه خبر هزيمة السلطان مسعود، عزم على العودة إلى بغداد، فعبر إلى الجانب الغربي منها وسار إلى العباسية فالتقى بزنكي ودبيس بحصن البرامكة آخر رجب السنة ٥٢٦هـ.

وضع الخليفة في ميمنة جيشه جمال الدين إقبال، وفي ميسرته مطر الخادم. وفي بداية القتال حمل زنكي على ميمنة المسترشد فانهزمت، ثمّ حمل الخليفة ومطر

(١) ابن الجوزي، مرجع سابق، جزء ١٧، ص ٢٧٠ - ٢٧١.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٢٣.

الخادم على ميمنة زنكي ودبيس واشتدّ القتال، فانهزم هذان الأخيران ومضى دبيس إلى الحلة، ثم تبعه زنكي.[1]

ج - الدروس المستقاة:

- توفي السلطان محمود عن عمر سبع وعشرين سنة بعد ان كانت ولايته في السلطنة اثنتي عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً، وهذا يعني أنه تسلّم السلطنة يوم كان عمره أربع عشرة سنة. فالملاحظ أن السلاطين السلاجقة كانوا خلال هذه المرحلة من التاريخ الإسلامي يولّون عرش السلطنة في سن مبكرة. وهذا ما جعل تأثيرهم في الأمور العسكرية والسياسية يتراجع مقابل عودة الخليفة المسترشد للعب دور بارز في الشؤون العسكرية، وبداية ظهور أسرة آل زنكي على المسرح السياسي والعسكري. لقد انصرف السلاطين والملوك السلاجقة إلى الصراع في ما بينهم على السلطة، الأمر الذي أذن بزوال ملكهم.

- رغم قلّة عدد جيش الخليفة كلّف هذا الأخير أحد قادته بالهجوم على قلب جيش السلطان سنجر المعزّز بعشرة آلاف مقاتل وبالفيلة. فقد طبّق الخليفة قاعدة «الهجوم أفضل أساليب الدفاع»، فكلّف قراجا الساقي بالمبادرة. لكن تصميم السلطان سنجر أفشل مناورة الساقي الذي طوّقت قواته فهُزم في المعركة وأُسر.

فالعملية الهجومية تنفّذ عادة من الأقوى ضد الأضعف. ويرى الاستراتيجيون أن المهاجم ينبغي أن تكون قواته ثلاثة أضعاف قوات المدافع، كون هذا الأخير يفيد من أعمال التحصين ومن وسائل الدفاع الثانوية. أما الهجوم من الأضعف إلى الأقوى فهو عملية خطرة وغير مأمونة النتائج، رغم أن كبار القادة في التاريخ قد مارسوها بنجاح. لكنهم كانوا يعوّضون عن نقص قواتهم بعبقريتهم في القيادة وبحماس جندهم وقوّة حوافزهم، وأحياناً بأسلحتهم المتفوّقة تقنياً على أسلحة العدو. وهذا الأمر لم يكن متوافراً للخليفة عندما قرّر الهجوم رغم قلّة عديد جيشه.

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠٤٨.

- أما المعركة حول بغداد فقد طبّق الخليفة فيها أيضاً قاعدة «الهجوم أفضل أساليب الدفاع»؛ إنما بنجاح. فلما هزمت ميمنته، لم يعمد إلى تعزيزها، بل تجرّأ على الهجوم على ميمنة خصمه حيث اشتدّ القتال فانتصر المسترشد الذي ربح المعركة. وهذا ما يؤكّد، مرة أخرى، عبقرية الخليفة المسترشد العسكرية.

٤ - ملك صاحب دمشق حصني اللبوة ورأس بعلبك

في السنة ست وعشرين وخمسمائة للهجرة توفي تاج الملوك بوري بن طغتكين صاحب دمشق بجرح أوقعه به الباطنية، فأوصى بالملك بعده لولده شمس الملوك إسماعيل، وأوصى بمدينة بعلبك وأعمالها لولده شمس الدولة محمّد.(١)

وكان لصاحب دمشق في كلّ من حصني اللبوة ورأس بعلبك مستحفظ يحفظه. فلما ملك شمس الملوك دمشق، بلغه أن أخاه شمس الدولة محمد صاحب بعلبك راسل مستحفظي الحصنين المذكورين واستمالهما إليه فسلّماه الحصنين، وجعل فيهما من المقاتلين ما يمكّنهم من حمايتهما.(٢)

راسل صاحب دمشق أخاه طالباً إعادتهما، فلم يقبل هذا الأخير. فأظهر شمس الملوك أنه خضع للأمر الواقع، لكنه راح يتحضّر عسكرياً لغزو الحصنين واستعادة سيطرته عليهما.

وبالفعل سار في آخر ذي العقدة على رأس جيش كبير، وسلك طريق الشمال كي يخدع حاميتي الحصنين. ثمّ اتجه غرباً نحو حصن اللبوة، فلم تشعر حاميته إلاّ وقد نزل بجيشه عليها، وزحف إلى الحصن فوراً من دون أن يتمكّن جنده من نصب منجنيق أو عرادة أو غير ذلك. وأمام هذه المفاجأة، أُسقط بيد مقاتلي الحصن،

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٢٤.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٦٦.

فطلبوا الأمان، فبذله لهم وتسلّم الحصن.[1]

ثمّ صار صاحب دمشق فوراً ومن دون أن يتمكّن أحد من أهل الحصن من إعلام حامية حصن رأس بعلبك بالأمر، واتجه إليه فبلغه بصورة سريّة من دون لفت القيّمين على حمايته، فجرى الأمر فيه كما جرى تماماً في حصن اللبوة. وتسلّم شمس الملوك الحصن أيضاً وضمّه إلى ولايته.

أخيراً ترك حاميتين في الحصنين المذكورين، واتجه إلى بعلبك التي حاصرها وشدّد عليها الحصار. لكن صاحبها كان قد تنبّه للأمر وعلم باقتراب جيش شقيقه من أسوارها، لذلك استعدّ للمجابهة وجمع في الحصن ما يحتاج إليه من مقاتلين وذخائر وتموين.[2]

زحف شمس الملوك إلى بعلبك وهاجمها بفرسانه ورجالته، بعد أن حاصرها مشدّداً الحصار عليها، فقاتله أهل المدينة من فوق أسوارها. ونفّذ شمس الملوك هجمات عدّة على بعلبك انتهت بدخوله إليها بعد قتال عنيف سقط خلاله عدد كبير من القتلى والجرحى.[3]

لجأ شمس الدولة ومقاتلوه إلى حصن المدينة، وتحصّنوا فيه وتابعوا المقاومة، فنصب صاحب دمشق المجانيق وراح يسدّد ضرباتها إلى الحصن، الأمر الذي أدى إلى استلامه.[4]

كتب ابن الأثير عن نهاية القتال:[5]

«فلما رأى أخوه شمس الدولة شدّة الأمر، أرسل يبذل الطاعة ويسأل أن يُقرّ على ما جعله والده عليه، فأجيب إلى ذلك وأقرّه أخوه على بعلبك وأعمالها، وتحالف الإخوان منذ ذلك الحين».

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٣١.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٦٦.

(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء٩ ، ص ٣٣١.

(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٦٦.

الدروس المستقاة:

- كما سبق القول، نلاحظ أن غالبية المعارك والحروب، التي نعالجها خلال المرحلة هذه من تاريخ الدولة العربية الإسلامية، كانت تشكّل صراعاً داخلياً بين أمراء وملوك وسلاطين الشرق الإسلامي، رغم أن الخطر الفرنجي كان ما يزال يتهدّد هذا الشرق.

وكان على العالم الإسلامي انتظار قوى جديدة لمتابعة الصراع ضد الفرنجة، تمثّلت بآل زنكي في الشام وبدولة الأيوبيين، ولاحقاً بدولة المماليك، في بلاد النيل. هذه الدول الثلاث تابعت الصراع ضد الفرنجة فتمكّنت من إخراجهم من الشرق الإسلامي بصورة نهائية. وهذا ما سنتكلّم عنه في الجزء التالي من هذه الموسوعة.

- طبّق صاحب دمشق المبادىء والقواعد الاستراتيجية خير تطبيق، فتمكّن من الانتصار في معاركه الثلاث. من هذه القواعد نذكر المفاجأة والسرعة في التقدّم نحو العدو ومباغتته واستعمال الخدعة في القتال.

لقد خدع شمس الملوك خصمه بتقدّمه شمالاً، فيما تقع الحصون العاصية لجهة الغرب. وهكذا تمكّن من بلوغ الحصن الأول فيما كانت حاميته غير جاهزة للقتال، فاستولى عليه بسرعة.

أما سرعته في الانتقال من اللبوة إلى رأس بعلبك، فقد مكّنته من بلوغ حصنها قبل وصول خبر الحملة على الحصنين إليه. وهكذا تمكّن من مباغتة الحصنين بالتتابع والاستيلاء عليهما.

لقد دأب شمس الملوك على تطبيق قواعد السريّة والسرعة في الانتقالات التمهيدية للقتال وعلى مفاجأة خصمه. فخلال السنة سبْع وعشرين وخمسمائة للهجرة قام الفرنجة بالاعتداء على جماعة من تجار دمشق في مدينة بيروت، فقام صاحب دمشق بمهاجمة مدينة بانياس الفرنجية التي بلغها بسرعة ففاجأ حاميتها ودخلها عنوة.(١)

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٣١.

نقل ابن الأثير تفاصيل فتح بانياس، فكتب:[1]

«فشكى التجار إلى شمس الملوك فراسل في إعادة ما أخذوه، وكرّر القول فيه فلم يردّوا شيئاً. فحملته الأنفة من هذه الحالة والغيظ على أن جمع عسكره وتأهّب ولا يعلم أحد أين يريد. ثمّ سار وسبق خبره أواخر المحرم من هذه السنة ونزل على بانياس أول صفر وقاتله لساعته وزحف إليه زحفاً متتابعاً، وكانوا غير متأهّبين وليس فيه من المقاتلة من يقوم به. وقرب من سور المدينة وترجّل بنفسه وتبعه الناس من الفارس والراجل ووصلوا إلى السور فنقبوه ودخلوا البلد عنوة. والتجأ من كان من جند الفرنج إلى الحصن وتحصّنوا به فقتل من البلد كثيراً من الفرنج وأسر كثيراً، ونهبت الأموال. وقاتل القلعة قتالاً شديداً ليلاً ونهاراً فملكها رابع صفر بالأمان. وعاد إلى دمشق فوصلها سادسه. وأما الفرنج فإنهم لما سمعوا نزوله على بانياس شرعوا يجمعون عسكراً يسيرون إليه، فأتاهم خبر فتحها فبطل ما كانوا فيه».

- أما في معركة بعلبك، ورغم جهوزية حاميتها وأهلها للمواجهة، فإن تصميم شمس الملوك أمّن له الانتصار، كما ساعدت مجانيقه على إقناع شقيقه بالتسليم وعدم متابعة المقاومة من دون جدوى. فتصميم القائد على المجابهة يساهم في النجاح. لقد سجّلنا أمثلة عديدة على هذه الحقيقة نذكر اثنين منها:

- صمّم الاسكندر المقدوني على مهاجمة مملكة الفرس واحتلال آسيا، فتمكّن من ذلك رغم صغر جيشه وقلّة موارده.

- صمّم هنيبعل على الانتصار على روما، فاجتاز شمال افريقيا وأعمدة هرقل وإسبانيا وجبال الألب ليفاجىء الرومان في كان السنة ٢١٦ق.م. ويهزمهم ويسيطر على الشمال الإيطالي طيلة خمسة عشر عاماً.

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٦٨.

٥ – الحرب بين الملك داود والسلطان طغرل

بعد أن انتصر السلطان سنجر في معاركه ضد ابن أخيه مسعود،[١] أجلس الملك طغرل في السلطنة، كما سبق وذكرنا، وعاد إلى خراسان بعد أن بلغه أنّ أحمد خان، صاحب ما وراء النهر، قد شقّ عصا طاعته.[٢] فلما عاد إلى خراسان انتفض الملك داود على عمه طغرل وخالفه وجمع جيشاً في آذربيجان وبلاد كنجة وسار إلى همذان فنزل في مستهل رمضان السنة ست وعشرين وخمسمائة للهجرة عند قرية يقال لها «وهان».[٣]

خرج إليه طغرل وعبأ كلّ منهما جيشه في ميمنة وميسرة وقلب، فوضع طغرل على ميمنته طغرل بن برسق، وعلى ميسرته قزل، وعلى مقدّمته قراسنقر. وكان على ميمنة داود يرنقش الزكوي.[٤]

في بداية المعركة رفض يرنقش الزكوي القتال، فتراجعت ميمنة الملك داود أمام هجوم ميسرة طغرل. فلما رأى التركمان ذلك، نهبوا خيمه ومعسكره ووقع الخلاف داخل جيش داود، الأمر الذي دفع بأتابكه آقسنفر الأحمديلي إلى الهرب من ساحة المعركة، فتبعه باقي الجند.[٥]

قبض طغرل على يرنقش وعلى جماعة من الأمراء.

أما الملك داود فانه، وبعد خسارته الحرب، قدم بغداد ومعه أتابكه آقسنفر فأكرمه الخليفة وأنزله دار السلطنة.

الدروس المستقاة:

أدى رفض ميمنة داود القتال، عند بدء

(١) انظر الفقرة ٣ كم هذا الفصل.

(٢) ابن الجوزي، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٧١.

(٣) وهان: قرب همذان.

– ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٢٤ – ١٢٥.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٦٦ – ٢٦٧.

(٥) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٢٥.

المعركة، إلى خسارته لها. فالتغييرات المفاجئة خلال القتال يصعب استيعابها من قبل الجيش الذي يكون قد دفع بكلّ وحداته إليه. لذلك تعمد القيادات إلى الاحتفاظ باحتياط جاهز لملء أي فراغ يحدث أثناء المعركة كما حصل مع الملك داود.

ونذكر، على سبيل المثال، معركتين ساهم خروج بعض من الوحدات العسكرية منها من القتال في خسارة الجيش الذي إليه تنتمي هذه الوحدات، وهما:

- معركة وادي لكّة في الأندلس، التي وقعت بين جيشي القائد طارق بن زياد والملك الاسباني رودريك. فخلال هذه المعركة خرجت الوحدات الإسبانية، التي كان يقودها أبناء الملك المخلوع غيطشة، من القتال، فخسر الاسبان المعركة التي انتصر فيها المسلمون وفُتحت لهم أبواب اسبانيا.[1]
- معركة مرج دابق التي انتصر فيها السلطان العثماني سليم على المماليك. فخلال هذه المعركة أيضاً خرج الأمير المعني فخر الدين الأول وأمراء لبنانيون آخرون من القتال إلى جانب المماليك الذين خسروا المعركة.[2]

لذلك على القائد العام، وقبل خوضه للقتال، التأكّد من حسن ولاء قادته وضباطه كي لا يفاجأ خلال المعركة التي قال عنها أحد كبار الاستراتيجيين:

«لا مجال للدرس أثناء القتال، وجلّ ما يمكن صنعه هناك هو تطبيق ما تعرف. ويجب أن تعرف الكثير لتستطيع القليل».

٦ - معارك الخليفة المسترشد بالله ومقتله

سبق وأوردنا ان الخليفة المسترسد بالله كان يشارك في المعارك على رأس جيوشه. ففي السنة سبع وعشرين وخمسمائة للهجرة قصدت داره جماعة من الأمراء السلاجقة وانضمّت إلى قيادته، فقوي بهم وأصبح الأقوى في بغداد نظراً لخلافات السلاطين السلاجقة مع بعضهم البعض.

(١) انظر التفاصيل عن هذه المعركة في الجزء السابع من هذه الموسوعة.

(٢) للمزيد من التفاصيل عن معركة مرج دابق يمكن مراجعة الجزء ١٧ من هذه الموسوعة.

ولما كان الخلاف قد وقع بينه وبين عماد الدين زنكي إثر المعركة التي حصلت بينهما السنة ٥٢٦هـ على أبواب بغداد والتي سبق الحديث عنها، أرسل المسترشد بالله رسالة شديدة اللهجة إلى زنكي الذي قبض على الرسول الشيخ بهاء الدين أبي الفتوح الاسفرايني الواعظ وأهانه.(١)

عند هذا الحدّ أعلم الخليفة السلطان مسعوداً بأنه منطلق لمحاربة زنكي في الموصل، وسار عن بغداد في ثلاثين ألف مقاتل. ولما قارب الموصل فارقها زنكي في بعض عسكره، وكلّف نائبه بالدفاع عنها، ثمّ سار إلى سنجار وراح يغير على عسكر الخليفة الذي كان يحاصر المدينة، ويقطع الميرة عنه.(٢)

دام الحصار ثلاثة أشهر من دون أن يظفر الخليفة بالمدينة التي رحل عنها عائداً إلى بغداد.(٣)

وفي السنة تسع وعشرين وخمسمائة للهجرة حصل قتال بين الخليفة والسلطان مسعود. وسبب ذلك أن بعض أمراء مسعود التجأوا إلى الخليفة الذي أكرمهم وخلع عليهم وقطع خطبة السلطان مسعود من بغداد.

وفي التفاصيل ان الخليفة سيّر مقدّمة جيشه إلى حلوان فنهبها جنوده وأفسدوها. ثمّ سار بنفسه مع باقي الجيش في الثامن من شعبان ومعه الأمير برسق بن برسق فبلغ عديده سبعة آلاف فارس، وبقي في بغداد ثلاثة آلاف فارس بقيادة خادمه إقبال.(٤)

أما السلطان فكان في خمسة عشر ألف فارس قبل أن تتسلّل جماعة من جند الخليفة إلى معسكره، فتراجع عديد جيش المسترشد بالله إلى خمسة آلاف فارس.

أشار الملك داود، وهو بأذربيجان، على الخليفة بالتوجّه إلى الدينور حيث يوافيه مع جيشه، فلم يقبل المسترشد بالله بل

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٧٠.

(٢) ابن الجوزي، مرجع سابق، جزء ١٧، ص ٢٩١.

(٣) قيل إن الخليفة رحل عن الموصل بعد أن بلغه أن السلطان مسعود عزم على مهاجمة بغداد.

(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٢٨.

سار حتى بلغ دايمرج وعبأ عناصره كما يأتي:(١)

- في الميمنة برتقش بازدار ونور الدولة سنقر وقزل وبرسق بن برسق مع جندهم.

- في الميسرة جاولي وبرسق شراب وأغلبك مع عناصرهم.

فلما علم السلطان مسعود بخبر التعبئة، سار إلى دايمرج حيث نشبت معركة عنيفة كتب عنها ابن الجوزي:(٢)

«وضرب المصاف يوم الاثنين عاشر رمضان. فلما التقى الجمعان هرب جميع العسكر الذين كانوا مع المسترشد، وكان ميمنته البازدار، وقزل، ونور الدولة شحنة همذان، فحملوا على عسكر مسعود فهزمهم ثلاث فراسخ. ثمّ عادوا فرأوا الميسرة قد غدرت، فأخذ كلّ واحد منهم طريقاً. وأسر المسترشد وأصحابه، وأخذ ما كان معه من الأموال، وكانت صناديق المال على سبعين بغلاً أربعة آلاف ألف دينار. وكان الرحل على خمسة آلاف جمل وأربعمائة بغل. وكان معه عشرة آلاف عمامة وبركان وعشرة آلاف قباء وجبة ودراعة، وعشرة آلاف قلنسوة مذهّبة، وثلاثة آلاف ثوب رومي وممزوج ومعنبر ودبيقي».

كما كتب ابن خلدون عن الموضوع نفسه ما يأتي:(٣)

«وبعث زنكي من الموصل عسكراً فلم يصل حتى تواقعوا. وسار السلطان محمود إليهم مجدّاً فوافاهم عاشر رمضان، ومالت ميسرة المسترشد إليه. وانهزمت ميمنته وهو ثابت لم يتحرّك حتى أُخذ أسيراً، ومعه الوزير والقاضي وصاحب المحرّر وابن الأنباري والخطباء والفقهاء والشهود فأنزل في خيمة، ونهب مخيمه، وحمل الجماعة أصحابه إلى قلعة ترجَمعان. ورجع بقية الناس إلى بغداد».

أما ابن الأثير، فقد أورد الرواية الآتية:(٤)

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٨٢.
(٢) ابن الجوزي، مرجع سابق، جزء ١٧، ص ٢٩٥.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٢٩.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء٩ ، ص ٢٨٢.

«ولما سمع السلطان مسعود خبرهم سار إليهم مجداً فواقعهم بدايمرج عاشر رمضان. وانحازت ميسرة الخليفة إلى السلطان مسعود فصارت معه واقتتلت ميمنة الخليفة وميسرة السلطان قتالاً ضعيفاً. ودارت عساكر السلطان حول عساكر الخليفة وهو ثابت لم يتحرّك من مكانه وانهزم عسكره وأخذ هو أسيراً ومعه جمع كثير من أصحابه منهم الوزير شرف الدين علي بن طراد الزينبي وقاضي القضاة وصاحب المخزن ابن طلحة وابن الأنباري والخطباء والفقهاء والشهود وغيرهم. وأنزل الخليفة في خيمة وغنموا ما في معسكره وكان كثيراً فحُمل الوزير وقاضي القضاة وابن الأنباري وصاحب المخزن وغيرهم من الأكابر إلى قلعة سرجهان وباع الباقون نفوسهم بالثمن دون الضعيف. ولم يقتل في هذه المعركة أحد وهذا أعجب ما يحكى».

أ - مقتل المسترشد بالله وخلافة الراشد بالله:

اثر المعركة المذكورة عاد السلطان إلى همذان وسيّر الأمير بك أبه المحمودي إلى بغداد حيث صادر أملاك الخليفة وأخذ غلاّته. وثار في بغداد جماعة من العامة فكسروا المنبر والشباك وخرجوا إلى الأسواق يحثون التراب على رؤوسهم، ويبكون ويصيحون، وخرجت النساء حاسرات في الأسواق يلطمن. واقتتل أصحاب السلطان مسعود مع العامة الذين قتل ما يزيد على مائة وخمسين منهم.(١)

أما ظروف مقتل الخليفة فقد نقلها ابن كثير الذي كتب:(٢)

«فلما كان مستهل ذي الحجة جاءت الرسل من جهة الملك سنجر إلى ابن أخيه يستحثه على الإحسان إلى الخليفة، وأن يبادر إلى سرعة ردّه إلى وطنه. وأرسل مع الرسل جيشاً ليكونوا في خدمة الخليفة إلى بغداد، فصحب الجيش عشرة من الباطنية. فلما

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٢٩.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٢٩.

وصل الجيش حملوا على الخليفة فقتلوه في خيمته وقطعوه قطعاً، ولم يلحق الناس منه إلاّ الرسوم، وقتلوا معه أصحابه منهم عبيد الله بن سكينة. ثمّ أُخذ أولئك الباطنية فأحرقوا قبحهم الله، وقيل إنهم كانوا مجهّزين لقتله فالله أعلم. وطار هذا الخبر في الآفاق فاشتدّ حزن الناس على الخليفة المسترشد، وخرجت النساء في بغداد حاسرات عن وجوههن ينحن في الطرقات. قتل على باب مراغة في يوم الخميس سابع عشر ذي الحجة وحملت أعضاؤه إلى بغداد، وعمل عزاؤه ثلاثة أيام بعدما بويع لولده الراشد. وقد كان المسترشد شجاعاً مقداماً بعيد الهمّة فصيحاً بليغاً، عذب الكلام حسن الإيراد، مليح الخط، كثير العبادة محبباً إلى العامة والخاصة، وهو آخر خليفة رئي خطيباً. قتل وعمره خمس وأربعون سنة وثلاثة أشهر، وكانت مدّة خلافته سبع عشرة سنة وستة أشهر وعشرين يوماً، وكانت أمه أم ولد من الأتراك رحمة الله».

ب - الدروس المستقاة:

- رغم خبرة الخليفة وتمرّسه في القضايا الاستراتيجية، فإن تقديراته بالنسبة للمعارك التي حصلت مع زنكي ومع السلطان مسعود جاءت غير واقعية.

فخلال محاصرته للموصل راح زنكي يُغير على أطراف قواته التي كانت تحاصر المدينة ويقطع عنها الميرة. وهكذا، وبدلاً من أن يتمتع الجيش المحاصِر بحرية العمل، فَقَدها لصالح خصمه الذي باتت المبادرة الهجومية بيده. لذلك، وبعد حصار ثلاثة أشهر للموصل من قبل جيش الخليفة البالغ ثلاثين ألف مقاتل من دون نجاح، اضطرّ هذا الجيش للعودة عن المدينة الصامدة، فربح زنكي المعركة.

- أما في القتال ضد السلطان مسعود فان الخليفة لم يطبّق مبدأ الحرب الأول، أي «نسبية الأهداف للوسائل». فهو، وبعد أن تسلّل قسم من جنده ملتحقاً بالسلطان، أراد مجابهة سبعة عشر ألف مقاتل بخمسة آلاف فقط، فخسر في هذه المجابهة.

كما أنه لم يقبل بعرض الملك داود بالتوجّه إلى الدينور حيث يوافيه هذا الأخير بجيشه، الأمر الذي يؤمّن حماية المسترشد بالله. لذلك أخطأ أيضاً في تقدير قوّة جيشه وجيش خصمه. لقد كان

في إمكان الخليفة الانسحاب من مواجهة جيش السلطان. فالانسحاب من القتال عندما لا يكون متكافئاً عملية استراتيجية تمارسها الجيوش عندما يكون عدوّها متفوّقاً عليها. وهي ليست انهزاماً في معركة، إنما تدبير عسكري واقعي، رغم تأثيره السلبي أحياناً في معنويات الجند المنسحب.

فالقائد المتبصّر لا يخوض قتالاً إذا كان متأكّداً من خسارته.

- بعد انتهاء القتال أكرم السلطان مسعود الخليفة وخضع له وسار في ركابه، كما أرسل السلطان سنجر جيشاً ليواكبه إلى بغداد. إلاّ أن عشرة أشخاص من الباطنية تسلّلوا مع هذا الجيش وهاجموا الخليفة وقتلوه.

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى الضرر الكبير الذي أوقعه الحشاشون الباطنيون في المعسكر الإسلامي خلال المرحلة التي سيطرت فيها قياداتهم على سلسلة القلاع الشهيرة في شمال بلاد ما بين النهرين. هذا في وقت كان من الممكن أن يوجّه الباطنيون جهودهم لمحاربة أعداء الإسلام الذين قدموا إلى الشرق غازين، أعني بهم الفرنجة.

من هنا تعمد الجيوش عامة إلى تنقية ساحتها الداخلية من الشوائب قبل انطلاقها لتنفيذ عمليات خارجية. فالطابور الخامس وعملاء العدو الذين ينشطون داخل الخطوط الصديقة يشكّلون خطراً كبيراً على وحداته، ويساهمون في إفشال مخططاته العسكرية. لذلك تكلّف هذه الجيوش مخابراتها العسكرية بمكافحة هذه الآفة الفتاكة.

- إنما، ورغم أن نهاية المسترشد كانت مفجعة، فإننا لا يمكننا إلاّ الإشادة به كقائد عسكري بارز. لقد دأب على قيادة جيوشه بنفسه وعلى إعطاء المثل الصالح لجنوده بسيره في طليعتهم خلال العمليات العسكرية التي قادها. كما أننا سجّلنا في هذا الجزء حالات عدّة كان خلالها يمتشق الحسام وينادي: «يا لهاشم»، ويهاجم أعداءه بنفسه فيتبعه جنوده. لذلك نرى أنه كان من كبار القادة العرب المسلمين الذين تعالج هذه الموسوعة سيرهم.

كتب ابن الأثير عن المسترشد بالله:[١]

«كان عمره لما قتل ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر. وكانت خلافته سبعة عشر سنة وستة أشهر وعشرين يوماً وأمه أم ولد. وكان شهماً شجاعاً، كثير الإقدام، بعيد الهمّة، وأخباره المذكورة، ترى على ما ذكرناه، وكان فصيحاً بليغاً حسن الحظ...».

وكتب عنه ابن كثير:[٢]

«كان المسترشد شجاعاً، مقداماً، بعيد الهمة، فصيحاً بليغاً، عذب الكلام حسن الإيراد، مليح الحظ، كثير العبادة محبباً إلى العامة والخاصة، وهو آخر خليفة رئي خطيباً...».

٧ - صاحب دمشق يوسّع ولايته

بعد أن ملك شمس الملوك صاحب دمشق بانياس، كما سبق وأوردنا، سار إلى حماه في السنة سبع وعشرين وخمسمائة للهجرة للاستيلاء عليها، فعلم واليها باقتراب جيش دمشق منها، فتحصّن فيها واستكثر من الرجال والذخائر.[٣]

أشار معاونو شمس الملوك عليه بالعودة عنها بسبب قوّة جيش صاحبها ومنعة تحصيناتها، لكنه لم يقبل بل سار إليها وحاصرها فجرى قتال عنيف حولها طيلة يوم عيد الفطر السعيد.[٤] ولما صمدت المدينة أمام هجماته، تراجع عنها، ثمّ عاد لمهاجمتها في اليوم التالي مع الفجر، فزحف إليها وطوّقها من جميع جهاتها إلى أن تمكّن من السيطرة عليها وفتحها عنوة.[٥]

طلب من في المدينة الأمان فأمّنهم، ثمّ حاصر قلعتها التي لم تكن عالية الأسوار وشديدة التحصين. لذلك عجز الوالي عن متابعة الدفاع عنها، فسقطت بيد شمس

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٨٣.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٢٩.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٣١.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٧١.
(٥) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٢٤.

الملوك الذي استولى على ما فيها من ذخائر وأسلحة.

وفي السنة التالية، سار إلى شقيف تيرون،[١] وكانت بيد الضحّاك بن جندل أمير وادي التيم، فحاصرها وملكها.[٢] ولما كان الفرنجة المجاورون للقلعة على وفاق مع صاحبها كونه لا يعترضهم أو يقاتلهم، فقد عظم الأمر عليهم فجمعوا جيوشهم وساروا إلى حوران فخربوا بلداتها ونهبوا أماكن عديدة منها.[٣]

رداً على هذا الاعتداء حشد شمس الملوك جيشاً كبيراً، وقصد الفرنجة فجرت وقائع عديدة بينهم، قبل أن يضع خطة ناجحة للإيقاع بهم تقضي بالآتي:[٤]

- تبقى وحدة من جيشه مقابل جيش الفرنجة لتثبيته والمتابعة باشغاله.
- ينسحب مع المجموعة الكبيرة من الجيش، بطريقة سريّة، لشن هجمات على مناطق سيطرة الفرنجة.

وبالفعل، قصد الجيش الدمشقي طبريه والناصرة وعكا وما يجاورها من البلدان، فهاجمها وأخربها وأحرق زرعها وسبى النساء والذراري فامتلأت أيدي مقاتليه من الغنائم.[٥]

فلما علم الفرنجة بهذه الخدعة، خافوا من مجابهته وانسحبوا إلى بلادهم فوجدوها خراباً، الأمر الذي دفعهم إلى تجديد الهدنة مع شمس الملوك.[٦]

الدروس المستقاة:

أ - نقل شمس الملوك صراعه مع الفرنجة من بلاده إلى بلادهم، فنجح في مخطّطه الحربي. لقد أظهرت استراتيجية

---

(١) هي قلعة الشقيف في جنوب لبنان شرقي مدينة النبطية.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٢٦.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٣٢.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٧٣.

(٥) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٢٦.

(٦) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٣٢.

نقل الصراع إلى أرض العدو نجاحها عبر قرون التاريخ العسكري، ومارسها كبار القادة خلال حروبهم.

نابوليون بونابرت على سبيل المثال، وعلاوة على تطبيقه استراتيجية المناورة بالخطوط الداخلية في حروبه ضد التحالفات الأوروبية التي كانت تعقد ضدّه، فإنه كان يحرص على المبادرة بالهجوم ونقل العمليات العسكرية إلى خارج فرنسا بدلاً من البقاء في وضع الدفاع على أرض بلاده. وقد نجح في معاركه تلك.

ب - طبّق صاحب دمشق أيضاً خلال قتاله مع الفرنجة استراتيجية المناورة بالخطوط الداخلية، إذ تابعت وحدة من جيشه تثبيت جيش خصمه، فيما انتقل عظيم قواته لتنفيذ مهام أخرى ناجحة. كما أنه أحسن تطبيق قواعد السرية والمباغتة والسرعة والخداع، وكلّها تقود عادة إلى النصر.

ج - ساهمت انتصارات شمس الملوك في دفع الفرنجة إلى تجديد الهدنة التي كانوا قد نقضوها بعد فتح حصن شقيف تيرون، وذلك تمشياً مع مبدأ أن «الحرب هي متابعة السياسة بوسائل أخرى». فالقتال يهدف إلى فرض الإرادة على العدو، علاوة على تحقيق مكتسبات أخرى.

حالياً تميل الدول إلى التفاوض بعد تحقيق انتصارات عسكرية تمنحها مكتسبات تساعدها في فرض رأيها سلماً على خصمها المنهزم. هذا ما حصل في الحرب العراقية - الإيرانية، إذ قبل العراق بالتفاوض بعد ان ربح الحرب. وهذا ما حصل مع دول المواجهة العربية للدولة العبرية، إذ أنها قبلت التفاوض بعد حرب ١٩٧٣ التي حققت فيها انتصارات عسكرية ملموسة.

٨ - حصار المهديّة

في السنة تسع وعشرين وخمسمائة للهجرة صمدت مدينة المهديّة في شمال افريقيا في وجه حصارٍ كاد أن يؤدّي إلى فتحها. وكان صمودها بدعم من راجار الفرنجي صاحب صقلية، الذي ساعد

صاحبها الحسن بن علي بن تميم بن المعزّ ابن باديس.[1]

كتب ابن الأثير عن أسباب حصار المهدية من قبل يحيى بن عبد العزيز بن حماد صاحب بجاية ما يأتي:[2]

«إن الحسن أحب ميمون بن زيادة أمير طائفة كبيرة من العرب، ومال إليه وأكثر الانعام عليه. فحسده غيره من العرب، فساروا إلى يحيى بأولادهم وجعلوهم رهائن عنده، وطلبوا منه أن يرسل معهم عسكراً ليملكوا المهدية، فأجابهم إلى ذلك».

وكانت قد وصلت يحيى كتباً من بعض مشايخ المهدية تدعوه إلى تسلّمها أيضاً. تضاف إلى هذين السببين المطامع الشخصية ليحيى في ملكية مدينة كبيرة كالمهدية.[3]

وهكذا جمع يحيى جيشاً كبيراً من الفرسان والرجالة، ومعهم من العرب جمع كبير، وسيّرهم إلى المهدية بقيادة مطرّف بن علي بن حمدون، فحاصروها براً وبحراً، وجرى قتال عنيف طيلة أيام عدّة حول أسوارها مالت كفّة النجاح فيه إلى حامية المدينة وأهلها وقتل عدد كبير من جند يحيى.

وبعد أن يئس من تسليم المدينة له صلحاً، جمع يحيى جيشه وقام بهجوم عام كاسح براً وبحراً، فجرى قتال عنيف تمكّن أسطول يحيى خلاله من السيطرة على شاطىء البحر والاقتراب من سور المدينة، الأمر الذي زاد في حدّة القتال حولها.

أخيراً أمر الحسن بفتح أبواب المدينة، وخرج على رأس جيشه، مدعوماً بأهل المهدية إلى خارج الأسوار، وشنّ هجوماً عاماً كاسحاً على جيش يحيى ادّى إلى دبّ الفوضى والذعر في صفوفه.

علاوة على ذلك استمدّ الحسن رجّار صاحب صقلية الفرنجي الذي أمدّه بعشرين قطعة من أسطوله، فوقعت معركة

(1) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٣٣١.
(2) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٨٥.
(3) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٣٣١.

بحرية كانت نتيجتها تراجع جيش يحيى عن المدينة.[١]

كتب ابن الأثير عن خروج الحسن من المهدية مهاجماً، وعن المعركة البحرية، ما يأتي:[٢]

«أمر الحسن بفتح الباب وخرج أول الناس وحمل هو ومن معه عليهم وقال أنا الحسن. فلما سمع من يقاتله ذلك سلّموا عليه وانهزموا عنه إجلالاً له. ثمّ أخرج الحسن شوانيه[٣] تلك الساعة من المينا، فأخذ من تلك الشواني أربع قطع وهرب الباقون. ثمّ وصلت نجدة من رجار الفرنجي صاحب صقلية في البحر في عشرين قطعة فحصرت شواني صاحب بجاية فأمرهم الحسن بإطلاقها فأطلقوها. ثم وصل ميمون ابن زيادة في كثير من العرب لنصرة الحسن، فلما رأى ذلك مطرف وأن النجدات تأتي الحسن في البر والبحر علم أنه لا طاقة له بهم فرحل عن المهدية خائباً. وأقام رجار الفرنجي مظهراً للحسن أنه مهادنه وموافقه وهو مع ذلك يعمر الشواني ويكثر عددها وآلاتها».

الدروس المستقاة:

أ - حتى في شمال افريقيا تدخّل الفرنجة في الصراعات الداخلية الإسلامية من خلال راجار صاحب صقلية الذي دعم صاحب المهدية فنجت مدينته من السقوط.

ب - من المعروف أن العرب لم يكونوا قد تعوّدوا ركوب البحر خلال المراحل الأولى للتاريخ الإسلامي، حتى أن الخليفة عمر بن الخطاب أمر عمراً بن العاص، المتجه لغزو مصر، أن لا يجعل بين الخليفة والمسلمين ماءً. أما أول معركة بحرية خاضها أسطول عربي إسلامي وانتصر فيها فهي معركة ذات الصواري التي سبق الكلام عنها في هذه الموسوعة.

إنما الملاحظ في قتال المهدية أنّ المعارك حولها كانت برية وبحرية، وأنّ قتالاً بحرياً عنيفاً جرى بين الأساطيل المشاركة،

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٣٣١.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٨٥ - ٢٨٦.

(٣) الشواني: نوع من السفن.

تمكّن خلاله أسطول يحيى صاحب بجاية من السيطرة على شاطىء البحر. فالعرب المسلمون كانوا خلال المرحلة التي نعالجها في هذا الجزء يسيطرون سيطرة كاملة على شمال افريقيا والأندلس، علاوة على سيطرتهم على الساحل الشامي. رافقت ذلك صراعات مع الفرنجة في البحر المتوسّط الغربي والشرقي وفي الأندلس وفي الشرق. لذلك تطلّع المسلمون إلى إنشاء الأساطيل البحرية، فسيطرت أساطيل عبد الرحمن الناصر على المتوسّط الغربي، كما سيطرت الأساطيل الفاطمية على المتوسّط الشرقي حيث خاضت معارك بحرية مع الفرنجة، وخاصة مع الأساطيل الصقلية التي يندرج الصراع البحري حول المهدية في إطارها.

ج - خلال هذه المعركة أعطى القائد الحسن صاحب المهدية المثل الصالح لجنوده، فشنّ على رأسهم هجوماً كاسحاً على الجيش الذي كان يحاصر مدينته فزعزع صفوفه وحسم المعركة لمصلحته.

فأفضل وسيلة لدى القائد لزرع الثقة في نفوس عناصره، ودفعهم إلى الحماس والاندفاع والتضحية في سبيل الواجب، هي إعطاؤهم المثل بتصرّفاته، والأمر: «اتبعوني»، بدلاً من إرسالهم إلى القتال والبقاء في صومعته أو مقرّه العملاني.

٩ - أتابك زنكي يغزو بلاد الفرنجة

في شهر شعبان من السنة ثلاثين وخمسمائة للهجرة، جمع الأتابك عماد الدين زنكي صاحب حلب وحماه جيشاً كبيراً وسيّره مع نائبه بحلب الأمير أسوار إلى البلاد التي يسيطر عليها الفرنجة. اتجه الجيش أولاً إلى اللاذقية التي لم يتمكّن أهلها من الانتقال عنها، فجرى قتال عنيف حولها انتصر فيه جيش زنكي الذي قتل كثيرين من الفرنجة، وأسر حوالي سبعة آلاف بين رجل وامرأة وولد، واستولى على مائة ألف رأس من الدواب وعلى كميات كبيرة من الغنائم بما فيها الحلي والألبسة.(١)

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٩١.

وخرّب الجيش مدينة اللاذقية وما جاورها، ولم يسلم من سكانها سوى عدد قليل هربوا منها إلى شيزر بما معهم من الغنائم.(١)

التقييم:

- كما سبق القول بدأ الاتابك عماد الدين زنكي الصراع ضد الفرنجة الذي سيضطلع به آل زنكي وأبرزهم نور الدين محمود وسيف الدين غازي اللذان تمكّنا خلال أربعين سنة من تحرير المدن والقلاع والحصون التالية:

* حمص (السنة ٥٣٢هـ)، وبعلبك (٥٣٣هـ) وشهرزور (٥٣٤هـ) وبعض ديار بكر (٥٣٨هـ) وحصن العزيمة (٥٤٣هـ) وسنجار (٥٤٤هـ) وحصن شيزر وبعلبك (٥٥٢هـ) وقلعة بانياس (٥٥٩هـ) وصافيتا وعريمة (٥٦٢هـ) وقلعة جعبر (٥٦٤هـ).

وخلال السنة نفسها (٥٦٤هـ) ملك نور الدين زنكي الكرك والموصل. وفي السنة ٥٦٩هـ توفي نور الدين وملك ولده الملك الصالح، فبدأ تألّق نجم صلاح الدين الأيوبي الذي ملك دمشق وحمص وحماه السنة ٥٧٠هـ قبل أن يهزم سيف الدين زنكي السنة ٥٧١هـ ويسيطر على بلاد الشام ويضمّها إلى المملكة الأيوبية فيصبح منطلق الصراع ضد الفرنجة في مصر. وهذا ما سنفصّله في القسم التالي من هذه الموسوعة، إلاّ اننا ذكرنا، في معرض الحديث عن المعركة التي عالجناها في هذه الفقرة، صراع آل زنكي ضد الفرنجة بهدف لفت القارىء إلى الأهداف السامية التي كانت تحرّك قادة هذه السلالة في وقت كانت الأهداف الشخصانية والصراعات الجانبية تحكم مسيرة حكم السلاطين السلاجقة في أواخر عهدهم، خاصة خلال المرحلة التي نعالج موضوعها في هذا الجزء من الموسوعة.

فجهود السلاجقة الحربية كانت متجهة ضد بعضهم البعض، وهذا ما مكّن الفرنجة

---

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه.

من إطالة إحتلالهم لهذه المنطقة من العالم الإسلامي الشرقي.

١٠ - إضطرابات أمنية في بغداد وخلع الخليفة الراشد بالله

في السنة ثلاثين وخمسمائة للهجرة أرسل السلطان مسعود قائده برتقش الزكوي في جيش إلى بغداد لمطالبة الخليفة الراشد بالله بأربعمائة ألف دينار كانت له في ذمّة والده المسترشد بالله.[١] ولما رفض الخليفة إعطاءه الأموال تحضّر الزكوي للهجوم على دار الخلافة وتفتيشها لأخذ المال منها. فجمع الخليفة جنوده لمنعه وأعاد بناء السور حولها.[٢]

كتب ابن الأثير عن القتال حول دار الخلافة الآتي:[٣]

«وركب برتقش ومعه العسكر والأمراء البكجية في نحو خمسة آلاف فارس، ولقيهم عسكر الخليفة، فأخرجوا عسكر السلطان إلى دار السلطنة فساروا إلى طريق خراسان... ونهبت العامة دار السلطان».

وفي السنة نفسها عقد ائتلاف لمحاربة السلطان مسعود ضمّ:[٤]

- الملك داود بن السلطان محمود في جند أذربيجان الذي نزل بدار السلطنة.
- الأتابك عماد الدين زنكي في جند الموصل.
- برتقش بازدار في جند قزوين.
- البقش الكبير في جند أصفهان.
- صدقة بن دبيس في جند الحلّة.

تدخّل الخليفة في الصراع بترميم سور المدينة، فأرسل الملك داود جنداً قاموا بخلع أبواب السور وتخريب جوانب منه، فاضطرب أهل بغداد ونقلوا أموالهم إلى دار الخلافة وقطعت خطبة مسعود وخطب للملك داود فيها.

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٣٠.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠٥٥.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٨٨.
(٤) ابن الجوزي، مرجع سابق، جزء ١٧، ص ٣٠٦.

انحدر زنكي إلى طريق خراسان داعياً لجمع العساكر لمحاربة السلطان مسعود. وسار داود أيضاً إلى طريق خراسان فنهب جنده البلاد. ثمّ استدعى الخليفة كلّ الأمراء إلى داخل بغداد، فعادوا إليها ونزلوا في الخيام عازمين على قتال السلطان مسعود من داخل أسوار بغداد.(١)

عند بلوغ خبر أصحاب الأطراف إلى السلطان مسعود، جمع جيشه وسار إلى العاصمة فنزل بالملكية وحاصر المدينة بمن فيها من الجيوش، وثار العيارون ببغداد فنهبوا محالها وأفسدوا وقتلوا كثيراً من أهلها.(٢)

بقي حصار بغداد من قبل جيش السلطان مسعود نيفاً وخمسين يوماً من دون أن يظفر بها. ثمّ انضمّ إلى جيشه طرنطاي صاحب واسط في عدد كبير من السفن، فعبر فيها إلى غربي دجلة من دون أن يتمكّن جيش الأمراء من منعه عن دخول المدينة عبر النهر. وهذا ما دفع بهؤلاء إلى مغادرة بغداد التي تركها أيضاً الخليفة الراشد بالله مع زنكي متوجّهاً إلى الموصل.(٣)

أ - خلع الخليفة:

سيطر السلطان مسعود على المدينة وضبط وضعها الأمني ومنع مقاتليه من التعدي على أصحابها، فسكن الناس واطمأنوا بعد خوف شديد. ثمّ خلع السلطان الخليفة من الخلافة.(٤)

أما سبب خلعه فقد ذكره ابن كثير الذي كتب:(٥)

«وجمع (مسعود) القضاة والفقهاء، وأبرز لهم خط الراشد أنه متى خرج من بغداد لقتال السلطان، فقد خلع نفسه من الخلافة، فأفتى من أفتى من الفقهاء بخلعه، فخلع في

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٣١.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء٩، ص ٢٩٣.
(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٣٠.
(٤) ابن الجوزي، مرجع سابق، جزء ١٧، ص ٣١٢.
(٥) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٣٠.

يوم الاثنين سادس عشر ذي القعدة بحكم الحاكم وفتيا الفقهاء. وكانت خلافته أحد عشر شهراً وأحد عشر يوماً».

ثمّ استشار السلطان أعيان بغداد في من يصلح أن يلي الخلافة، فأُشير عليه بمحمد ابن المستظهر بالله الذي بويع بالخلافة في الثامن عشر من ذي الحجة، ولقب بـ«المقتفي لأمر الله».(١)

ب - معارك الملك داود:

أما المعارك التي حصلت بعد ذلك فنذكر منها:

- سار القائد قراسنقر في جيش كبير في اثر الملك داود، فأدركه عند مراغة حيث جرت معركة عنيفة بين الجيشين هُزم فيها داود وتمركز جيش قراسنقر في آذربيجان.(٢)

- قصد داود خوزستان فاجتمعت إليه جماعات من المقاتلين من التركمان وغيرهم فبلغ مجموع جيشه نحو عشرة آلاف فارس، فاتجه إلى تستر وحاصرها، وفيها عمّه الملك سلجوقشاه الذي هُزم، ودخل داود المدينة.(٣)

ج - الدروس المستقاة:

- كان الخليفة الراشد بالله قد وقّع مستنداً للسلطان مسعود بعدم الخروج من بغداد وعدم خوض القتال ضده. لكنه عاد وخرق اتفاقه مع السلطان، الأمر الذي دفع بالقضاة والفقهاء إلى الإفتاء بعزله.

لقد أخطأ الخليفة في تقديره قوّة الجيوش الموالية له وفي موازنتها مع جيوش خصمه، فخرق المبدأ الأول للحرب أي «نسبية الأهداف للوسائل» فخسر المعركة وخُلع من الخلافة.

إنما، ورغم ذلك، لا يمكن للمراقب إلاّ الإشادة بمزايا الخليفة الراشد بالله العسكرية إذ أنه كان، كوالده، يقود الجيوش

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠٥٧.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٢٩٤.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٣٣.

ويخوض المعارك إلى جانب جنوده، وتلك ميزة جيّدة في القادة الناجحين.

- حافظ السلطان مسعود خلال المعارك التي جرت بينه وبين الأمراء الحلفاء على «حرية عمله». فعندما بلغه خبر هؤلاء سار إلى المدينة وحاصرهم جميعاً بداخلها فأصبح جيشه متحكّماً بالأمور من دون أن يتمكّن من دخول المدينة.

ثمّ عاد السلطان وطبّق مبدأ الحرب الثالث بنجاح أي «الحصيل الأقصى للوسائل»، إذ أنه استعمل سفن صاحب واسط للدخول إلى بغداد عبر نهر دجلة، فأحسن استعمال الوسائل المائية التي وضعت بتصرّف جيشه. وهذا ما دفع الخليفة إلى مغادرة بغداد والتوجّه إلى الموصل.

- أحسن السلطان أيضاً تطبيق قاعدة «الحرب هي متابعة السياسة بوسائل أخرى»، وقاعدة «استغلال النصر العسكري لتحقيق الأهداف السياسية».

فهو، وبعد أن انتصر عسكرياً على جيش الخليفة وحلفائه، قرّر استغلال ذلك لخلع الخليفة والإتيان بخليفة جديد يكون موالياً له. ونجح السلطان في مسعاه بعد أن طبّق قاعدة «الحق للقوي». فبعد أن سيطر على بغداد، جمع القضاة والفقهاء فأفتوا له وفق ما طلب.

١١ - حملة الامبراطور البيزنطي على بلاد الشام

في السنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة للهجرة جمع الامبراطور البيزنطي جيشاً كبيراً وقاده بنفسه متجهاً إلى بلاد الشام، فحاصر مدينة بزاغة[١] حصاراً شديداً، ونصب عليها المنجنيقات وضيّق على حاميتها وأهلها، فملكها بالأمان. ثمّ غدر بأهلها فقتل منهم عدداً كبيراً وجرح حوالي خمسة آلاف وثمانمائة، وفق ابن الأثير.[٢]

---

(١) بزاغة: تقع على ستة فراسخ من حلب.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٠٢.

ثمّ راح الامبراطور يلاحق أهل بزاغة الذين هربوا منها، فعلم أن بعضهم لجأ إلى مغاور مجاورة، فقصدها وأشغل أغصاناً خضراء على أبوابها، فأدخلت الرياح دخانها إلى الداخل فهلك من كان قد لجأ إليها.(١)

أما مدينة حلب المجاورة فقد استنجد أهلها بالاتابك عماد الدين زنكي الذي كان يحاصر حمص، فسيّر معهم جيشاً دخل المدينة للدفاع عنها إذا ما حاصرها الروم. وبالفعل اتجه الجيش البيزنطي إلى حلب، فخرجت إليه مجموعة من حاميتها، وجرى قتال عنيف قتل خلاله عدد من مقاتلي الروم وجرح عدد آخر، وقتل بطريق بارز منهم. لذلك عاد الروم عن حلب خاسرين،(٢) وساروا إلى قلعة الأثارب فخاف من فيها من المسلمين وفروا منها، فملكها الروم وتركوا فيها سبايا وأسرى بزاغة ومعهم مجموعة من جيشهم للدفاع عنها.

فلما علم الأمير أسوار مندوب زنكي في حلب بالوضع سار على رأس جيشه إلى القلعة فهاجمها وملكها وخلّص الأسرى والسبايا، وقتل من فيها من الروم.(٣)

أ - محاصرة قلعة شيزر:

سار جيش الروم بعد ذلك إلى شيزر(٤) فحاصرها حصاراً شديداً ونصَب عليها ثمانية عشر منجنيقاً صبّت رماياتها عليها. استنجد صاحبها الأمير أبو العساكر سلطان الكناني بالاتابك زنكي الذي سار إليها ونزل على نهر العاصي بين شيزر وحماه. وكان لتدخّل زنكي دور مهم في منع حصن شيزر من السقوط في يد الجيش البيزنطي، كما كتب ابن الأثير:(٥)

«فأرسل صاحبها إلى زنكي يستنجده، فسار إليه فنزل على نهر العاصي بالقرب منها بينها وبين حماة. وكان يركب كلّ يوم

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٣٣.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٥٢٢.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٠٢.
(٤) كانت شيزر من أمنع الحصون.
(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٠٢.

ويسير إلى شيزر هو وعساكره ويقفون بحيث يراهم الروم، ويرسل السرايا فتأخذ من ظفرت به منهم. ثمّ أنه أرسل إلى ملك الروم يقول: «إنكم قد تحصّنتم مني بهذه الجبال فانزلوا منها إلى الصحراء حتى نلتقي. فإن ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم، وإن ظفرتم استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها». ولم يكن له بهم قوة وإنما كان يرهبهم بهذا القول وأشباهه. فأشار فرنج الشام على ملك الروم بمصافقته وهونوا أمره عليه فلم يفعل، وقال: «أتظنون أن ليس له من العسكر إلاّ ما ترون؟ إنما هو يريد أن تلقونه فيجيئه من نجدات المسلمين ما لا حدّ له». وكان زنكي يرسل أيضاً إلى ملك الروم يوهمه بأن فرنج الشام خائفون منه فلو فارق مكانه تخلّفوا عنه. ويرسل إلى فرنج الشام يخوفهم من ملك الروم ويقول لهم إن ملك بالشام خصناً واحداً ملك بلادكم جميعاً. فاستشعر كلّ من صاحبه فرحل ملك الروم عنها في رمضان، وكان مقامه عليها أربعين يوماً. وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها فسار أتابك زنكي يتبع ساقة العسكر فظفر بكثير ممن تخلّف منهم وأخذ جميع ما تركوه».(١)

ونقل ابن الأثير أن أهل بزاغة كانوا قد استمدوا السلطان عندما كان الامبراطور البيزنطي يحاصر مدينتهم، لكن السلطان لم يحرّك أي قوة لاعتراضهم. وهكذا ظهر زنكي كالمدافع الأول عن المعاقل الإسلامية في وجه أطماع الروم والفرنجة.(٢)

ب - الدروس المستقاة:

- استغلّ الامبراطور البيزنطي مختلف الوسائل لملاحقة أهل بزاغة والقضاء عليهم، ومن هذه الوسائل دخان النيران المتصاعد والذي أدخلته الريح إلى المغاور حيث لجأ هؤلاء فاختنقوا جميعاً.

---

(١) انظر ملحق رقم ٤: الرواية الفرنجية لحصار شيزر.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٠٣.

وهذه الوسيلة تذكّرنا بلجوء العثمانيين إليها لدى محاصرتهم الأمير فخر الدين المعني الثاني في مغارة شقيف تيرون. وفي الحالين نجحت العملية وقتل المحاصرون في الداخل.

- خلال المجابهة بين الامبراطور البيزنطي والعالم الإسلامي ظهر الاتابك زنكي المدافع الأول عن الحق الإسلامي في وجه الروم. ففيما أحجم السلطان عن مساعدة مدينة بزاغة، سارع زنكي لنجدة قلعة شيزر. وهكذا سقطت الأولى ونجت الثانية من السقوط بيد الغزاة.

- أحسن زنكي تطبيق مبدأ «حرية العمل»، وقواعد: «الخدعة» و«استغلال النصر» و«إظهار القوة» و«فرّق تسد». فهو نزل بجنده على نهر العاصي بين حلب وحماه، وراح يغير على معسكرات الروم وينزل الخسائر بهم محافظاً على حرية عمله. ثمّ دعا الامبراطور البيزنطي لمنازلته رغم تفوّق جيش هذا الأخير الذي اقتنع بقوة زنكي فلم يجرؤ على مجابهته، بل انسحب من الساحة من دون قتال، مخلّفاً وراءه مجانيقه وعتاد حصاره، فحقق زنكي بذلك أهدافه.

وفرّق زنكي بين البيزنطيين وروم بلاد الشام بأن أوهم كلاً منهما باستعداد الآخر للغدر به.

أما استغلاله النصر، فعلاوة على مصادرته المجانيق والات الحصار التي خلّفها البيزنطيون، فأنه نفّذ عملية ملاحقة لمؤخّرات الجيش المعادي المنسحب، فقضى على كلّ من تخلّف منهم.

١٢ - الحرب بين السلطان مسعود والملك داود

في السنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة للهجرة فارق الراشد بالله الموصل، بعد خلعه من الخلافة، وسار إلى آذربيجان حيث انضمّ إليه الأمراء والقادة وأبرزهم:[1]

- الملك داود.
- الأمير منكبرس صاحب فارس ونائبه في خوزستان الأمير بوازبه.

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٥٢٠.

- الأمير عبد الرحمن طغايرك خلخان.

واتفق هؤلاء مع الراشد بالله بسبب خوفهم من بطش السلطان مسعود وقوّته، وكي يوحّدوا مجهودهم العسكري ليعيدوا الراشد إلى الخلافة.(١)

علم السلطان مسعود بخبرهم، فسار عن بغداد إلى «بنجن كشت» حيث وقعت معركة بين الجهتين انتصر فيها مسعود الذي أخذ الأمير منكبرس أسيراً فقتله.(٢)

وبعد أن تفرّق عن السلطان مسعود غالبية جنده، قصده الأميران بوازبه وعبد الرحمن اللذان حملا عليه فانهزم وأسر صدقة بن دبيس وقراسنقر بن أتابك زنكي وعنتر بن أبي العسكر وغيرهم، فقتلهم بوازبه جميعا.(٣)

وبعد انتهاء المعركة قصد السلطان مسعود آذربيجان، والملك داود همذان.

وصل الراشد بالله بعد المعركة، فاختلفت آراء القادة في شأن التصرّف العسكري الواجب اتخاذه، فأشار بعضهم بمهاجمة العراق واخرون بملاحقة مسعود والانتهاء منه، لأن الأمور تصبح بعد ذلك أكثر سهولة. أما الأمير بوازبه، أكبر الجماعة، فسار إلى فارس بعد مقتل صاحبها منكبرس، ليمتنع بها، فسيطر عليها استراتيجياً وضمّها إلى ولايته في خوزستان.(٤)

- الدروس المستقاة:

- لقد انتصر الأمراء الحلفاء على السلطان مسعود، لكنهم لم يستغلّوا انتصارهم لملاحقته ولم يتفقوا على مسلك واحد لاتباعه، بل أراد كلّ منهم تأمين مصالحه. لذلك فشلوا في حسم الحرب لمصلحتهم.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٠٤.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٣٣.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٠٤.

(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠٥٩.

ويمكننا تشبيه وضعهم بوضع دول المحور خلال الحرب العالمية الثانية، خاصة المانيا واليابان. فعندما دخلت اليابان الحرب، كانت حليفتها المانيا تريد منها مهاجمة روسيا من الشرق، في الوقت الذي كانت المانيا تهاجمها من الغرب، بحيث تضطر الجيوش الروسية للقتال على جبهتين، فتخسر الحرب. إلاّ أن اليابان كانت تخوض الصراع وفقاً لمصالحها التي تقضي بمحاربة الأميركيين الذين كانوا يسيطرون على جنوب شرق آسيا. وهكذا شنّ اليابانيون هجوماً كاسحاً ضد القاعدة الأميركية في بيرل هاربر، الأمر الذي دفع بالولايات المتحدة إلى دخول الحرب، وأجبر الالمان على القتال على جبهات عدة.

فالاستراتيجية العسكرية الناجحة تفرض ملاحقة الخصم المنهزم وعدم ترك المجال مفتوحاً أمامه لإعادة تجميع قواته، بل القضاء عليه ووضعه خارج المعركة. وهذا ما لم يحصل مع الأمراء الحلفاء بسبب عدم اتفاقهم على السلوك العسكري الواجب اتخاذه بعد انتصارهم في القتال.

– من جهة أخرى، لم يتفق الأمراء الحلفاء على تعيين قائد عام لجيوشهم، فأخلّوا بقاعدة «وحدة القيادة» الواجب تأمينها خلال المعركة.

ووحدة القيادة خلال خوض القتال هي عامل هام وأساسي، ويشكّل الاخلال به خطراً على القوى المتحالفة. ونذكر مثالين من التاريخ العسكري أدى عدم تطبيق هذه القاعدة فيهما إلى الهزيمة:

أ – خلال معركة كان السنة ٢١٦ق.م. كان يقود الجيش الروماني المتواجه مع جيش قرطاجة قنصلان، هما بول وإميل وڤارون. وكان كلّ منهما يؤمّن القيادة العامة للجيش لمدّة ٢٤ ساعة، يليه بعدها القنصل الآخر. أما الجيش القرطاجي فكان يقوده أحد أبرز القادة، أي هنيبعل، الذي انتصر انتصاراً ساحقاً وقضى على الجيش الروماني بكامله، فشكّلت معركة كان إحدى أبرز معارك الإفناء في التاريخ.

ب – خلال حروب الحلفاء الأوروبيين ضد نابوليون بونابرت كان يقود كلّ جيش من جيوش الدول الحليفة قائد يعمل

باستقلال شبه تام عن القادة الباقين. لذلك تمكّن بونابرت من إعادة تطبيق خطة «المناورة بالخطوط الداخلية»، المرة تلو الأخرى، وببراعة تامة وناجحة. وكان ينتصر في مناوراته تلك.

إنما، وخلال معركة واترلو، كان ويللينغتون البريطاني قائداً عاماً لجميع الجيوش المتحالفة ضد بونابرت، فتمكّن من التغلّب عليه.

١٣ – مقتل الخليفة الراشد بالله

بعد انتهاء القتال ضد السلطان مسعود اغتيل الخليفة الراشد بالله في أصبهان على يد نفر من الخراسانية الذين كانوا في خدمته.[١]

كتب ابن خلدون عن مقتل الراشد بالله ما يأتي:[٢]

«وبقي الراشد وحده، فسار إلى أصبهان، فوثب عليه في طريقه نفر من الخراسانية الذين كانوا في خدمته فقتلوه في القيلولة خامس عشر رمضان سنة اثنتين وثلاثين، ودفن بشهر ستان ظاهر أصبهان».

١٤ – الحرب بين السلطان سنجر وخوارزمشاه

في السنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة للهجرة وصلت أخبار إلى السلطان سنجر مفادها أن خوارزمشاه[٣] ملك خوارزم يريد الامتناع عليه، فقرّر مواجهته، وجمع جيشاً كبيراً وسار إلى خوارزم.[٤] قام خوارزمشاه بجمع مقاتليه والتقى الجمعان فاقتتلا قتالاً شديداً هزم فيه هذا الأخير وملك سنجر بلاده فاقطعها غياث الدين سليمان شاه.[٥]

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٣٤.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠٦٠.

(٣) خوارزمشاه لقب ملك خوارزم محمد بن أبي شنتكين.

(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٣٦.

(٥) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٣٦.

ولما عاد سنجر إلى عاصمته مرو، اغتنم خوارزمشاه الفرصة وعاد إلى بلاده حيث اجتمع إليه أهلها وأعانوه على استعادة عرشه.[١]

وفي السنة ست وثلاثين وخمسمائة للهجرة أرسل خوارزمشاه إلى الخطا[٢] يُطمعهم في البلاد ويحثّهم على مهاجمة مملكة سنجر.[٣] وبالفعل، سار الخطا إلى مملكة سنجر، حيث جرت معركة عنيفة بين الجانبين هُزم فيها سنجر، وكتب عنها ابن الجوزي الآتي:[٤]

«وفي جمادى الآخرة ورد الخبر بالوقعة التي جرت بين سنجر وبين كافر ترك. وكانت الوقعة فيما وراء النهر وبلغت الهزيمة إلى ترمذ وأفلت سنجر في نفر قليل فدخل إلى بلخ في ستة أنفس، وأخذت زوجته وبنت بنته زوجة محمود، وقتل من أصحاب سنجر مائة ألف أو أكثر. وقيل إنهم أحصوا من القتلى أحد عشر ألفاً كلّهم صاحب عمامة وأربعة آلاف امرأة. وكان سنجر قد قتل أخا خوارزم شاه فبعث خوارزم إلى كافر ترك، وكان بينهما هدنة وقد تزوج إليه، فسار إليه في ثلثمائة ألف فارس، وكان هو معه مائة ألف فارس، فضربوا على سنجر فلم تر وقعة أعظم منها».

أ - قتال السلطان سنجر وملك الصين:

خرج كوبلسان[٥] الصين «كوخان» من بلاده إلى تركستان[٦] حيث انضمّ إلى جيشه الأتراك الخطا، فملكوا تركستان.[٧] وفي السنة إحدى وثلاثين وخمسمائة

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٣٦.
(٢) الخطا هم من أقوى الشعوب التركية في ما وراء النهر الذين لم يكونوا قد اعتنقوا الإسلام بعد.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣١٩.
(٤) ابن الجوزي، مرجع سابق، جزء ١٨، ص ١٩.
(٥) «كوبلسان» هو لقب أعظم ملوك الصين.
- ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٤٠.
(٦) تركستان تشمل كاشغر وبلاد سامسون وجُبّى (وهي بلد في نواحي خوزستان).
(٧) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٣٨ - ١٤٠.

للهجرة قصدوا بلاد ما وراء النهر حيث جرى قتال بينهم وبين الخاقان محمود بن محمد الذي انهزم فعاد إلى سمرقند.(١)

ولما اشتدّ خوف أهل بخارى وسمرقند وغيرهما من بلاد ما وراء النهر أمام خطر الخطا، استنجد محمود بالسلطان سنجر طالباً منه مساعدة المسلمين ضد المشركين الاتراك. جمع سنجر جيوشه فاجتمع عنده ملوك خراسان وسجستان والغور وغزنة ومازندران في جمع بلغ حوالي مائة ألف فارس.(٢)

سار الجيش الكبير بقيادة سنجر للقاء الترك، فعبر ما وراء النهر في ذي الحجة السنة خمس وثلاثين وخمسمائة للهجرة، فاستنجد هؤلاء بكوخان الصيني الذي لبّى النداء. وهكذا أصبح الفريقان كالآتي:(٣)

- السلطان سنجر في جيش من مائة ألف فارس، ومعه الملوك المذكورة أسماؤهم.
- كوخان الصيني وجنود الصين والترك الغزّ(٤) والخطا وغيرهم من المشركين.

وكان مجموع الجيش الذي يقوده كوخان وحلفاؤه ثلاثمائة ألف مقاتل، وفق ابن كثير.(٥)

تحضيراً للمعركة، نظّم سنجر جيشه وحضّره للقتال، رغم التفوّق العددي الكبير لجيوش أخصامه، فكان على ميمنته الأمير قماج،(٦) وعلى ميسرته ملك سجستان.

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٢١.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٤٠.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٢٢.

(٤) كتب ابن خلدون عن الغزّ الآتي: «كان هؤلاء الغز في ما وراء النهر، وهم شعب من شعوب الترك، ومنهم كان السلجوقية، وبقوا هنالك بعد عبورهم، وكانوا مسلمين. فلما استولى الخطا على ملك الصين وعلى ما وراء النهر، هاجر هولاء الغز إلى خراسان وأقاموا بنواحي بلخ، وكان لهم من الأمراء محمود ودينار وبختيار وطوطي وأرسلان ومعز. وكان صاحب بلخ الأمير قماج، فتقدّم إليهم أن يبعدوا عن بلخ، فصانعوه فتركهم، وكانوا يعطون الزكاة ويؤمنون السابلة.

- ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٤٨ - ١٤٩.

(٥) ينبغي أخذ أرقام عدد الجيوش بعين الحذر بسبب ميل المؤرّخين العرب إلى المبالغة بها.

(٦) الأمير قماج هو صاحب بلخ.

والتقى الجيشان في موضع يقال له «قطوان» السنة ست وثلاثين وخمسمائة للهجرة، فجرى قتال عنيف حمل خلاله كوخان الصيني حملة عنيفة على جيش السلطان سنجر الجأته إلى وادٍ يقال له «ديرغم»، الأمر الذي أدى إلى هزيمته ووقوع عدد كبير من القتلى في صفوف قواته، كتب عنهم ابن الأثير ما يأتي:[1]

«واشتمل وادي ديرغم على عشرة آلاف من القتلى والجرحى».

كما كتب ابن خلدون عن نتيجة المعركة نفسها:[2]

«وسار إليهم (سنجر إلى الغزّ) في مائة ألف فهزموه وأثخنوا في عسكره، وقُتل علاء الدين قماج، وأسروا السلطان سنجر ومعه جماعة من الأمراء فقتلوا الأمراء واستبقوا السلطان سنجر وبايعوه...».

بعد هذه المعركة استقرّت دولة الخطا والغزّ الأتراك في ما وراء النهر.

ب - خوارزمشاه يفتح مرو:

بعد هزيمة سنجر قصد خوارزمشاه، ومعه الغزّ الاتراك، مرو الشاهجان، فحاصرها وقاتل أهلها ودخلها عنوة وقتل عدداً كبيراً من أهلها، وخاصة من أعيانهم. ثمّ عاد إلى خوارزم مصطحباً معه عدداً من علماء مرو.[3]

ثمّ سار خوارزمشاه إلى نيسابور فدخلها، وقطعت خطبة سنجر فيها، واستولى على أموال أصحابه. وفي السنة سبع وثلاثين وخمسمائة للهجرة سيّر جيشاً إلى أعمال بيهق حيث قاتل أهلها مدّة أيام خمسة، نهب بعدها الجند البلاد، ثمّ ملكها مع غيرها من أعمال خراسان.[4]

كتب ابن خلدون عن هذه الأحداث ما يأتي:[5]

«ودخل الغزّ نيسابور ودمروها تدميراً، وقتلوا الكبار والصغار وأحرقوها، وقتلوا القضاة والعلماء في كلّ بلد. ولم يسلم

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٢٢.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٤٩.
(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٣٩.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٢٤.
(٥) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٤٩.

من خراسان غير هراة وسبستان لحصانتهما».

ج - الدروس المستقاة:

يمكننا استخلاص العبر الآتية من العمليات التي خاضها السلطان سنجر:

١ - نفّذ السلطان، في بداية التحرّك ضد خوارزمشاه، عملية استباقية. فهو، وبعد أن وصلته أخبار عن احتمال خروجه عن طاعته، شنّ حملة تأديبية عليه انتهت بإخراجه من السلطة وتسليم بلاده خوارزم إلى أحد أمراء سنجر.

لكن السلطان لم يحتَط لما بعد الحملة، وأساء تقدير إمكانات خصمه وخطر عودته إلى بلاده، فخرق بذلك مبدأي الحرب الأول والثاني أي «نسبية الأهداف للوسائل» و«حرية العمل». فبالنسبة للمبدأ الأول، لم يكن بإمكانه المحافظة على الهدف العسكري الذي استولى عليه، أي دولة خوارزم التي عادت وخرجت عن طاعته. ولم يحترم المبدأ الثاني، إذ أنه وقف موقف العاجز عن التدخّل في الصراع الذي خاضه خوارزمشاه لاستعادة بلاده بسبب بعد المسافة بينهما، ففقد بذلك حرية عمله.

فالتخطيط للحرب لا يشمل نتائجها المباشرة، إنما يتعدّى ذلك ليجيب القائد على السؤال التالي:

«إن أنت حققت هدفك، هل بإمكانك الاحتفاظ به؟».

وذلك لأن العدو المنهزم يعود غالباً لشن هجوم معاكس لاستعادة ما فقده، وهذا ما حصل في خوارزم.

أما العملية الاستباقية فهي استراتيجية عسكرية طُبّقت خلال عصور التاريخ العسكري من قبل كبار القادة، وكان آخرها التدخّل الأميركي في العراق. كما أنّ عقيدة الرئيس الأميركي بوش التي نقلها عنه الرئيس الروسي، تقضي بضرب أي قوّة في العالم قد تهدّد مستقبلاً مصالح بلاده أو مصالح حلفائها. وتكمن خطورة هذه الاستراتيجية في طريقة تحديد هذه المصالح المتروكة للتقديرات الشخصية والاستنسابية.

٢ - في موسوعتنا هذه، دأبنا على أخذ أرقام أعداد الجيوش التي يذكرها المؤرّخون

بعين الحذر والنقد، وذلك بسبب ميل هؤلاء غالباً إلى تضخيم هذه الأرقام من جهة، ولصعوبة التأكّد منها من جهة ثانية، وبسبب نقلهم من دون تمحيص عمّن سبقهم إلى ذكرها. كما أننا عمدنا إلى مقارنة أرقام المؤرّخين مع بعضها البعض للاقتراب، قدر الإمكان، من الحقيقة التاريخية المجرّدة.

٣ – أثبت القتال بين سنجر والخطا نظرية ابن خلدون بأن الأمم التي ما زالت على بداوتها هي أقرب إلى الروح القتالية والشجاعة والإقدام من الأمم العريقة في الحضارة والتنعّم بالخيرات.

فالخطا كانوا خلال مرحلة روايتنا للأحداث، ما يزالون على بداوتهم، فيما كانت جيوش سنجر تجمع من شعوب مستقرّة تعيش في بحبوحة وتحضّر. لذلك تمكّن الخطا والغزّ من القيام باجتياحات كبرى لتركستان وخراسان ونيسابور وغيرها.

٤ – من الملاحظ أن هزيمة السلطان سنجر على يد الغز والملك الصيني شكّلت أول هزيمة لجيوشه المظفّرة خلال مرحلة سلطنته. لذلك جاءت نتيجة المعركة مفاجئة له ولمعاونيه الذين لم يكونوا محتاطين لهذا الوضع الجديد بالنسبة إليهم.

٥ – في المعركة الأخيرة ضد تحالف كوجان والغز لم يطبّق سنجر أيضاً مبدأ الحرب الأول، أي «نسبية الأهداف للوسائل»، فأراد بمائة ألف مقاتل مواجهة جيوش بلغ تعدادها ثلاثمائة إلف مقاتل مجنّدين من أُمم ما زالت على بداوتها ويتمتعون بدرجة عالية من اللياقة الجسدية ويقودهم أعظم ملوك الصين.

لذلك فان مقارنة الجيوش المتواجهة لم تكن لمصلحة سنجر الذي لم يتمكّن من التعويض عن النقص العددي بمزايا وإمكانات أخرى سبق وعدّدناها في جزء سابق من هذه الموسوعة.

فالقائد الناجح يقارن بين إمكاناته وإمكانات خصمه، فإن كانت الكفّة تميل في شكل واضح إلى خصمه، فعليه محاولة تجنّب القتال. هذه الحقيقة لا تطبّق في حال الدفاع عن الوطن في وجه الاعتداءات الخارجية المفروضة، إذ أن المدافعين

يعوّضون عن النقص في الإمكانات بأعمال البطولة وبحسن استعمال الأرض وبأعمال الغريّة والاغارات والكمائن وغيرها من العمليات التي تنزع من العدو وسائل تفوقه.

١٥ - إنجازات عماد الدين زنكي العسكرية ومقتله

في ذي القعدة من السنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة استنجدت والدة صاحب دمشق زمرّد خاتون بالاتابك زنكي، بعد أن قتل ولدها محمود. بادر زنكي في الحال من دون تريّث إلى جمع جيش كبير قاصداً احتلال دمشق وضمّها إلى ولايته. لكن أهل المدينة استعدّوا لمجابهته وأكثروا من الذخائر، وقاموا بترميم أسوار المدينة، وراحوا ينتظرون وصوله.(١)

لما علم باستعداد عدوّه وتحضيراته انحرف زنكي في سيره وقصد بعلبك فجأة فحاصرها وضيّق على أهلها ونصب حولها أربعة عشر منجنيقاً راحت ترمي حجارتها على المدينة ليلاً ونهاراً، فأشرف من بداخلها على الهلاك وطلبوا الأمان وسلّموا إليه المدينة. إلاّ أن مفرزة من مقاتلي حاميتها لجأوا إلى القلعة واستمرّوا مقاومة جيش زنكي الذي حاصرهم بشدّة، الأمر الذي دفعهم إلى طلب الأمان وتسليم القلعة. إلاّ أن زنكي، وبعد أن أمّنهم وتسلّم القلعة، عاد وغدر بهم وصلبهم داخلها.(٢)

ولما وصل خبر صلب حامية قلعة بعلبك إلى حامية دمشق، قرّر مقاتلوها الدفاع عنها حتى الرمق الأخير خوفاً من تعرّضعم للمصير نفسه.

أ - حصار دمشق:

وبالفعل، وبعد الفراغ من بعلبك، سار زنكي نحو دمشق فالتقى بوحدة من جندها في البقاع، حيث جرى قتال بينهما انتصر فيه زنكي الذي قتل عدداً كبيراً من الدمشقيين.(٣)

(١) ابن خلدون، المرجع نفسه، جزء ٩، ص ٥٢٤.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣١٠.
(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٣٨.

ثمّ سار إلى الموصل حيث اصطدم بجيش دمشقي آخر هزمه قبل أن يوجّه الرسل إلى صاحب دمشق جمال الدين محمد لتسليمها له مقابل إعطائه بلداً آخر يقترحه بنفسه.(١)

مال صاحب دمشق إلى القبول بالتسليم، لكن حامية المدينة رفضت خوفاً من تعرّضها لما تعرّضت له حامية قلعة بعلبك.

أمام هذا الواقع زحف زنكي إلى دمشق وحاصرها حصاراً شديداً بعد أن توفي صاحبها وتولّى الدفاع عنها معين الدين أنز الذي، وبعد أن تأكّد من صعوبة المتابعة بالدفاع عن المدينة، استدعى الفرنجة لمساعدته لقاء إغراءات كثيرة منها تسليمهم مدينة بانياس.(٢)

قرّر الفرنجة الاستجابة للنداء ومقاتلة زنكي خوفاً من تسلّمه دمشق وازدياد قوّته، الأمر الذي يهدّد مصالحهم في بلاد الشام، وعزموا على التوجّه إلى المدينة للانضمام إلى حاميتها في الدفاع عنها. لكن زنكي، وبعد أن علم ذلك، قرّر استباق تحرّك الفرنجة ومهاجمتهم في منطقتهم، فانتقل إلى حوران مهدّداً مصالحهم.(٣)

ولما لم يتحرّك الفرنجة من مناطقهم، عاد زنكي لمحاصرة دمشق، فنزل في شمالها وأحرق قرى عدّة من المرج والغوطة. ثمّ رحل عائداً إلى بلاده قبل أن تصل جموع الفرنجة إلى المدينة وتجتمع بصاحبها أنز الذي سار إلى بانياس، كما سبق ووعد الفرنجة، ومعه مجموعة من مقاتليهم، فتمكّن من احتلالها وتسليمها للفرنجة.(٤)

وعاد زنكي إلى قتال أهل دمشق، وفق ما كتب ابن الأثير عن نهاية هذا القتال:(٥)

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣١٣.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٥٢٤.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣١٠.

(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٣٨.

(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣١٣.

«وأما الحصر الثاني لدمشق فإن أتابك لما سمع الخبر بحصر بانياس عاد إلى بعلبك ليدفع عنها من يحصرها فأقام هناك. فلما عاد عسكر دمشق بعد أن ملكوها وسلّموها إلى الفرنج فرّق أتابك زنكي عسكره على الإغارة على حوران وأعمال دمشق وسار هو جريدة مع خواصه، فنازل دمشق سحراً ولن يعلم به أحد من أهلها. فلما أصبح الناس ورأوا عسكره خافوا وارتجّ البلد واجتمع العسكر والعامة على السور وفتحت الأبواب وخرج الجند والرجالة فقاتلوه. فلم يمكن زنكي عسكره من الإقدام في القتال لأن عامة عسكره كانوا قد تفرّقوا في البلاد والنهب والتخريب، وإنما قصد دمشق لئلا يخرج منها عسكر إلى عسكره وهم متفرّقون. فلما اقتتلوا ذلك اليوم قتل بينهم جماعة. ثمّ أحجم زنكي عنهم وعاد إلى خيامه ورحل إلى مرج راهط وأقام ينتظر عودة عسكره فعادوا إليه وقد ملأوا أيديهم من الغنائم لأنهم طرقوا البلاد وأهلها غافرون. فلما اجتمعوا عنده رحل بهم عائداً إلى بلادهم».

ب - فتح شهرزور:

كانت شهرزور منيعة وكثيرة الحدائق وتجاورها الحصون القوية لصاحبها قفجاق ابن ارسلان تاش التركماني الذي عظم شأنه وازدادت جموعه وجاءه التركمان من جميع الأرجاء للانضمام إليه، فتراجع الملوك والأمراء عن التعرّض لولايته.(١)

فلما كانت السنة أربع وثلاثين وخمسمائة للهجرة، سيّر الاتابك عماد الدين زنكي جيشاً كبيراً لمحاربته. جمع قفجاق جموعه والتقى الجيش الاتابكي خارج قلاعه فجرى قتال عنيف انتصر فيه جيش زنكي الذي لاحق التركمان إلى حصونهم وقلاعهم، فحاصرها الواحدة تلو الأخرى وملكها.(٢)

ثمّ طلب قفجاق الأمان فأمّنه زنكي فانضمّ إلى أتباعه وازداد زنكي قوّة ومنعة.

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٥٢٦.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣١٤ - ٣١٥.

ج - إنجازات أخرى:

ملك زنكي أيضاً السنة خمس وثلاثين وخمسمائة للهجرة حصن كيفا بعد معركة عنيفة مع صاحبه داود بن سقمان بن أُرتق.

وفي السنة التالية ملك مدينة الحديثة ونقل من كان بها من آل مهراش إلى الموصل، ونقل أتباعه إليها.[1] وخطب له في مدينة آمد وانضمّ صاحبها إلى أتباعه، وذلك بعد أن لمس قوى جيوش زنكي وكثرتها.[2]

وفي السنة سبع وثلاثين وخمسمائة للهجرة، أرسل زنكي جيشاً كبيراً إلى قلعة أشب[3] فحاصرها وضيّق على حاميتها، فملكها وهدمها وبنى مكانها قلعة دعاها «العمادية».[4]

وفي السنة التالية سار زنكي إلى ديار بكر ففتح منها حصوناً ومدناً عديدة أهمها مدن طنزة واسعرد وحيزان وحصون الدوق ومطليس وبانسبة وذي القرنين. كما أخذ من مدينة ماردين، مما كان في يد الفرنجة، حَملين والموزر وتل موزر وغيرها من حصون جوسلين. وملك أيضاً مدينة عانة من أعمال الفرات.[5]

د - خلاصة لإنجازات زنكي:

وهكذا، وخلال هذه المرحلة، وفي السنة ثمان وثلاثين وخمسمائة للهجرة، بلغ زنكي من القوة والمنعة ما جعل السلطان مسعود يهابه ويداريه ولا يتعرّض له، بعد أن كان قد تجهّز للسير إليه في الموصل والشام لأخذهما منه.[6]

كتب ابن الأثير:[7]

«ثمّ انتقلت الأحوال بالسلطان إلى أن احتاج إلى مداراة أتابك، وأطلق له الباقي

(١) ابن الجوزي، مرجع سابق، جزء ١٨، ص ٢٦.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٤٠.
(٣) كانت قلعة أشب أعظم حصون الأكراد الهكارية وأهمها، وبها أموالهم وعائلاتهم.
(٤) نسبة إلى لقبه «عماد الدين».
(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٢٩ - ٣٣٠.
(٦) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٤٠.
(٧) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٢٨.

استمالةً وحفظاً لقلبه. وقعود السلطان عنه كان سببه حصانة بلاده وكثرة عساكره وأمواله».

كما كتب ابن الجوزي:[١]

«ثمّ تقلّبت الأحوال فاحتيج (السلطان) إلى مداراة زنكي وسقط المال...».

هـ - مقتل عماد الدين زنكي:

بعد هذه الإنجازات العسكرية الكبيرة، تمكّن زنكي من السيطرة على منطقة واسعة من بلاد الإسلام.

وفي السنة إحدى وأربعين وخمسمائة للهجرة، وفيما كان عماد الدين يحاصر قلعة جعبر وقلعة فنك[٢] الواقعتين ضمن البلاد التي يسيطر عليها،[٣] هاجمته جماعة من مماليكه ليلاً وغيلة فقتلوه وهربوا إلى قلعة جعبر.[٤]

و - الدروس المستقاة:

١ - سبق وأوردنا في هذه الموسوعة أمثلة عديدة عن مدن فاجأها عدوّها فيما حاميتها غير مستعدّة للدفاع عنها، فوقعت في قبضة فاتحيها.

أما في دمشق فان حاميتها أُبلغت بقدوم الجيش الغازي إليها، فتحضّرت وتجهّزت ونجت المدينة من السقوط.

فالقول العسكري الفرنجي: «عدو معروف هو نصف مغلوب»، هو قول تأكّدت صحته خلال عصور التاريخ العسكري. لذلك تعمد الجيوش إلى جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن عدوّها، لا سيما تحضيراته وأسلحته وخططه، بهدف الاعداد لمواجهته.

في المقابل تحاول الجيوش إبقاء كلّ المعلومات عنها سريّة، خاصة بالنسبة إلى الأسلحة الجديدة ولتحرّكات وحداتها

---

(١) ابن الجوزي، مرجع سابق، جزء ١٨، ص ٣٠.

(٢) قلعة جعبر تقع على الفرات مقابل صفين، وكانت تعرف سابقاً باسم «دوسر»، وقلعة فنك مجاورة لجزيرة ابن عمر وبينهما فرسخان.

(٣) سبب حصارهما ان زنكي كان لا يريد ان يكون في وسط بلاده ما هو ملك لغيره.

(٤) ابن الجوزي، مرجع سابق، جزء ١٨، ص ٤٨. - وابن خلدون، جزء ٩، ص ١٤٢ وابن كثير، جزء ١٢، ص ٢٤٣. - وابن الأثير، جزء ٩، ص ٣٣٩.

وخططها. من هنا تأتي أهمية الاستخبارات العسكرية، ولاسيما العملاء الذين تزرعهم داخل صفوف العدو، والذين يزوّدونها بمعلومات عنه تباعاً. وقد نسجت حول أسماء بعض هؤلاء روايات وقصص تقترب أحياناً من الخيال والاسطورة.(١)

٢ - فقد زنكي في معركته ضد دمشق عنصر المفاجأة، فتحوّل عنها إلى بعلبك التي حاصرها وأمّن أهلها ودخلها صلحاً، فيما تابعت حاميتها المقاومة من داخل قلعتها. لكن زنكي تصرّف مع هذه الحامية تصرّفاً كانت له نتائج سلبية على حملته ضد دمشق. فعلاوة على أنه غدر بالحامية وصلب أفرادها بعدما أمّنهم، فإنه دفع بحامية دمشق إلى الاستبسال في الدفاع عن المدينة ورفض تسليمها صلحاً، رغم تعرّضها لضغط الحصار الطويل ورغم ميل صاحبها إلى التسليم. وسبب هذا التصميم على الدفاع والمقاومة كان خوف الحامية من مصير مماثل لمصير حامية قلعة بعلبك.

وفي معرض الحديث عن الاستبسال في المقاومة نذكر الحركة الافراجية الناجحة التي نفّذها الجيش العربي بقيادة خالد بن الوليد خلال معركة اليرموك والتي سمحت لخيالة الروم المحاصرين بالخروج من الحصار والفرار عبر الحقول، الأمر الذي ساهم في سحق رجّالة الجيش البيزنطي المحاصرين. لقد رأى خالد يومذاك أن الضغط على الخيالة قد يدفع بأفرادها إلى المقاومة الضارية، لذلك تلافى الأمر، فيما أدّى فتك زنكي بحامية بعلبك، بعد تأمينها، إلى نتيجة معاكسة لتلك التي حصل عليها خالد.

٣ - حيال تصميم زنكي على مهاجمة دمشق استنجد صاحبها بالفرنجة ووعدهم بأموال طائلة وبتسليمهم مدينة بانياس التي كان قد سبق وفتحها طغتكين صاحب دمشق. وبالفعل هاجم أنز بانياس واحتلّها وسلّمها للفرنجة. وهذا يؤكّد ما سبق وأوردناه من أن التحالفات خلال هذه

---

(١) للمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع يمكن مراجعة موسوعة المخابرات في العالم، من إنتاج دار نوبليس، ٢٠٠٥، بيروت.

المرحلة كانت تحرّكها أحياناً مصالح شخصية لا تصبّ أبداً في التيار العام المناهض للوجود الفرنجي في الشرق الإسلامي.

لذلك تعمد الدول إلى محاولة جمع صفوف قادتها وتوحيد كلمتهم لدى تعرّضها لأخطار خارجة، وذلك كي لا تترك داخل ساحتها عملاء يعملون لمصلحة عدوّها، ليس فقط عسكرياً، إنما أيضاً سياسياً واقتصادياً وإعلامياً.

وهذا ما قام به زنكي، لاسيما عند محاصرته قلعتي جعبر وفنك الواقعتين ضمن منطقة سيطرته، وذلك كي لا يكون في وسط بلاده ما هو ملك لغيره أو موالٍ لقيادة أخرى، كما كتب ابن الأثير.(١)

٤ - استراتيجياً نفّذ زنكي خلال معركته مع الفرنجة ودمشق عمليتين تظهران عمق تفكيره العسكري، وهما:

* الأولى عندما قرّر استباق تحرّك الفرنجة ونقل الصراع من منطقة سيطرته إلى منطقتهم، فانتقل إلى حوران مهدّداً مصالحهم.

* الثانية عندما نفّذ هجوم مشاغلة ضد دمشق، فيما كانت وحدات جيشه قد تفرّقت في المناطق المجاورة لأخرابها ومصادرة غلاتها. وهكذا ثبّت جيش دمشق ومنع وحداته من ملاحقة مفارزه المنعزلة في تلك المناطق.

وهجوم المشاغلة ينفّذ عادة على محور جهد ثانوي، ويهدف إلى تخفيف الضغط عن محور الجهد الرئيسي لعظيم القوات الصديقة.

٥ - خلال محاصرة زنكي قلاع شهرزور وحصونها، خرج صاحبها إلى خارج الحصون رغم تفوّق جيش زنكي، فحرم وحداته من وسائل المدافعة وعرّضهم للهزيمة، خارقاً بذلك مبدأي «نسبية الأهداف للوسائل» و«حرية العمل».

٦ - أما صاحب آمد فانه كان يتمتع بحسّ الواقعية وحسن التقدير، إذ انه عندما لمس قوّة جيش زنكي، خطب له داخل مدينته وانضمّ إلى أتباعه، فجنّب مدينته أخطار الحصار والدمار في معركة خاسرة. فالسياسة هي «فن الممكن».

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٣٩.

٧ - أخيراً أظهر السلطان السلجوقي مسعود في تعامله مع زنكي درجة عالية من الواقعية ومن حسّ المقياس، مطبّقاً مبدأ الحرب الأول «نسبية الأهداف للوسائل» بطريقة صحيحة.

فهو، وبعد أن كان قد تجهّز لمحاربة عماد الدين زنكي في الموصل والشام، عاد واعترف بقيادته بسبب «حصانة بلاده وكثرة عساكره وأمواله».

ملحق رقم ٤

الرواية الفرنجية لحصار شيزر

كتب وليم أسقف صور:(١)

«١ - **الإمبراطور يحاصر شيزر وبرفقته الأمير وكونت الرها عملاً بما ألزمهما به يمين الولاء له:**

أمضى الإمبراطور أشهر فصل الشتاء في كليكية، وعند اقتراب فصل الربيع، الذي يعتبر الفصل الأكثر موائمة لأعمال القتال، أرسل الإمبراطور المنادين ليعلنوا مرسوماً إمبراطورياً أمر فيه قادة الجيش وقادة المئات والخمسينات القيام بإعداد قواتهم وإصلاح الآلات الحربية وتسليح جميع الناس. وكان قد جرى إرسال مندوبين لدعوة الأمير وكونت الرها وبقية النبلاء الرئيسين في تلك المناطق ليزحفوا مع الإمبراطور إلى الحرب.

وتبعاً لذلك اجتمع الجنود من جميع الجهات، وأمر الإمبراطور كافة الجيش بوساطة الأبواق وبقرع الطبول بالتقدّم في حوالي الأول من شهر نيسان إلى شيزر وذلك للاستفادة من الإتفاقية المعقودة بينه وبين الأمير. وبعد انقضاء بضعة أيام دخل بلاد العدو وخيم أمام المدينة.

وما أن علم الأمير والكونت بهذا الأمر حتى بادرا إلى جمع قواتهما من جميع أقاليمها ولحقا الإمبراطور بالسرعة الممكنة ومن أجل الهدف ذاته. وما لبثا أن وصلا مع جيوشهما إلى أمام المدينة المذكورة أعلاه.

---

(١) وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة د. سهيل زكار، دار نوبليس، بيروت، ١٩٩٠، جزء ٤، ص ٦٩٥ - ٦٩٨.

يشبه موقع شيزر موقع مدينة أنطاكية إلى حدّ كبير جداً. فهي واقعة بين الجبل والنهر الذي يتدفّق مروراً بمدينة أنطاكية، ويقع الجزء الأكبر من المدينة في السهل الممتد إلى النهر، إلاّ أن هنالك جزءاً آخر بني على ظهر الجبل. وتقوم القلعة فوق الأبراج المرتفعة وهي قلعة يعتقد على العموم أنها لا ترام. وتنزل الأسوار من هذا المعقل على طرفي اليمين واليسار وتطوّق المدينة مع الضواحي المجاورة لها.

عبر الإمبراطور النهر وطوّق المدينة بجنوده وحاصرها في تلك الناحية التي بدا من الممكن مهاجمتها بسهولة بالغة بسبب الضواحي القائمة أمامها. وقذفت الآلات الحربية المنصوبة في مواقع استراتيجية وابلاً متواصلاً من الحجارة الضخمة هزّت الأبراج والأسوار وحتى منازل الناس الموجودة داخلها. دُمّرت التحصينات تدميراً كاملاً بسبب الضربات المتكرّرة لهذه القذائف الهائلة، بعد أن كان الناس قد اعتمدوا عليها كأعظم دفاع لهم، وسبّب انهيارها فتكاً مريعاً بين سكان المدينة.

شدّد الامبراطور، الرجل العظيم الشجاعة، الهجوم بحماسة متّقدة ووعد بتقديم المكافآت مقابل الفوز بالنصر. وهكذا ألهب عاطفة الشباب المتلهّفين دائماً لبلوغ المجد لخوض النزاع والصراع الحربي. وانخرط الإمبراطور بين الصفوف، يحميه درع يقي صدره وهو متقلّد سيفه، ورأسه مغطى بخوذة ذهبية. وحمّس حيناً هؤلاء وتارة أولئك بأقوال التشجيع، وفوق ذلك أثار شجاعتهم بقدوته كرجل من الشعب، وحارب بإقدام حتى يتمكّن من زيادة شجاعة الآخرين لخوض القتال. وهكذا، تحرّك هذا الرجل ذو النشاط الشامخ بين الجنود دون توقّف، وتحمل هول المعركة من الساعة الأولى في اليوم وحتى الساعة الأخيرة. ولم يسترح أبداً حتى لتناول الطعام، حيث كان يقوم إما بحض أولئك الذين كانوا يصونون الآلات الحربية لأخذ هدف أفضل وأكثر تكراراً أو كان يلهب شجاعة أولئك الذين كانوا منشغلين في أتون الحرب. وجدّد قوّة المحاربين بابدال متتالية من الرجال، واستبدل الجنود الذين أنهكت قواهم بجنود جدد.

واستمرّ الجيش بلا توقّف في تنفيذ الاشتباكات والنزاعات من هذه النوعية لبضعة أيام، وأخيراً سئم الامبراطور من التأخير بعد أن غضب من أن مدينة ضعيفة كهذه أمكنها أن تقاوم جيشه الذي لا يضاهى لفترة طويلة من الزمن. واتهم رجاله باللين وحثّهم على بذل جهود أكثر شدّة، وأمر بمضاعفة الهجمات وبتشديد الحصار بشجاعة أكبر.

وتمّ الاستيلاء خلال الحصار القوي والفعّال للمدينة على الضاحية الواقعة في القسم السفلي من المدينة، التي ذكرت أعلاه، وذلك في قتال متلاحم. ولم يلق السكان الذين عثر عليهم هناك أية رأفة باستثناء الذين أشاروا بالقول أو اللباس أو بإشارة أخرى بأنهم سيتبعون العقيلة المسيحية، حيث كانت تشتمل من البداية على العديد من الناس الذين كانوا ينتمون إلى المؤمنين حيث قام أسيادهم الكفرة باضطهادهم ووضعوهم ظلماً تحت نير العبودية الرهيبة.

٢ - الإمبراطور يرفع الحصار بغضب ويعود إلى أنطاكية دون إنجاز هدفه:

ما أن تمّ الاستيلاء على الضاحية حتى التمس أهالي شيزر إقامة هدنة قصيرة لأنهم خشوا أن يقتحم العدو الجزء السفلي ويهاجم زوجاتهم وأطفالهم، فمنحوا هذا المطلب. وكان حاكم شيزر نبيل عربي يدعى (أبو العساكر سلطان) ابن منقذ. أرسل هذا الرجل رسلاً إلى الإمبراطور بصورة سرية وتوسّل إليه بتضرّعات كثيرة أن ينقذ المدينة ويحمي السكان ووعد أن يقدّم مقابل ذلك مبلغاً كبيراً من المال.

وبناء عليه ما أن تمّ دفع المال المتفق عليه لرفع الحصار، حتى أمر المنادين بإعلان السلام وأمرت الفيالق بالاستعداد للرحيل. وتمّ حل المعسكر على الفور، وصدرت الأوامر بتقدّم الفيالق نحو أنطاكية وأن يسرع الجيش بأسره إلى هناك».(١)

ملاحظة: لم يذكر وليم الصوري تدخّل زنكي في المدافعة عن شيزر.

---

(١) إن السبب الحقيقي لرفع الحصار حسبما جاء عند ابن القلانسي، الذي وصف الحملة التي قام بها الامبراطور في فصل الربيع، هو نبأ أن زنكي كان يجمع جيشاً ضخماً ولسوف ينقضّ على المسيحيين فوراً (تاريخ دمشق ص ٢٤٨ - ٢٥٢). انظر رواية الحصار في الفقرة ١١ من هذا الفصل.

ملحق رقم ٥

الرواية الفرنجية لتدخّل الفرنجة في حصار دمشق

كتب وليم الصوري:[١]

«- زنكي يسبّب الكثير من الإرباك لمملكة دمشق. الدمشقيّون يطلبون المساعدة من المسيحيين. حصولهم عليها وفق شروط محدّدة. عودة زنكي إلى موطنه:

بينما كانت هذه الأحداث تأخذ مجراها في أراضي القدس اجترأ زنكي أن يطمع بالإستيلاء على مملكة دمشق. فعلم أنر حاكم دمشق والذي كان قائداً للجيش أيضاً ووالد زوجة الملك بالأمر الذي كان مفاده أن زنكي كان قد دخل أراضيه بجيش معاد، فأرسل على الفور رسلاً إلى ملك القدس وتوسّل إليه بجدية بالغة وبكلمات استرضائية أن يقدّم له هو والشعب المسيحي المساعدة والنصيحة ضدّ عدوّ متوحّش وخطر بشكل متماثل على المملكتين معاً.

وخشية أن يبدو وكأنه يلتمس بشكل وقح مساعدة مجانية من الملك ونبلائه مع أمل قليل بالمقابل، فقد وعد أن يدفع شهرياً عشرين ألف قطعة ذهبية للنفقات الضرورية للمشروع. واشتملت المعاهدة أيضاً بنداً ينصّ على أن يعيد إلينا مدينة بانياس، التي انتزعت منا منذ سنوات قليلة مضت، بدون نزاع حالما يكون العدو قد تمّ طرده من دمشق. وعلاوة على ذلك، فقد وعد بإعطاء عدد متفق عليه من أبناء النبلاء كرهائن ليكونوا بمثابة ضمان على تنفيذ بنود المعاهدة.

---

(١) وليم الصوري، المرجع نفسه، جزء ٤، ص ٧٠٥ - ٧١١.

استدعى الملك جميع نبلاء المملكة بعد الإستماع إلى هذه الإقتراحات، ووضع أمامهم بحذر جميع شروط وتفاصيل الإتفاقية التي عرضها المندوبون، وطلب أن يدلوا بآرائهم بخصوص الإجابة. فتدارسوا لفترة طويلة من الزمن، وتقرّر أخيراً وبعد دراسة متروية وتبادل حذر للآراء حول جميع التفاصيل، أن تقدّم المساعدة إلى أنر والدمشقيين ضد هذا العدو الأشد قساوة، والذي كان يشكّل تهديداً لكلا المملكتين.

وارتؤي أنه من الأفضل تقديم هذه المساعدة مجاناً خشية أن يفوز العدو بتلك المملكة ويستخدم قوّتها المتزايدة ضدنا بعدما تزداد قوّته بسبب كسلنا. وجعلت أحوال أخرى المسألة أكثر شعبية. وكان السبب الأكثر فعالية والذي قدّم تأييداً شاملاً للإقتراح، هو حقيقة إضافة عبارة عن مدينة بانياس في نهاية المعاهدة.

- حصار مدينة بانياس بمساعدة الدمشقيين:

وهكذا، تمّت الموافقة على الخطة العامة؛ وحالما تمّ استلام الرهائن المذكورين آنفاً ووضعوا تحت الحماية، صدرت الأوامر إلى قوات كبيرة من الفرسان والمشاة من سائر أنحاء المملكة بالتجمّع على الفور في طبرية. وكان زنكي قد اجتاح في هذه الأثناء بشجاعته المفرطة منطقة دمشق بقوات ضخمة من الفرسان. وكان قد تقدّم حتى موقع يدعى رأس الماء بعدما ترك المدينة وراءه، وأقام مع فيالقه هنالك لفترة مؤقّتة، لأن تقدّم المسيحيين سبّب له بعض التردّد. هذا وقد تيقّن أنه بإمكانه التوصّل إلى غاياته المنشودة ما لم تعق قواتنا خططه.

علم المسيحيون بنبأ توقّف زنكي في المكان المذكور آنفاً، وبنبأ أنّ الدمشقيين كانوا قد انطلقوا من المدينة وكانوا ينتظرون وصول الملك وجنده في داريا. ولذلك فقد حلّوا المعسكر وأسرعوا برايات مرفوعة وبتصميم واحد إلى الموقع الآنف الذكر. وانسحب زنكي بسرعة حالما أبلغ بهذه الحركة، حيث كان يقظاً دائماً ولم يفكّر أبداً بالإشتباك مع جيشين في وقت واحد على أرض معادية. ولذلك غادر موقعه وانسحب بسرعة قبل أن يتمكّن المسيحيون من

الإتحاد مع الدمشقيين. وتقدّم مسرعاً الخطى إلى المنطقة المعروفة عموماً باسم وادي البقاع تاركاً قواتنا وقوات الدمشقيين على اليسار.

ومع ذلك، واصلت قواتنا سيرها إلى المكان المحدّد حيث انضمّت إلى الدمشقيين، وعلموا هنالك بشكل محدّد أن زنكي كان قد رحل. وهكذا تغيّر اتجاه الجيش بأسره بموافقة إجماعية نحو بانياس حسبما تمّ الاتفاق على ذلك في المعاهدة، كما قد ذكرنا أن ملك دمشق طغتكين كان قد أخذ هذه المدينة بقوّة السلاح قبل بضعة أعوام، غير أن الحاكم، الذي كان قد عهد بالمدينة إليه تخلّى فيما بعد عن الدمشقيين ورحل إلى عدوّهم زنكي. وكان هذا هو السبب لقيام حلفائنا ببذل جهود قوية لإعادتها إلى سيطرة ملك القدس، فقد فضّلوا إعادتها إلى المسيحيين، الذين نعموا بتأييدهم، بدلاً من أن يروها تحت سيطرة عدو كانوا يخافونه كثيراً ولا يثقون به حيث كان بإمكانه أن يلحق بهم الكثير من الأذى منها، وأن يسبّب لهم متاعب كبيرة أيضاً مثلما يستطيع فعل ذلك من موقع قريب موات».

ملحق رقم ٦

سيرة عماد الدين زنكي

كتب ابن الأثير عن عماد الدين زنكي ما يأتي:[١]

«في هذه السنة،[٢] لخمس مضين من ربيع الآخر، قُتل أتابك الشّهيد عماد الدين زنكي بن آقسنفر، صاحب الموصل والشام، وهو يحاصر قلعة جعبر. قتله جماعة من مماليكه ليلاً، غيلة، وهربوا إلى قلعة جعبر، فصاحوا على مَن بها من أهلها من العسكر، يعلمونهم بقتله، وأظهروا الفرح، فدخل أصحابه إليه! فأدركوه وبه رمق.

حدّثني والدي عن بعض خواصه، قال: دخلت إليه في الحال، وهو حي، فحين رآني ظنّ أني أريد قتله، فأشار إليّ بأصبعه السبّابة يستعطفني، فوقعت من هيبته، فقلت: «يا مولاي من فعل هذا». فلم يقدر على الكلام، وفاضت نفسه رحمه الله. قال: «وكان حسن الصورة، أسمر اللون، مليح العينين، قد وخطه الشيب، وكان قد زاد عمره على ستين سنة، لأنه كان لمّا قتل والده صغيراً. ولمّا قُتِل دفن بالرّقة. وكان شديد الهيبة، على عسكره ورعيّته، عظيم السياسة، لا يُقدِر القوي على ظلم الضعيف. وكانت البلاد، قبل أن يملكها خراباً من الظّلم، وتنقل الولاة، ومجاورة الفرنج، فعمرها وامتلأت أهلاً وسكاناً. (حكى لي والدي) قال: رأيت الموصل، وأكثرها خراب بحيث يقف الإنسان قريب محلّة الطيالين، ويرى الجامع العتيق

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٣٩ – ٣٤١.

(٢) سنة ٥٤١ هـ.

والعرصة ودار السلطان وليس بين ذلك عمارة قط. وكان الإنسان لا يقدر على المشي إلى الجامع العتيق، إلاّ ومعه من يحميه، لبعده عن العمارة. وهو الآن في وسط العمارة، وليس في هذه البقاع المذكورة كلّها، أرضٌ مراح. قال: «وحدّثني أيضاً أنه وصل إلى الجزيرة في الشتاء، فدخل الأمير عز الدين الدبيسي، وهو من أكابر أمرائه، ومن جملة أقطاعه، مدينة دقوقا. ونزل في دار إنسان يهودي. فاستغاث اليهودي إلى أتابك، وأنهى حاله إليه. فنظر إلى الدبيسي فتأخّر، ودخل البلد، وأخرج بركه وخيامه، قال: «فلقد رأيت غلمانه ينصبون خيامه في الوحل، وقد جعلوا على الأرض تبنا يقيهم الطين». وخرج، فنزلها، وكانت سياسته إلى هذا الحد، وكانت الموصل من أقل بلاد الله فاكهة، فصارت في أيامه وما بعدها من أكثر البلاد فواكه، ورياحين، وغير ذلك. وكان أيضاً شديد الغيرة، ولا سيّما على نساء الأجناد، وكان يقول: «إن لم تحفظ نساء الأجناد، وإلاّ فسدن لكثرة غيبة أزواجهن في الأسفار». وكان أشجع خلق الله. أمّا قبل أن يملك، فيكفيه أنه حضر مع الأمير مودود، صاحب الموصل، مدينة طبرية، وهي للفرنج، فوصلت طعنته باب البلد، وأثّرت فيه. وحمل أيضاً على قلعة عقر الحميدية، وهي على جبل عال، فوصلت طعنته إلى سورها، إلى أشياء.

وأما بعد الملك، فقد كان الأعداء محدقين ببلاده، وكلّهم يقصدها، ويريدون أخذها، وهو لا يقنع بحفظها حتى أنّه لا ينقضي عليه عامٌ، حتى يفتح من بلادهم. فقد كان الخليفة، المسترشد بالله، مجاوره، في ناحية تكريت، وقصد الموصل وحصرها. ثمّ إلى جانبه، من ناحية شهرزور وتلك الناحية، السلطان مسعود، ثمّ ابن سقمان، صاحب خلاط،[1] ثمّ داود بن سقمان، صاحب حصن كيفا، ثمّ صاحب آمد وماردين، ثمّ الفرنج، من مجاورة ماردين إلى دمشق، ثمّ أصحاب دمشق. فهذه الولايات قد

(١) خلاط: بلدة عامرة في الإقليم الخامس - وهي قصبة أرمينيا.

اختلطت بولايته من كلّ جهاتها، فهو يقصد هذا مرّة وهذا مرّة، ويأخذ من هذا، ويصانع هذا، إلى أن ملك، من كلّ مزيليه، طرفاً من بلاده».

وكتب عنه ابن كثير ما يأتي:[1]

«وقد كان زنكي من خيار الملوك وأحسنهم سيرة وشكلاً، وكان شجاعاً مقداماً حازماً، خضعت له ملوك الأطراف، وكان من أشد الناس غيرة على نساء الرعية، وأجود الملوك معامة، وأرفقهم بالعامة».

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٤٣.

الفصل الثالث

العمليات العسكرية خلال سيطرة نور الدين زنكي

كما سبق القول قتل الأتابك عماد الدين زنكي فيما كان يحاصر قلعة جعبر السنة إحدى وأربعين وخمسمائة للهجرة، وكان عمره حوالي ستين سنة، فدفن بالرقة. وكان عماد الدين قد عمّر البلاد التي ملكها وضبط أمنها فتقاطر إليها السكان، خاصة إلى الموصل.(١)

كتب ابن الأثير:(٢)

«وكانت الموصل من أقل بلاد الله فاكهة، فصارت في أيامه وما بعدها من أكثر البلاد فواكه ورياحين وغير ذلك».

ولما قتل عماد الدين، كان ابنه نور الدين محمود يتولّى ديوانه ويحكم في دولته، فأخذ خاتمة من يده وسار إلى حلب فملكها. أما ابنه سيف الدين غازي، فقد وصل إلى الموصل حيث استقرّ ملكه.(٣)

. اغتنم جوسلين صاحب تل باشر فرصة وفاة عماد الدين، فسار بجيشه إلى الرها وتسلّمها. لكن قلعتها عصت عليه بمن فيها من المسلمين، فحاصرها حصاراً شديداً. فلما علم نور الدين بذلك سار من حلب في جيش كبير إلى الرها التي كان جوسلين قد غادرها، فدخلها نهبها وسبى أهلها.(٤)

بعد ذلك خاض نور الدين صراعاً طويلاً ضد الفرنجة أهّله لأن يكون من أبطال الشرق الإسلامي، نختصر هذا الصراع

---

(١) ابن الجوزي، مرجع سابق، جزء ١٨، ص ٤٨.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٤٠.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٤٣.

(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ٥٣١ - ٥٣٢.

في مقدّمة هذا الفصل، كوننا لن نعود إليه خلال تفصيلنا أخبار العمليات العسكرية في عهد نور الدين، لأن موضوع الصراع ضد الفرنجة سيطرح في الجزء التالي من هذه الموسوعة.

ففي السنة اثنتين وأربعين وخمسمائة للهجرة، دخل نور الدين مدينة أرتاح الفرنجية عنوة ونهبها، وحاصر مابولة وبصرفوت وكفرلاتا، وذلك بعد أن كان الفرنجة قد طمعوا ببلاده إثر وفاة والده.(١)

كتب ابن الأثير عن ذلك ما يأتي:(٢)

«وكان الفرنج، بعد قتل والده زنكي، قد طمعوا وظنوا أنهم بعده يستردّون ما أخذه. فلما رأوا من نور الدين هذا الجدّ، في أول أمره، علموا أن ما أمِلوا بعيد، وخاب ظنّهم وأملهم».

وفي السنة ثلاث وأربعين وخمسمائة للهجرة ملك نور الدين حصن القزيمة من الفرنجة بعد أن حاصره ونقب سوره وأسر كلّ من كان فيه، ثمّ أخربه.(٣) وفي السنة نفسها استنجد مجير الدين بن أتابك دمشق بنور الدين على الفرنجة، فسار سريعاً على رأس جيشه والتقى بهم في أرض بصرى فهزمهم. بعد ذلك خرج ملك دمشق يكرّمه ويخدمه.(٤)

وفي السنة التالية توفي سيف الدين غازي زنكي فملك أخوه قطب الدين مودود مكانه في الموصل. وفي السنة نفسها استولى أخوه نور الدين على سنجار التي سبق أخاه قطب الدين إليها بعد أن كان صمّم على أخذها.(٥) وغزا في السنة نفسها بلاد الفرنجة من ناحية انطاكية، حيث نشب قتال عنيف بينه وبينهم انتصر فيه نور الدين وانهزم الفرنجة الذين قتل منهم جمع كثير وأُسر مثلهم. ثمّ استولى زنكي على عدد من قلاعهم.(٦)

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٤٤.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٤٨.
(٣) المرجع نفسه، ص ٣٥٤.
(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٤٥.
(٥) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٣٩.
(٦) ابن الجوزي، مرجع سابق، جزء ١٨، ص ٧١.

وفي السنة خمس وأربعين وخمسمائة فتح نور الدين حصن فاميا الفرنجي،[١] وكان من أحصن قلاعهم وأمنعها؛ ثمّ شحنه بالرجال والأسلحة والذخائر.

وفي السنة التالية جمع زنكي جيشاً كبيراً وسار إلى بلاد جوسلين الفرنجي شمالي حلب، ومنها تل باشر وعين تاب واعزاز وغيرها التي عزم على محاصرتها وفتحها. لكن جوسلين جمع جيشاً من الفرنجة وسار إليه، فجرى قتال عنيف هُزم فيه المسلمون وقُتل وأُسر منهم جمع كثير. لكن نور الدين عاد وسيّر جيشاً من التركمان إلى جوسلين على حين غفلة، فوقعت معركة عنيفة أُسر خلالها القائد الفرنجي.[٢]

وبعد أسره جوسلين سار نور الدين إلى قلاعه فحاصرها تباعاً وملكها، وهي تل باشر وعين تاب وإعزار وتل خالد وقورص وداوندار ومرج الرصاص وحصن النادة وكفرشود وكفرلات ودلوكا ومرعش ونهر الجود.[٣] وكان نور الدين، وكلّما ملك حصناً، نقل إليه ما تحتاج إليه الحصون لحمايتها.[٤]

وفي السنة سبع وأربعين وخمسمائة للهجرة، وردّاً على ملك قلاع وحصون جوسلين، تجمّع الفرنجة وحشدوا فرسانهم ورجالتهم وساروا إلى نور الدين لانتزاع بلاد جوسلين منه. التقى الجمعان في دلوك فنشبت معركة عنيفة بينهما هُزم فيها الفرنجة وقُتل وأُسر عدد كبير من جنودهم، وملك زنكي دلوك.[٥]

وفي السنة تسع وأربعين وخمسمائة، قصد نور الدين مدينة دمشق لتسلّمها من صاحبها مجير الدين، الذي استنجد بالفرنجة باذلاً لهم الأموال وعارضاً تسليمهم بعلبك. لكن نور الدين تمكّن من فتح دمشق قبل أن يحشد الفرنجة الجيوش

---

(١) حصن فاميا مجاور لشيزر وحماه.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٥١.

(٣) في ابن الأثير الراوندان وبرج الرصاص وحصن البارة وكفرسود ونهر الجوز (هكذا أوردها ابن الأثير).

(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء٩ ، ص ٥٣٩.

(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٧٥.

الضرورية لخوض القتال ضده.[١] وبعد تمكّنه من دمشق خاف الفرنجة في تل باشر فعرضوا عليه تسلّمها، فملكها وقام بتحصينها ووضع فيها الأسلحة والذخائر.[٢]

وفي السنة نفسها، وبعد وفاة صاحب مصر وملك ابنه الصغير، كتب الخليفة المقتفي لأمر الله عهداً لنور الدين وولاه مصر وأعمالها والساحل، وبعث إليه المراكب والتحف وأمره بالمسير إليها.[٣]

وفي السنة اثنتين وخمسين وخمسمائة للهجرة ملك حصن شيزر وعمّر أسواره ودوره وشحنه بالمقاتلين. وكان الحصن لآل منقذ الكنانيين يتوارثونه منذ أيام صالح بن مرداس. وسبب ملكه منهم، رغم أنهم عرب مسلمون، كان خوفه من أن يملكه الفرنجة بعد تراجع قوّة آل منقط بوفاة آخر زعمائهم من دون وريث.[٤]

وفي السنة نفسها ملك بعلبك وقلعتها من صاحبها الضحّاك البقاعي الذي كان قد ولاّه إياها صاحب دمشق، لذلك ملكها زنكي بعد فتحه مدينة دمشق.[٥]

إنما، وفي السنة ثمانٍ وخمسين وخمسمائة للهجرة انهزم نور الدين أمام الفرنجة بجانب حصن الأكراد في معركة «البقيعة». وكان يحاصر حصن الأكراد عندما جمع الفرنجة جموعهم وفاجأوا المسلمين فقتلوا عدداً كبيراً منهم، ونجا زنكي من الوقعة بعد أن ركب فرسه وفرّ بنفسه. إلا أنه عاد وجمع جيشاً كبيراً وحال دون احتلال الفرنجة مدينة حمص وفقاً لما كانوا يخطّطون. وراسل الفرنجة نور الدين في الصلح، لكنه رفض مصالحتهم، فتركوا حامية لهم في حصن الأكراد وعادوا إلى مناطقهم.[٦]

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٥٤.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٥٤٠.

(٣) ابن الجوزي، مرجع سابق، جزء ١٨، ص ٩٨.

(٤) حصن شيزر قريب من حماه، وهو على جبلٍ عالٍ ومنيع جداً، يسلك إليه من خلال طريق واحد.

(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٤١٩.

(٦) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٥٤٧.

وفي السنة تسع وخمسين وخمسمائة للهجرة تطلّع نور الدين إلى مصر وأرسل جيشاً كبيراً إليها بقيادة القائد الأمير أسد الدين شيركوه بن شاذي.[1] أما سبب إرسال الجيش فهو أن شاور، وزير العاضد لدين الله الفاطمي صاحب مصر، نازعه في الوزارة ضرغام وانتصر عليه. هرب شاور إلى الشام والتجأ إلى نور الدين، الذي قرّر إعادته إلى منصبه على أن يكون له ثلث البلاد، بعد إقطاعات الجند، ويكون شيركوه مقيماً مع جيشه في مصر نائباً عن نور الدين.[2]

في هذا الوقت سار نور الدين إلى أطراف بلاد الشام لمنع الفرنجة عن التعرّض لأسد الدين خلال توجّهه إلى مصر. وبالفعل وصل شيركوه مع شاور إلى بلبيس حيث اصطدم بجيش مصر بقيادة ناصر الدين همام وفخر الدين همام شقيق الضرغام، فانتصر أسد الدين، ثمّ عاد إلى القاهرة، وعاد شاور إلى وزارته.[3]

ولما انقلب شاور على نور الدين السنة اثنتين وستين وخمسمائة للهجرة، مستنجداً بالفرنجة، جهّز هذا الأخير جيشاً كبيراً وسيّره إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه، فملك القاهرة والاسكندرية التي ولّى عليها صلاح الدين يوسف ابن أخيه نجم الذي سيصبح بطل الصراع ضد الفرنجة.[4]

وفي السنة نفسها ملك نور الدين قلعتي حارم وبانياس من الفرنجة، وكانت هذه الأخيرة في يدهم منذ السنة ٥٤٣هـ. وأسر بيمند صاحب انطاكية والقومس صاحب طرابلس.[5]

وفي السنة إحدى وستين وخمسمائة للهجرة فتح أيضاً حصن المنيطرة[6] بعد أن سار إليه وفاجأ حاميته على حين غرّة.

(١) كان شيركوه مقدماً في دولة نور الدين.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء٩ ، ص ٤٦٥ - ٤٦٧.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٦٤.

(٤) المرجع نفسه.

(٥) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٧٢.

(٦) حصن المنيطرة: في جبل لبنان بجانب العاقورة.

بعد ذلك ملك على التوالي صافيتا وعُريمة ومنبج (٥٦٢هـ) وقلعة جعبر (٥٦٤هـ) والموصل (٥٦٦هـ).[١]

وفي السنة تسع وستين وخمسمائة للهجرة توفي نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنفر صاحب الشام وديار بكر والجزيرة ومصر، وكانت وفاته بعلّة الخوانيق.

وهكذا انتهت مسيرة بطولية لهذا القائد الكبير، الذي انتصر في غالبية معاركه ضد الفرنجة واستردّ منهم قسماً كبيراً من بلاد الشام ومصر، وغزا بلادهم موقعاً الرعب في صفوفهم. كتب ابن الجوزي عن نور الدين ما يأتي:[٢]

«ولي الشام سنين، وجاهد الثغور وانتزع من أيدي الكفّار نيّفاً وخمسين مدينة وحصن، منها الرها؛ وبنى مارستان في الشام أنفق عليه مالاً، وبنى بالموصل جامعاً أنفق عليه ستين ألف دينار...».

لكن مسيرة نور الدين في حركة الاسترداد الإسلامية للشرق لم تتوقف بوفاته، فهو كان قد أرسل، كما سبق القول، جيشاً إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه، فلما توفي هذا الأخير كان معه صلاح الدين يوسف، ابن أخيه أيوب بن شاذي الذي ملك مصر، فأخذ على عاتقه مهمّة الصراع ضد الفرنجة في بلاد الشام.[٣]

هذه المسيرة البطولية لنور الدين زنكي سنحاول، في هذا الفصل، استعادة ذكرياتها من دون أن نتطرّق إلى حروبه مع الفرنجة، كونها سترد مفصّلة في الجزء التالي من هذه الموسوعة.

١ - القتال بين الخليفة وأمراء السلطان مسعود

في السنة ثلاث وأربعين وخمسمائة للهجرة انفصل عن السلطان مسعود بعض

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٧٢.
(٢) ابن الجوزي، مرجع سابق، جزء ١٨، ص ٢٠٩.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص ٣٥.

من أكابر الأمراء[١] بعد أن مال السلطان إلى الأمير «خاص بك» وقدّمه عليهم وأبعدهم فخافوا أن يوقع بهم، الأمر الذي دفعهم إلى مفارقته فيما كان في بلد الجبل وساروا نحو العراق.[٢]

فلما بلغوا حلوان خاف أهل العراق، وقام الخليفة المقتفي لأمر الله بإعادة ترميم سور بغداد وإصلاحه، وأرسل إليهم يأمرهم بالعودة عن المدينة. لم ينفّذ الأمراء أمر الخليفة، بل نزلوا في الجانب الشرقي من بغداد، كما نزل علي بن دبيس صاحب الحلة في الجانب الغربي منها.[٣]

كتب ابن الجوزي عن هذا الحدث ما يأتي:[٤]

«فدخلوا بغداد في ربيع الأول ثمّ انبسطوا فمدّوا أيديهم على ما يختص السلطان، وكبسوا خانات باب الازج وأخذوا الغلّة منها، فثار عليهم أهل باب الأزج فقاتلوهم...».

وكتب السلطان إلى الخليفة يبرّئه من العهد الذي بينهما ويأذن له بتجنيد الجند وأن يحتاط للمسلمين، فجنّد ونصب السرادقات والخيم وحفر الخنادق، فجرى قتال بين جند الخليفة وبين جيوش مجموعة الأمراء على مراحل عدّة،[٥] كتب عنها ابن الجوزي:[٦]

«فوقع القتال تحت مدرسة موفق، وخرج صبيان بغداد يقاتلون بالميازر الصوف والمقاليع، وقتل جماعة من الفريقين...

---

(١) من الأمراء: من أذربيجان ايلدكز المسعودي، ومن الجبل البقش وطرنطاي شحنة واسط والدكين وقرقوب وابن طغايرك، ومعهم الملك محمد ابن السلطان محمود. وذكر ابن الجوزي الأسماء كما يلي: الدكز - قرقوت - ابن طويرك.

(٢) ابن الجوزي، مرجع سابق، جزء١٨ ، ص ٦٤.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠٦٤.

(٤) ابن الجوزي، مرجع سابق، جزء ١٨، ص ٦٤ - ٦٥.

(٥) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٤٦.

(٦) ابن الجوزي، مرجع سابق، جزء ١٨، ص ٦٥.

وفي ثالث وعشرين جمادى الأولى جلس المقتفي واستعرض العسكر وحفرت الخنادق ببغداد ونودي بلبس العوام السلاح وأن يمنعوا عن أنفسهم وأموالهم... وبعث الخليفة ليلاً فغلق باب الحديد من عقد السور مما يلي جامع السلطان وبنوا خلفه وسدّوه سداً قاطعاً...

وأصبح العسكر فرأوا باب السور مسدوداً، فركب نحو ألف فارس وجاؤوا إلى السور مما يلي باب الجعفرية ففتحوا فيه فتحات».

وفي أحد أيام القتال تظاهر الأمراء الأعاجم بالهزيمة أمام جند وعامة بغداد مكراً وخديعة وابتعدوا عن المدينة، فلاحقهم جيش العامة. فلما ابتعدوا عن بغداد مسافة، عاد جيش الأمراء فطوّق العامة وجرت معركة عنيفة قُضي خلالها على عسكر العامة، الأمر الذي أوقع الرعب في نفوس أهل بغداد[1].

كتب ابن الأثير عن هذه الوقعة ونتائجها:[2]

«ووضعوا السيف، فقتل من العامة خلق كثير، ولم يُبقوا على صغير ولا كبير، وفتكوا فيهم، فأصيب أهل بغداد بما لم يصابوا بمثله، وكثر القتلى والجرحى، وأُسر منهم خلق كثير، فقتل البعض وشُهّر البعض، ودفن من عرفوا، ومن لم يعرف تُرك طريحاً بالصحراء. وتفرّق العسكر في المحال الغربية، فأخذوا من أهلها الأموال الكثيرة، ونهبوا دجيل وغيره، وأخذوا النساء والولدان».

وكتب ابن الجوزي عن خدعة الأمراء:[3]

«وخرج قوم من العوام فقاتلوا باب الأجمة، فاستجرّهم العسكر، فانهزموا بين يديه، فأخذ بهم فركبوا السور ونزلوا يطلبون الخيم وهناك كمين قد تكمّن لهم، فخرج عليهم فانهزموا فضربوهم بالسيوف فقتلوا منهم نحواً من خمسمائة».

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠٦٤.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٥٥.

(٣) ابن الجوزي، مرجع سابق، جزء ١٨، ص ٦٥ - ٦٦.

وبعدما انتصر الأمراء عادوا واعتذروا من الخليفة ورحلوا إلى النهروان حيث نهبوا البلاد قبل أن يتفرّقوا ويغادروا العراق.(١)

الدروس المستقاة:

- يلاحظ أن كلّ خلاف بين السلطان والخليفة، أو بين السلطان وقادة جيشه، كان ينعكس سلباً على مدينة بغداد التي تعرّضت مرات عدّة للنهب والتخريب. كما لوحظ أن الخليفة المقتفي لأمر الله كان أيضاً محارباً، إذ أنه جنّد الجند بنفسه واستنفر العامة ودعاهم للدفاع عن مدينتهم، وأعاد ترميم السور وخرج من قصره ونصب السرادقات والخيم. وهذا ما دبّ الحماس في صفوف العامة الذين حملوا السلاح وتصدّوا لجيش الأمراء. فكما سبق القول إنّ إعطاء المثل من قبل القائد يحفّز الجنود ويدفعهم للبذل في سبيل الجهد العام.

- كان السلطان مسعود قد فرض على الخليفة التعهّد بعدم تجنيد الجند، كما سبق وفرض على الخليفة الراشد بالله. إنما ومع تعرّض بغداد لخطر خارجي، أبرأه من عهده وطلب منه الدفاع عن المسلمين. وهذا أمر منطقي، إذ أنه، عند تعرّض الوطن أو الأمة لهجوم معادٍ، ينبغي وضع الخلافات الشخصية جانباً وتوحيد الجهود لدرء الخطر والدفاع عن الأمة.

- طبّق الأمراء الأعاجم قاعدة «الحرب خدعة»، فاصطنعوا الهزيمة لاستدراج عدوّهم إلى خارج تحصيناته والقضاء عليه، فنجحوا في خطتهم. لذلك على القائد المتبصّر أن يحتاط لمثل هذه الخدعة ويحلّل الأسباب التي أدّت إلى تراجع عدوّه وانسحابه من ساحة القتال، وذلك كي لا ينتقل إلى موقع غير مناسب لجيشه فيفقد بذلك حرية عمله، كما حصل مع جيش عامة بغداد الذي ترك تحصيناته ولاحق عدوّه ملاحقة غير مأمونة العواقب، فخسر معركته.

لقد سبق وأوردنا في هذه الموسوعة أمثلة عديدة عن خدع مماثلة تظاهر جيش خلالها بالتراجع كي ينقل المعركة إلى أرض مناسبة له أو يعرّض خصمه الذي

(١) ابن كثير، مرجع سابق ، جزء ١٢، ص ٢٤٦.

يلاحقه لكمين يفاجئه، وهكذا تصبح المبادرة بيده.

فأحياناً ينتصر جيش في معركة ما، ويحجم قائده عن ملاحقة عدوّه المنهزم كي لا يقع في أوضاع مماثلة، الأمر الذي يعرّضه لانتقادات المؤرّخين العسكريين. والمثال على هذه الاستراتيجية جاء من معركة «كان» (٢١٦ق.م.) عندما انتصر هنيبعل على الرومان، لكنه لم يلاحق فلولهم ولم يحاصر مدينة روما. وهذا ما دفع بالمؤرّخين للقول إنه «يعرف كيف ينتصر، لكنه لا يعرف كيف يستغل انتصاره»، فيما أن جيش قرطاجة لم يكن مؤهّلاً لمحاصرة روما بسبب قلّة عدده وعدم وجود معدات وآلات حصار معه.

حالياً، يعتبر القتال التراجعي الذي ينفّذه الجيش أمام عدو متفوّق مناورة استراتيجية تهدف إلى:

- كسب الوقت اللازم لتحضير القوى عند التعرّض لهجوم مفاجىء.
- استدراج العدو إلى الموقع المناسب لقيام القوات الصديقة بهجوم معاكس عليه وتدميره أو إنزال خسائر كبيرة به.
- الانتقال بعد ذلك من وضع الدفاع والقتال التراجعي إلى وضع الهجوم واستعادة الأرض التي يكون العدو قد احتلّها.

لذلك، لا يعتبر كلّ تراجع لجيش ما هزيمة لهذا الجيش.

٢ - الحرب بين السلطان سنجر والأتراك الغورية

في السنة ثلاث وأربعين وخمسمائة سار سوري بن الحسين[١] ملك الغور إلى مدينة غزنة فملكها، وفارقها بهرام شاه إلى بلاد الهند حيث جمع جيشاً كبيراً وعاد إليها وعلى مقدّمته السلار الحسين وأمير هندوستان.[٢] وكان جند غزنة قد أظهروا ولاءهم لسوري، فيما قلوبهم مع بهرام شاه.

(١) في ابن كثير: سولي.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٤٦.

لذلك عادوا وانضمّوا إلى هذا الأخير وسلّموا إليه سوري ملك الغورية فصلبه.[١]

وفي السنة سبع وأربعين وخمسمائة عاد ملك الغورية الحسين بن الحسين، الذي تلقّب بـ«علاء الدين»، واحتلّ جبال الغور ومدينة فيروزكوه،[٢] فقوي أمره وجمع جيشاً وقصد هراة فحاصرها بعد أن نهب جيشه مدن «ناب» و«أوبة» و«مارباد».[٣] ثمّ سار إلى بلخ وحاصرها فقاومه الأمير قماج ومعه جمع من الغزّ الذين عادوا وغدروا بقماج واستسلموا إلى ملك الغوريّة وسلّموه المدينة.[٤]

وكان الأمير قماج من أتباع السلطان سنجر الذي، ولمّا علم بما جرى في بلخ سار إليها وحاصرها، فجرت معركة عنيفة بينه وبين الغورية الذين هُزموا وقتل منهم خلق كثير، وأُسر علاء الدين. لكن سنجر عاد وأطلق سراحه وردّه إلى فيروزكوه.[٥]

وفي السنة نفسها، عاد علاء الدين وهاجم غزنة وملكها ونهبها جيشه. ثمّ تلقّب بالسلطان المعظّم، على عادة السلاطين السلاجقة، واستعمل العمال على البلاد التي ملكها ومنهم غياث الدين وشهاب الدين ابنا أخيه اللذين استعملهما على بلاد الغور. لكنهما ثارا عليه، فجهّز جيشاً وسار على رأسه إليهما فاقتتل الجميع قتالاً شديداً هزم فيه علاء الدين وأُخذ أسيراً.[٦]

ملك بعده ابن أخيه غياث الدين، الذي أرسل جيشاً كبيراً بقيادة أخيه شهاب الدين السنة سبع وأربعين وأربعمائة للهجرة إلى غزنة، وفيه جنود من الغورية والخلج والخراسانية. التقى هذا الجيش بجموع من الغزّ فجرى قتال عنيف انهزم خلاله الغورية،

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٥٦ - ٣٥٧.

(٢) فيروزكوه: قريبة من أعمال غزنة.

(٣) هذه المدن من أعمال هراة الرود.

(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٨٥٠ - ٨٥١.

(٥) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٥٢.

(٦) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٨٥١.

لكن شهاب الدين ثبت فيمن معه فوثب على حامل علم الغزّ وقتله وأخذ العلم منه.[(١)]

أما نهاية هذه المعركة التي استعمل خلالها شهاب الدين الخدعة، فقد نقلها ابن الأثير الذي كتب:[(٢)]

«تراجع الغزّ، ولم يكونوا علموا بما كان من شهاب الدين، فجاؤوا يطلبون علمهم، فكلّما جاء إليه طائفة قتلهم، فأتى على أكثرهم، ودخل غزنة وتسلّمها».

وفي السنة التالية راسل سنجر الغورية وأمرهم بمغادرة بلاده. فلما رفضوا، جمع جنوده من أطراف بلاده فاجتمع معه ما يزيد عن مائة ألف فارس، فقصدهم فوقعت بينهم معركة عنيفة انهزم فيها جيش سنجر ولخّص وقائعها ابن كثير الذي كتب:[(٣)]

«فيها (سنة ٥٤٨هـ) وقع الحرب بين السلطان سنجر وبين الأتراك، فقتل من جيشه خلق كثير بحيث صارت القتلى مثل التلول العظيمة، وأسروا السلطان سنجر[(٤)] وقتلوا من كان معه من الأمراء...

وتفرّقت الأمور واستحوذ كلّ إنسان منهم (أمراء الغورية) على ناحية من تلك الممالك، وصارت الدولة دولاً...».

وفي السنة تسع وسبعين وخمسمائة للهجرة سار شهاب الدين نحو لهاوور[(٥)] في جيش كبير من عساكر خراسان والغور وغيرهما، فحاصرها وضيّق على أهلها الذين تراجعت رغبتهم في المقاومة. وأرسلوا قاضي المدينة إلى شهاب الدين في الأمان فأمّنهم ودخل المدينة وأسر صاحبها خسرو شاه الذي سيّره إلى أخيه

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٧٨.

(٢) ابن الأثير، المرجع نفسه.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٥٣.

(٤) بقي السلطان سنجر في الأسر لدى الغورية خمس سنين، حتى السنة ٥٥١هـ حين هرب من الأسر وعاد إلى ملكه بمرو. وفي السنة ٥٥٢هـ ملك السلطان محمود بن محمد ابن أخت سنجر جميع بلاد هذا الأخير.
- المستند: ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٥٦.

(٥) لهاوور: قاعدة الهند.

غياث الدين فأرسله إلى بعض قلاع بلد الغور.[1]

وكان خسرو شاه آخر ملوك آل سبكتين الذين كان ابتداء دولتهم السنة ٣٦٦هـ والتي دامت ٢١٣ سنة.

كتب ابن خلدون عن نهاية دولة آل سبكتكين وبداية دولة الغورية:[2]

«ولما ولي شهاب الدين الغوري غزنة أحسن السيرة فيهم، وافتتح جبال الهند مما يليه فاستفحل ملكه. وتطاول إلى ملك لهاور قاعدة الهند من يد خسرو شاه فسار سنة تسع وسبعين في عسكر غزنة والغور، وعبر إليها وحاصرها، وبذل الأمان لخسرو شاه وأنكحه ابنته وسوّغه ما يريد من الاقطاع على أن يخرج إليه، ويخطب لأخيه فأبى من ذلك. وأقام شهاب الدين يحاصره حتى ضاق مخنقه. وخذله أهل البلد فبعث القاضي والخطيب يستأمنان له فأمّنه ودخل شهاب الدين، وبقي خسرو شاه عنده مكرّماً. وبقي شهرين ينتظر المعونة من يد غياث الدين فأنفذ خسرو شاه إليه فارتاب من ذلك. وأمّنه شهاب الدين وحلف له، وبعث به وبأهله وولده مع جيش يحفظونهم. فلما وصلوا بلد الغور حبسهم غياث الدين ببعض قلاعه فكان آخر العهد به. وانقرضت دولة بني سبكتكين بموته، وكان مبدؤها سنة ست وستين وثلثمائة فتكون مدّة الدولة مائتين وثلاث عشر سنة».

هكذا بدأ تاريخ دولة الغورية الذي كتب عنه ابن الأثير:[3]

«لما استقرّ ملكهم بلهاوور، واتسعت مملكتهم وكثرت عساكرهم وأموالهم، كتب غياث الدين إلى أخيه شهاب الدين بإقامة الخطبة له بالسلطنة، وتلقّب بألقاب السلاطين، كان لقبه شمس الدين. فتلقّب غياث الدين والدنيا معين الإسلام قسيم أمير المؤمنين، ولقّب أخاه بعزّ الدين، ففعل شهاب الدين ذلك، وخطب له بالسلطنة».

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٥٢.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٨٣٠ - ٨٣١.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٨٠.

الدروس المستقاة:

أ - وثق سوري بن الحسين بجند غزنة بعد أن تسلّمها، لكن هؤلاء كانوا يظهرون عكس ما يبطنون. لذلك، وعندما عاد قائدهم السابق على رأس جيش من بلاد الهند، عادوا وانضمّوا إليه وسلّموه سوري الذي صلبه. فظاهرة انقلاب الجند على قيادتهم الجديدة بعد احتلالها بلادهم ظاهرة شائعة خلال عصور التاريخ العسكري. لذلك على القيادة التي تفتتح مدينة ما أو تنتصر في حرب ما مراقبة أفراد الجيش الذي كان يواجهها خلال معركتها الرابحة، كونهم قد ينقلبون عليها سريعاً.

وهذا ما دفع بالقيادة الأميركية في العراق إلى تسريح الجيش العراقي الموالي للرئيس صدام حسين رغم الانتقادات التي وجّهت إليها بسبب هذا التسريح.

كما أنه سبق وأوردنا حالات عديدة في موسوعتنا هذه كان الجند خلالها ينقلبون على المحتلّ ويثورون عليه، ويطردونه أحياناً من بلادهم.

ب - خلال معركة شهاب الدين ضد الغزّ، ورغم هزيمة جيشه، صمد بنفسه واستولى على علم الغزّ مصطنعاً أنه يحمله لصالحهم، وذلك خدعة منه لهم. وهكذا تمكّن من القضاء عليهم عندما جاءت وحداتهم تباعاً لتسلّم العلم، مستفرداً بهم كلّ على حدة من دون أن يفطن هؤلاء لخدعته تلك.

لذلك تعتبر نهاية المعركة مهمّة كبدايتها، إذ قد يعتقد جيش ما أنه ربحها، فيما يكون عدوّه ما زال يحضّر لاستعادة المبادرة فيها. فالمعركة الناجحة ينبغي أن تتبعها مرحلة قتالية يقوم خلالها الجيش المنتصر بعملية «استغلال النصر» وملاحقة فلول عدوّه المنهزمة، كي يمنعها من إعادة جمع صفوفها والقيام «بهجوم معاكس» ينقلها من الهزيمة إلى النصر. وهذا ما لم يفعله الغزّ.

لقد سبق وسجّلنا في هذه الموسوعة حالات عدّة صمد خلالها القائد رغم هزيمة جيشه، كما فعل شهاب الدين، فتمكّن من تحويل هزيمته إلى انتصار. فصمود القائد ومعنوياته وإعطاؤه المثل لجنده تشكّل جميعها عوامل أساسية في تحفيز جنده وفي مناوراته من أجل النجاح.

ج - لم يحترم سنجر مبدأ الحرب الأول، أي «نسبية الأهداف للوسائل» في معركته الثانية مع الأتراك الغورية. فرغم أنه جمع جيشاً كبيراً بلغ تعداده مائة ألف فارس، انتصر الغورية عليه وأسروه وانتهى عهده نتيجة لهذه المعركة.

كتب ابن كثير عن نتيجة هزيمة سنجر ما يأتي:

«واستحوذ كلّ إنسان على ناحية من تلك الممالك، وصارت الدولة دولاً».

هذا القول ينطبق على أقطار السلطنة السلجوقية خلال المرحلة التي نُعالجها في هذا الجزء، إذ أن ممالكهم كانت تقاتل بعضها البعض. وكان ذلك إيذاناً بزوال ملكهم لمصلحة نور الدين زنكي تمشياً مع مبدأ «صعود الأمم وهبوطها» الذي سبق وأوردنا شرحاً عنه في هذه الموسوعة.

أما دولة الغورية، فقد قامت على أنقاض دولة آل سبكتكين الذين زال ملكهم بعد سقوط لهاوور بسبب تراجع الروح القتالية لدى جنودهم. هذا في وقت كان جنود الغورية ما زالوا على بداوتهم، وتحدوهم روح حربية مكّنتهم من الانتصار على دولة السلطان سنجر وعلى دولة آل سبكتكين اللتين كانتا قد أصبح أهلهما من «أهل الحضر»، كما يرى ابن خلدون الذي كتب عن هذا الوضع ما يأتي:[1]

«أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر. والسبب في ذلك ان أهل الحضر ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة... وأهل البدو... قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم، فهم دائماً يحملون السلاح».

٣ - فتوحات إسلامية في بلاد الهند

بعد فتحه لهاوور وإقامة دولة الغورية قصد شهاب الدين مدينة هراة في خراسان، وفيها جماعة من الأتراك السنجرية، فحاصرها بجيش كبير وضيّق على من فيها فاستسلموا

(١) ابن خلدون، المقدّمة، دار الفكر، بيروت، ص ٩٩.

له بعدما أمّنهم، وتسلّم وطرد منها أمراء السلطان سنجر.(١)

ثمّ ملك شهاب الدين مدناً عديدة في بلاد الهند كتب عنها ابن الأثير ما يأتي:(٢)

«ثمّ عاد إلى بلد الهند فذلّ له صعابها، وتيسّر له فتح الكثير من بلادهم، ودوّخ ملوكهم، وبلغ منهم ما لم يبلغه أحد قبله من ملوك المسلمين».

وفي السنة سبع وأربعين وخمسمائة، «ولما اشتدّت نكاية شهاب الدين في بلاد الهند، وإثخانه في أهلها واستيلائه على مدنها، اجتمع ملوكهم وتآمروا بينهم ووبّخ بعضهم بعضاً. فاتفق رأيهم على الإجتماع والتعاضد على حربه، فجمعوا جيوشهم وحشدوها، وأقبل إليهم الهنود من كلّ فجٍ عميق، على الصعب الذلول، وجاؤوا بحدّهم وحديدهم. وكان الحاكم على جميع الملوك امرأة، هي من أكبر ملوكهم».(٣)

فلما علم شهاب الدين بالحشود الهندية سار إليهم في جيش كبير من الغورية والخلج الخراسانية، فالتقى الجيشان واقتتلا قتالاً شديداً انهزم خلاله المسلمون وقتل وأُسر عدد كبير منهم.(٤)

لكن شهاب الدين سار بعد هزيمته إلى مدينة أجرة حيث وافته المدد من أخيه غياث الدين، وسار مجدّاً إلى بلاد ملكة الهند التي جمعت جيشاً كبيراً وهدّدت شهاب الدين طالبة منه العودة إلى غزنة. اصطنع هذا الأخير القبول مكراً وخديعة، فيما كان يحضّر للمواجهة العامة مع الملكة حيث كان وضع الجيشين كالآتي:(٥)

- يفصل بينهما نهر تمركزت مفارز من الجيش الهندي على مخاضاته مانعة جيش المسلمين من اجتيازه.
- جيش المسلمين ينتظر على الجانب الآخر من النهر.

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٥٢.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ض ٣٨١.
(٣) المرجع نفسه.
(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٨٥٤.
(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٨٢.

وفيما الوضع كذلك وصل إنسان هندي إلى شهاب الدين وعرض عليه أن يوصله إلى مخاض غير مراقب يمكنه عبوره إلى الجانب الآخر. ورغم شكّه بصدقية الهندي، أرسل شهاب الدين معه جيشاً كبيراً بقيادة الأمير الحسين بن خزميل الغوري،(١) فعبر النهر وفاجأ الجيش الهندي من الوراء حيث جرت معركة عنيفة استغلّها شهاب الدين لتأمين عبور باقي جيشه محيطاً بالهنود ومطوّقهم وواضعاً السيف في جنودهم.

كتب ابن خلدون عن المعركة مع ملكة الهند ونتائجها ما يأتي:(٢)

«ثمّ ثارت الملكة ثانياً إلى بلاد شهاب الدين بالعساكر، وبعثت إلى شهاب الدين بالخروج عن أرض الهند إلى غزنة فأجاب إلى ذلك بعد أن يستأذن أخاه غياث الدين وينظر جوابه. وأقاموا على ذلك، وقد حفظ الهنود مخاضات النهر بينهم وهو يحاول العبور فلا يجده. وبينما هو كذلك جاء بعض الهنود فدلّه على مخاضة فاستراب به حتى عرفه قوم من أهل أجرة والملتان. وبعث الأمير الحسن بن حرميد الغوري في عسكر كثيف، وعبر تلك المخاضة ووضع السيف في الهنود فأجفل الموكلون بالمخاضات. وعبر شهاب الدين وباقي العساكر وأحاطوا بالهنود، ونادوا بشعار الإسلام فلم ينج منهم إلاّ الأقل، وقتلت ملكتهم وأسروا منهم أمماً.

وتمكّن شهاب الدين بعدها من بلاد الهند، وحملوا له الأموال وضربت عليهم الجزية فصالحوه وأعطوه الرهن عليها. وأقطع قطب الدين أيبك مدينة دلهي، وهي كرسي الممالك التي فتحها وأرسل عسكراً من الخلخ مختارين ففتحوا من بلاد الهند ما لم يفتحه أحد، حتى قاربوا حدود الصين من جهة الشرق، وذلك كلّه سنة ثمان وأربعين وخمسمائة».

وفي السنة ثلاث وثمانين وخمسمائة للهجرة سار ملك غزنة شهاب الدين إلى بلاد الهند مجدداً، وقصد «أجمير»، التي

---

(١) الأمير الحسين الغوري أصبح فيم بعد صاحب هراة - في ابن خلدون الحسن بن حرميد.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٨٥٣ - ٨٥٤.

تعرف بولاية السوالك، فأسر ملكها المدعو «كولة».[١] فلما علم ملك الهند بذلك جمع جيشاً كبيراً فيه أربعة عشر فيلاً، وسار إلى المسلمين. التقى الجيشان ونشبت معركة عنيفة، انهزمت خلالها ميمنة وميسرة المسلمين وتراجعتا إلى الوراء أمام هجوم الفيلة. لكن قلب الجيش الإسلامي قام بهجوم عنيف بقيادة شهاب الدين الذي حمل على أحد الفيلة وطعنه في كتفه قبل أن يتعرّض لسهم أصابه فوقع أرضاً، وخسر المسلمون القتال.[٢]

وفي السنة ثمان وثمانين وخمسمائة للهجرة عاد شهاب الدين وجمع جيشاً كبيراً وخرج من غزنة إلى الهند غازياً لطلب الثأر من ملكها، فوصل إلى موضع المعركة السابقة واجتازه مسيرة أيام أربعة مستولياً على بلدان عديدة في الهند. فلما سمع ملك الهند أخباره حشد جيشه وسار للقاء المسلمين.

اصطنع شهاب الدين التراجع خدعة، وأمر جيشه بالتقهقر حتى بقي بينه وبين بلاد الإسلام ثلاثة أيام، ثمّ أرسل سبعين ألفاً من جيشه داروا حول معسكر عدوّه لمهاجمته من الوراء على أن يهاجمه، بمن بقي معه من الجيش، من الأمام.[٣]

كتب ابن كثير عن هذه الوقعة ما يأتي:[٤]

«ومما وقع في هذه السنة من الحوادث غزوة عظيمة بين صاحب غزنة شهاب الدين ملكها السبكتكيني وبين ملك الهند وأصحابه الذين كانوا قد كسروه في سنة ثلاث وثمانين، فأظفره الله بهم هذه السنة، فكسرهم وقتل خلقاً منهم وأسر خلقاً. وكان من جملة من أسره ملكهم الأعظم، وثمانية عشر فيلاً، من جملتها الذي كان جرحه، ثمّ أحضر الملك بين يديه فأهانه ولم يكرمه، واستحوذ على

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص ١٦٤.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٨٥٩

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص ٢٢١ - ٢٢٢.

(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٣٧٨.

حصنه وأخبر بما فيه من كلّ جليل وحقير، ثمّ قتله بعد ذلك، وعاد إلى غزنة مؤيداً منصوراً، مسروراً محبوراً».

وفي التفاصيل أنه، ومنذ الصباح، حمل المسلمون على جيش الهند من كلّ الجهات بعد تطويقه، فجرى قتال عنيف بين الجانبين كثر خلاله القتل في صفوف الهنود الذين لم ينجُ منهم سوى القليل. ولما حاول ملكهم الفرار، منعه جنوده عن ذلك، فوقع أسيراً في أيدي المسلمين.(١)

وغنم المسلمون من الهنود أموالاً كثيرة وغنائم متعدّدة منها ثمانية عشر فيلاً. كما استولوا على حصن أجمير مع البلاد المجاورة له، فأقطع شهاب الدين كلّ تلك البلاد لمملوكه قطب الدين أيبك، وقتل ملك الهنود، ثمّ عاد إلى غزنة.(٢)

وجرت معارك أخرى بين أيبك وكبير ملوك الهند فصّلها ابن خلدون الذي كتب:(٣)

«كان شهاب الدين ملك غزنة قد أمر مملوكه قطب الدين أيبك خليفته على دلهي أن يغزو بلاد الهند من ناحيته فسار فيها ودوّخها وعاث في نواحيها. وسمع ملك بناوس، وهو أكبر ملوك الهند وولايته من تخوم الصين إلى بلاد ملاوا طولا، ومن البحر الأخضر إلى عشرة أيام من لهاوور عرضاً. وتلك البلاد من أيام السلطان محمود مقيمون على إسلامهم، فاستنفر معه مسلمون كانوا في تلك البلاد فسار إلى شهاب الدين سنة تسعين، والتقوا على ماحون نهر كبير يقارب دجلة فاقتتلوا، ونزل الصبر. ثمّ نصر الله المسلمين واستلحم الهنود، وقتل ملكهم وكثر السبيّ في جواريهم، والأسرى من أبنائهم، وغنموا منهم تسعين فيلاً. وهرب بقية الفيول، وقتل بعضها، ودخل شهاب الدين بلاد بناوس، وحمل من خزائنها ألفاً وأربعمائة حمل، وعاد إلى غزنة. ثمّ سار سنة اثنتين وتسعين

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص ٢٢١ - ٢٢٢.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٣٧٨.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٨٦٠ - ٨٦١.

إلى بلاد الهند، وحاصر قلعة بهنكر حتى تسلّمها على الأمان، ورتّب فيها الحامية. وسار إلى قلعة كواكير، وبينهما خمس مراحل يعترضها نهر كبير فحاصرها شهراً حتى صالحوه على مال يحملونه، فحملوا إليه حمل فيل من الذهب فرحل عنهم إلى بلاد أبي رسود فأغار ونهب وسبى وأسر، وعاد إلى غزنة ظافراً».

وكتب ابن كثير عن المعركة بين شهاب الدين وملك الهند ما يأتي:(١)

«وفيها كانت وقعة عظيمة بين شهاب الدين ملك غزنة وبين كفّار الهند، أقبلوا إليه في ألف ألف مقاتل، ومعهم سبعمائة فيل منها فيل أبيض لم ير مثله. فالتقوا فاقتتلوا قتالاً شديداً لم ير مثله، فهزمهم شهاب الدين عند نهر عظيم يقال له الملاحون، وقتل ملكهم واستحوذ على حواصله وحواصل بلاده وغنم فيلتهم. ودخل بلد الملك الكبرى، فحمل من خزانته ذهباً وغيره على ألف وأربعمائة جمل، ثمّ عاد إلى بلاده سالماً منصوراً».

الدروس المستقاة:

أ - خلال هذه المرحلة من التاريخ الإسلامي الشرقي كانت دولة الغورية في بداية عهدها. لذلك كان شعبها ما زال على بداوته وجيشها يتألّف من مقاتلين أشدّاء، عركتهم الصعاب، ولم يعتادوا بعد على الحياة السهلة، فيما كانت الهند قد عرفت منذ زمن بعيد حضارة عريقة، وكان لكلّ مدينة من مدنها ملك يحكم باستقلال تام عن باقي الملوك.

هذه الحقيقة مكّنت شهاب الدين من غزو الهند وفتح العديد من مدنها.

وعندما توحّدت الجيوش الهندية وسارت للقاء الجيش الغوري، تمكّنت من إنزال الهزيمة فيه ومن السيطرة على غالبية مخاضات النهر الذي كان يفصل بين الممالك الهندية والدولة الغورية.

ب - ولما كان شهاب الدين في وضع صعب لم يمكّن جيشه من العبور لتأمين الالتحام بالجيش المعادي، اصطنع التراجع مكراً وخديعة، فيما كان يحضّر للمواجهة.

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٣، ص ٩ - ١٠.

كما أنه شكّ في صدقية الهندي الذي عرض أن يقود الجيش إلى أحد المخاضات غير المراقب، فأرسل معه جيشاً كبيراً تجنّباً للمفاجآت تمكّن من العبور ومن مفاجأة جيش الهند من الوراء وإشغاله لتأمين عبور باقي الجيش الإسلامي إلى الجانب الذي يجري فيه القتال. وقام هذا الجيش بتطويق الجيش الهندي منزلاً به هزيمة نكراء.

لقد أحسن شهاب الدين تطبيق قواعد استراتيجية في معركته نذكر منها:

- خداع العدو وجعله يعتقد عكس ما يخطّط له.
- الشك في نوايا الهندي الخائن خوفاً من قيادة الجيش الإسلامي إلى كمين يقضي عليه.
- إرسال جيش كبير للسيطرة على نقطة العبور المتوافرة.
- مفاجأة عدوّه بمهاجمته من الوراء، الأمر الذي دفع بالمفارز التي تحرس المخاضات إلى الانسحاب، فتأمّنت حرية عمل الجيش الإسلامي.
- تطويق جيش الهند وإفقاده حرية عمله وسيطرته على نقاط عبور النهر الإجبارية.

كلّ هذه العوامل ساهمت في نجاح خطة القائد المسلم ومناورته، وفي انتصار جيشه.

ج - أحسن شهاب الدين تطبيق استراتيجية «استغلال النصر» بعد معركته الناجحة، فقتل ملكة الهند وأسر العديد من قوادها وسيطر على مناطق واسعة من بلادها تصل إلى حدود الصين، فارضاً الجزية على ملوكها.

- تواجه الجيش الإسلامي مرّة جديدة مع الفيلة في قتاله ضد ملوك الهند. وأمام هجومها الكاسح تراجعت ميمنة وميسرة هذا الجيش. لكن صمود شهاب الدين مع قلب جيشه وقيامه بهجوم عنيف في وقت كانت ميمنته وميسرته تتراجعان، مكّناه من تحويل الهزيمة إلى انتصار، ولو في صورة مؤقتة.

ومما لا شكّ فيه ان المناورة الهجومية التي قام بها القائد المسلم فيها الكثير من الجرأة والإقدام والتصميم. لكنها مناورة غير مأمونة العواقب، إذ أن الوحدة المهاجمة كانت مكشوفة الجانبين مع تراجع ميمنة وميسرةالجيش. لذلك عندما أصيب هذا القائد هزم جيشه.

حالياً، وعند تنفيذ مناورة هجومية في أرض العدو من قبل عظيم القوى الصديقة، تقوم وحدات مسانِدة بتأمين مجنبات القوة المهاجمة من خلال تقدّمها بموازاتها من الجانبين وحمايتها من أي هجوم عدوٍ مفاجىء.

د - ولما كانت «الحرب خدعة» قام شهاب الدين بخدعة أخرى في المعركة التي جرت السنة ٥٨٨هـ، فاصطنع التراجع أمام جيش الهند الكبير، ثمّ فاجأه بإرسال سبعين ألفاً من جنده هاجموه من الوراء، فيما كان يهاجمه بباقي القوة من الأمام.

وهكذا فقد الجيش الهندي حرية عمله، بعد تطويقه، فخسر معركته رغم وجود ثمانية عشر فيلاً مقاتلاً في صفوفه أسرها المسلمون الذين غنموا غنائم كثيرة.

هـ - كان المسلمون، خلال هذه المرحلة من التاريخ، قد اعتادوا القتال ضد الفيلة بعد خوضهم معارك عديدة ضد جيوش هندية تملك هذا النوع من السلاح. «فالعدو المعروف نصف مغلوب» وفق المثل العسكري الفرنسي. وهكذا، وخلال إحدى المعارك، تمكّن المسلمون من أسر تسعين فيلاً.

لذلك تحافظ الجيوش على السريّة في شأن الأسلحة الجديدة التي قد تستعملها في حروبها المقبلة كي تفاجىء عدوّها باستعمالها للمرة الأولى.

و - نقل ابن كثير أن أحد جيوش الهند الذي تصدّى لشهاب الدين بلغ تعداده مليون مقاتل. لذلك نعود للتذكير بما سبق وأوردناه حول ضرورة أخذ معلومات المؤرّخين العرب حول أعداد الجيوش بحذر كبير، إذ أنّ جمع جيش بهذا الحجم وتأمين قيادته وانتقالاته وخاصة تموينه بالماء والطعام هي أمور تبدو مستحيلة في ذلك الزمن البعيد من التاريخ.

٤ - حروب الخليفتين المقتفي لأمر الله والمستنجد بالله

في السنة تسع وأربعين وخمسمائة للهجرة قبض والي تكريت على رسول للخليفة المقتفي لأمرالله، فجنّد الخليفة جيشاً وسيّره إلى تكريت التي خرج أهلها

وقاتلوا الجيش ومنعوه عن دخول المدينة.(١)

عاد الخليفة وسار بنفسه على رأس جيش كبير إلى المدينة التي حاصرها فهرب أهلها منها، ودخلها الجند ونهبوا بعضها، فيما صمدت قلعتها. نصب الخليفة ثلاثة عشر منجنيقاً وراح يقصف القلعة التي سقط أحد أبراج سورها نتيجة القصف.(٢)

ثمّ أعطى الخليفة إشارة الهجوم العام على القلعة، فاشتدّ القتال حولها وكثر القتلى من دون أن يتمكّن الجيش البغدادي من احتلالها، بل عاد إلى مدينته بلا نتيجة.(٣)

بعد ذلك أرسل الخليفة إلى المدينة جيشاً جديداً قوامه ستة آلاف فارس بقيادة الوزير عون الدين بن هبيرة، فحاصر القلعة وضيّق على من فيها. إنما، وقبل أن تسقط القلعة، وصل جيش مرسل من الملك محمد ابن السلطان محمود السلجوقي بقيادة القائدين مسعود بلال والبقش إلى العراق، بعد أن اجتمعت إليه أعداد كبيرة من التركمان. خرج الخليفة لمقاتلته واستدعى جيشه من تكريت.(٤)

وقعت المعركة بين الجيشين عند بكمزا،(٥) فدامت المناوشة ثمانية عشر يوماً قبل أن يقوم جيش التركمان بهجوم عام انهزمت خلاله ميمنة وبعض القلب من جيش الخليفة الذي عاد وقاد بنفسه هجوماً كاسحاً على رأس جيشه أدى إلى تغيير مجرى المعركة.(٦)

كتب ابن الجوزي عن الهجوم الأخير الذي قاده الخليفة ما يأتي:(٧)

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٥٤.
(٢) ابن الجوزي، مرجع سابق، جزء ١٨، ص ٩٥.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٩٦.
(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠٦٦.
(٥) بجوار يعقوبا، قرب عقربابل.
(٦) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٩٧.
(٧) ابن الجوزي، مرجع سابق، جزء ١٨، ص ٩٦ – ٩٧.

«فانهزمت ميسرة العسكر الخليفي وبعض القلب، وكان بازائهم مسعود الخادم وترشك، حتى بلغت الهزيمة إلى باب بغداد. وثبت الخليفة وضربوا على خزانته وقتل خازنه يحيى بن يوسف ابن الجزري. فلما رأى العسكر الميسرة قد انهزمت ضعفت قلوبهم فجاء منكوبرس، وكان فارساً شديد البأس ومعه هويذان فنزلا عن الخيل، وقبّلا الأرض بين يدي أمير المؤمنين وقالا: «يا مولانا تثبت علينا ساعة حتى نحمل بين يديك فإذا رأيناك قويت قلوبنا». فقال: «لا والله إلاّ معكما!» فرفع الطرحة عن رأسه وجذب السيف ولبس الحديد هو وولي العهد وبكّرا، وصاح أمير المؤمنين: «يالمضر كذب الشيطان». وحمل وحمل العسكر بحملته فوقع السيف في العدو، وسُمع صوت السيوف على الحديد كوقع المطارق على السنادين. وانهزم القوم وتمّ الظفر وسُبي التركمان وأُخذت أموالهم من الإبل والبقر والغنم ما لا يحصى. وقيل كانت الغنم أربعمائة ألف رأس فبيع كلّ كبش بدانق لكثرتها. ونودي: «من كان أخذ من أولاد التركمان / أو نسائهم فليرد ذلك». فردّوا، فأخذ البقش الملك وهرب إلى بلده وطلب مسعود وترشك القلعة ودخل الخليفة إلى بغداد في غرة شعبان».

أ - السلطان محمد شاه يحاصر بغداد:

وفي السنة إحدى وخمسين وخمسمائة للهجرة أرسل السلطان محمد شاه بن محمود يطلب من الخليفة ان يُخطب له في بغداد. ولما لم يقبل الخليفة ذلك، سار من همذان في جيش كبير إلى العراق، بعد أن وعده أتابك قطب الدين صاحب الموصل ونائبه زين الدين علي بإرسال النجدات له.[١]

اضطرب الناس في بغداد واستنفر الخليفة أهلها وجمع الجند، فأقبل القائد «خطلوبرس» في جند واسط، وانتقل القائد مهلهل إلى الحلة فملكها.[٢] واهتمّ الخليفة

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٥٦.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠٦٢.

بأمر الدفاع عن بغداد، يعاونه وزيره عون الدين بن هبيرة، فجمع السفن وقطع الجسر ونقل أهل الجانب الغربي وأهل السواد إلى دار الخلافة. وخرّب الخليفة بعض قصور الأمراء ونهبها جنده.[1]

عبر السلطان محمد نهر دجلة فوق حرّاقة إلى الجانب الغربي حيث انضمّ إليه جيش زين الدين، وتمركز عند الرقة وأمر باستعمال السهام لضرب قصر الخلافة.[2]

أما الخليفة فقد فرّق السلاح على الجند والعامة ونصب المنجنيقات والعرادات،[3] وعبر جنده مع العامة إلى محمد شاه فدارت معركة عنيفة استعمل فيها جند الخليفة النفط في القتال ضد أعدائهم.

نقل ابن الجوزي تفاصيل عن القتال فكتب:[4]

«ركب عسكر محمد شاه وعلي كوجك وجاؤوا في نحو ثلاثين ألف مجفجف فوقفوا عند الرقة ورموا بالنشاب إلى ناحية التاج، وصعد الناس إليهم في السفن (...) وكان أمير المؤمنين أمر صبيان بغداد يعبرون إليهم بالمقاليع وزراقات النار فيردّون العسكر الكثير ويتلقّون النشاب بميازر صوف، وكان القتال تحت قمرية وقصر عيسى. وضرب الصبيان يوماً أميراً منهم بقارورة نفط فرمت به الفرس فقتلوه وقعد القوم له في العزاء. ونهب عسكر القوم بالجانب الغربي وأخرجوا مائتين وسبعين دولاباً وركب يوم الاثنين عسكر الخليفة ومضوا بكرة إلى ناحية الدار المعزية ومعهم العرادات وأقواس الجرح يقاتلون والنشاب يقع عليهم مثل المطر.

فلما كان يوم السبت ثالث صفر جاء عسكر الأعداء في جمع عظيم فانتشروا

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٥٦.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٤١٠.

(٣) نقل ابن الجوزي ان الخليفة أخرجَ يومذاك «سبعة آلاف جوشن ففرقها ونصب المجانيق والعرادات وأقام أربعين شقّاقاً يعملون الخشب لعمل التراس والمجانيق والعرادات». كما نقل أن الخليفة نصب يومذاك ٢٧٠ منجنيقاً وعرادة، في كلّ عرادة ٤٠ رجلاً.

(٤) ابن الجوزي، مرجع سابق، جزء ١٨، ص ١١١ - ١١٣.

على دجلة وخرج عسكر الخليفة في السفن واتصلت الحملات وانقطعت صلاة الجمعة من الجانب الغربي. ووصلت الأخبار بمجيء سفن إليهم من الحلة وأنهم قد أداروها إلى الصراة وجاءتهم سفن من واسط فأقامت في المدائن ووصل لهم من الموصل كلك[١] عليه دقيق وسكّر وعسل وسمن ونعل للخيل وغير ذلك فأخذه أصحاب الخليفة فركبوا بأجمعهم وانتشروا من الرملة إلى تحت الرقة وضربوا الدبادب والبوقات. وكانت الريح شديدة تمنع السفن أن تصعد فرمى صبيان بغداد نفوسهم في الماء وسبحوا فصعد منهم نحو خمسين بأيديهم السيوف والمقاليع والنشاب. وسكنت الريح فركبت المقاتلة في السفن تمنع من الصبيان. وكان يوماً مشهوداً.

وفي يوم الجمعة سادس عشر صفر وصلت سفن القوم إلى الدور فخرجت سفن أهل بغداد فمنعتها من الاصعاد. وجرى قتال عظيم ووقع النفير ببغداد ولم يصل الجمعة إلاّ قليل ونودي من الديوان بحمل السلاح. فلبس العوام والتجار والرؤساء ثياب الحرب. وكان المحتسب كلّ يوم يجوز والسلاح بين يديه وعلم الحاج بالحال.

فجاء الخبر إلى الحاج بالحلة على حملة السلامة والعافية وأن أمير الحاج قيماز أخذ امرأة الوزير ابن هبيرة فدخل البرية مع بني خفاجة وجاء الحاج فعبروا إلى بغداد.

فلما كان يوم الاثنين سادس عشر صفر وصل ركابي من همذان يخبر بدخول ملكشاه شاه همذان وكبس بيوت المخالفين ونهبها فخلع على الركابي وضربت بين يديه الدبادب. وجاء رسول آخر فأخبره بذلك. فلما كانت عشيّة الجمعة سلخ صفر عبر منهم في السفن نحو ألف فارس فقصدوا تحت الزاهر ليدخلوا دار السلطان فنزل منكوبرس الشحنة وأصحابه فضرب عليهم فقتل منهم جماعة ورمى الباقون أنفسهم في الماء. واتصل القتال عند عقد السلطان ودار العميد في دجلة

(١) كلك: نوع من أنواع السفن النهرية.

وغير ذلك من الأماكن. وخرج بعض الأيام إلى الأتراك من الخزانة خمسة وعشرون ألف نشابة ومائتان وستون كرا وكان جميع ذلك من خزانة الخليفة ولم يكلّف أحداً شيئاً من ذوي المال.

وحكى زجاج الخاص أنه عمل في هذه النوبة ثمانية عشر ألف قارورة للنفط سوى ما عندهم من نوبة تكريت. وفي يوم الأربعاء خامس ربيع الأول فتح باب السور مما يلي سوق السلطان وباب الظفرية وخرجت الخيالة والرجالة وخرج منكوبرس وقيماز السلطاني. ووقع القتال فحملوا اثنتي عشرة مرة ونصب الأعداء عرادة على دار السلاركرد فرماها المنجنيق الذي تحت دار الشحنة فكسرها. وتعذّر على أهل بغداد الشوك والتبن والعلف فبيع الشوك كلّ باقة بحبّة ورأس غنم بسبعة دنانير. وسدّ الخليفة الجسر فبقي منه زورقان وكان يحفظ».

لوجستياً قلّ الطعام في بغداد واشتدّ الحصار عليها، فوضع السلطان محمد شاه أربعمائة سلّم من الحبال لتسلّق الأسوار، وبدأ جنده بتسلّقها.(١)

وفيما الوضع كذلك وصلت الأخبار إلى محمد شاه بأن أخاه ملكشاه وصل همذان واستولى عليها وأسر عائلات الأمراء الذين كانوا يقاتلون معه، فتراجع حماسه وتأثّرت معنوياته. لكنه رغم ذلك جدّ في القتال لتحقيق هدفه وفتح بغداد بسرعة. ولما لم يتمكّن من تحقيق هذا الهدف تراجعت جيوشه عن بغداد وسارت نحو همذان، فنجت المدينة من السقوط، وسجّل الخليفة نصراً جديداً بقيادته عمليات الدفاع عن المدينة بنفسه.(٢)

ب - القتال بين العرب وجند بغداد:

وفي السنة ست وخمسين وخمسمائة للهجرة اجتمع إلى قبيلة خفاجة عدد كبير من العرب.وقصدوا الحلة والكوفة طلباً لحقوقهم من الطعام، فتصدّى لهم أمير

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠٧٢.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٤١٠.

الحاج أرغش والأمير قيصر شحنة الحلة، وهما من مماليك الخليفة.[١]

حيال ذلك قامت خفاجة والعرب بنهب سواد الكوفة والحلّة فجرى قتال بينهم وبين جند الخليفة بقيادة أرغش وقيصر، فأرسل العرب مفرزة من مقاتليهم إلى خيام الجند حالت دون تمكّن هؤلاء من العودة إليها.[٢] وجرى قتال شديد بين الجهتين قتل خلاله قيصر وجرح أمير الحاج وأُسرت مجموعة كبيرة من الجنود. ومن نجا من هذا القتال مات عطشاً في البرية.[٣]

نقل ابن الأثير رواية عن قيام إماء العرب بسقي الجرحى من مقاتليهم وإجهازهنّ على جرحى جنود الخليفة، فكتب:[٤] «وكان إماء العرب يخرجن بالماء يسقين الجرحى، فإذا طلبه منهن أحد من العسكر أجهزن عليه».

أخيراً جهّز الخليفة جيشاً كبيراً في بغداد وخرج في طلب خفاجة التي تراجع مقاتلوها وفرّوا إلى البرية، ثمّ أرسلت تعتذر من الخليفة سائلة عفوة، فأجابهم إلى ذلك.[٥]

ج - ملك الخليفة قلعة الماهكي:[٦]

وفي السنة سبع وخمسن وخمسمائة للهجرة سلّم سنقر الهمذاني قلعة الماهكي إلى أحد مماليكه وانتقل إلى همذان، فلم يستطع المملوك المحافظة عليها بسبب شنّ الغارات عليها من قبل التركمان والأكراد. ثمّ أشير عليه ببيعها إلى الخليفة، فقرّ الرأي على دفع خمسة عشر ألف دينار مع أسلحة وأمتعة ثمناً لها، وتسلّمها جند الخليفة.[٧]

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٦٨.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠٧٩.
(٣) ابن الجوزي، مرجع سابق، جزء ١٨، ص ١٤٨.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٤٥١.
(٥) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠٧٩.
(٦) قلعة الماهكي من أعمال بغداد.
(٧) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٤٥٧.

وفي السنة اثنتين وستين وخمسمائة للهجرة، وصل شملة خوزستان إلى القلعة وأرسل إلى الخليفة المستنجد بالله يطلب توليته قسم من البلاد. سيّر الخليفة إليه جيشاً من جيوشه لمنعه عن الاستيلاء على قلعة الماهكي، بعد أن لعنه وأعلن أنه من الخوارج.(١)

وبعد أن تمركز الجيشان مقابل بعضهما رأى شملة صعوبة مقاومة جيش الخليفة، فرحل وعاد إلى بلاده.(٢)

د - الدروس المستقاة:

١ - خلال المرحلة التي نعالجها نلاحظ تدخّل الخلفاء العباسيين في القتال الدائر بين مختلف قوى العالم الإسلامي الشرقي، وهذا ما جعل الخلفاء المسترشد بالله والراشد بالله والمقتفي لأمر الله والمستنجد بالله (٥١٢هـ - ٥٦٦هـ) يُعتبرون من القادة العسكريين الذين قادوا الجيوش في المعارك التي شاركوا في إدارتها وفي مجراها.

فغياب السيطرة السلجوقية عن بغداد والعراق خلق فراغاً عسكرياً، ملأه الخلفاء الذين نظّموا الجيوش وقادوها في معارك عنيفة كانوا أحياناً خلالها على رأس جنودهم.

والمعروف أن الفراغ الأمني والعسكري الذي تتركه قوة ما تعمل قوّة أخرى مجاورة على املائه، كون المجتمعات التي اعتادت العمل العسكري لا يمكنها أن تحافظ على سلامها وهدوئها من دون قوة عسكرية فاعلة.

أما السلاطين والأمراء السلاجقة فقد شغلتهم خلافاتهم وحروبهم الداخلية عن حماية الخلافة العباسية كما سبق ودرجوا عليه منذ قيام سلطنتهم.

٢ - أكثر الخليفة خلال حروبه من استعمال المنجنيقات والعرادات التي كانت تعتبر كالمدفعية في العصور الحديثة. والمعروف أنّ حسن استعمال المدفعية قد يغيّر مجرى المعركة، رغم أنّ سلاحي المشاة والخيالة هما اللذان يعتبران الركنين

---

(١) ابن الجوزي، مرجع سابق، جزء ١٨، ص ١٧٤.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص ٦.

الأساسيين للمناورات التي تهدف إلى حسم القتال.

٣ - خلال معركة بكمزا، ورغم انهزام ميمنة وبعض قلب جيش الخليفة، ساهم اندفاعه على رأس جيشه مع وليّ عهده في رفع معنويات جنوده وفي تحويل الهزيمة إلى انتصار كبير للعرب على التركمان. وهنا نعود للتأكيد مرّة أخرى على ان القائد الذي يعطي المثل الصالح لجنده، يكون قد اقترب من النصر أشواطاً عديدة.

٤ - درج جند بغداد على خوض القتال براً ومن على السفن النهرية التي أحسنوا استغلالها لاجتياز أنهار العراق ونقل الوحدات العسكرية بسرعة من ضفة إلى أخرى حتى عند تدمير الجسور.

فالمعروف ان الجيش يدرّب عناصره عامة على القتال في الوسط الجغرافي الذي يحيط به. فالدول التي تتخلّل مساحتها جبال ووهاد، كلبنان وسويسرا مثلاً، تعتمد في القتال الجبلي على وحدات القناصة التي تتدرّب على العمل في المرتفعات والوديان. أما الدول التي تخترقها مجاري مياه وأنهار ضخمة، كالدول الأوروبية مثلاً، فتقوم بتنفيذ مناورات تدريبية تتخلّلها عمليات اجتياز المجاري المائية تحت ضغط العدو، واقامة رأس جسر على الضفة المقابلة للأنهار وتوسيعه تمهيداً لعبور عظيم القوى إلى الجانب الآخر ومتابعة العمليات الهجومية. أما العمليات الدفاعية لجيوش هذه الدول فتستند في دفاعاتها على مجاري الأنهار الضخمة وتحاول منع عدوّها عن اجتيازها كونها تشكّل عادة حواجز طبيعية تساعد المدافع في تنفيذ مخطّطه الدفاعي.

أما في البلاد الصحراوية فتشكّل السيطرة على مصادر المياه إنجازاً استراتيجياً مهماً، سبق وأوردنا أمثلة على ذلك في موسوعتنا هذه. علاوة على ذلك تعتمد الجيوش الصحراوية في عملياتها الواسعة خاصة على الخيالة والهجانة والاكثار من رمي السهام. ولا يشكّل الاحتفاظ بالمواقع المحتلّة في الصحراء أهمية استراتيجية، فالمهم في هذا النوع من

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٢٤٨ - ٢٤٩.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٦١ - ٢٦٢.

القتال هو التحرّك السريع وأعمال الكرّ والفرّ، والمحافظة على جهوزية الوحدات وسلامتها.

٥ - للمرة الأولى خلال المرحلة التي نعالجها سجّلنا استعمالاً للنفط في العمليات العسكرية التي قادها الخليفة. واستعمال النفط في الرمايات على العدو تكتية معروفة منذ الزمن البعيد. فالنار الاغريقية التي كان يصبّها الفينيقيون واليونان من أسوار المدن على السفن التي تحاصرها كانت تستعمل في غالبية المعارك. وعلى سبيل المثال ساهمت هذه النار في إطالة مدّة حصار الإسكندر المقدوني لقلعة صور البحرية وفي تأخير احتلاله لها وتدميرها.

٦ - أثناء حصار السلطان محمد شاه لبغداد قام أخوه ملكشاه بمهاجمة همذان والاستيلاء عليها وأسر عائلات الأمراء الذين كانوا يقاتلون معه. وهذا ما أدى إلى تأثّر معنويات هؤلاء وتراجع حماسهم للقتال. وقيل أن عمل ملكشاه كان بإيعاز من الخليفة ويهدف إلى تخفيف الضغط عن عاصمة الخلافة، وقد أعطت هذه الخطة نتائج إيجابية.

فهجوم المشاغلة ينفّذه الجيش عادة لتخفيف ضغط عدوّه على إحدى جبهاته. ويهدف إلى إجبار هذا العدو على نقل قواته من الجبهة التي يهاجمها إلى الجبهة التي هُدّدت بعملية المشاغلة المذكورة. ومن الأمثلة الاستراتيجية عن هجوم المشاغلة نذكر قيام الرومان بنقل القتال ضد قرطاجة من الساحة الأيطالية إلى افريقيا من خلال إرسال جيش كبير بقيادة سيبيون الافريقي إلى تونس. وهكذا فقد القائد القرطاجي هنيبعل حريّة عمله ووجد نفسه ملزماً بإنهاء سيطرة جيشه على ايطاليا، وقيادته إلى افريقيا حيث خسر معركة زاما السنة ٢٠٢ق.م.

٧ - خلال حصار بغداد قلّ الطعام داخلها. وكتب ابن الجوزي عن الوضع اللوجستي في المدينة: «وتعذّر على أهل بغداد الشوك والتبن، فبيع الشوك كلّ باقة بحبّة ورأس غنم بسبعة دنانير...».(١)

---

(١) ابن الجوزي، مرجع سابق، جزء ١٨، ص ١١٣.

كتب أحد المفكّرين العسكريين أنه «إذا قالت اللوجستية لا، فعلى القائد تغيير خطة مناورته».

فقد اعتبرت العمليات اللوجستية من الأهمية بمكان في قتال الوحدات الكبرى التي يستند قائدها اللوجستي على أمر العمليات التكتي لتنظيم أمره اللوجستي. والتموين اللوجستي خلال المرحلة التي نعالجها كان يقتصر على الطعام للجند والعلف للدواب والأسلحة والألبسة. ومع تطوّر الفن العسكري ازدادت الحاجات اللوجستية للجيوش التي أصبحت معقّدة جداً ويعالجها ضباط عامون تابعوا دورات «قوامة» في المدارس العسكرية العليا.

والمثال الصارخ على دور اللوجستية في مجرى المعركة نستخلصه من معركة ستالنغرود حين أضحى تموين مجموعة جيوش الماريشال فون باوليس الالمانية متعذّراً، ما اضطرّه إلى الاستسلام مع مئات الألوف من المقاتلين الذين كانوا ما يزالون جاهزين لمتابعة القتال في حال توافر التموين لوحداتهم.

٨ - برز خلال معركة الخليفة ضد قبيلة خفاجة وحلفائها دور للنساء في القتال، إذ أن إماء العرب خرجن إلى ميدان القتال ومعهن الماء حيث قمنَ بتقديمه للجرحى من مقاتليهنّ. وعندما كان أحد مقاتلي العدو يطلب شراباً كنّ يجهزن عليه.

لقد سبق وأوردنا أمثلة عديدة في هذه الموسوعة عن دور النساء العربيات في القتال، إذ أن العرب اعتادوا اصطحاب نسائهم معهم إلى القتال حيث تلعبن دوراً خلاله فتحمّسن المقاتلين وتردّن الهاربين إلى المعركة وتسقين الجرحى. وقد تابعت قبيلة خفاجة حتى العصر العباسي في ممارسة هذا التقليد. فللنساء تأثير معنوي يساهم في تحفيز رجالهنّ للقتال بحيث يبذلون كلّ جهدهم كي لا تقع نساؤهم في الأسر، وذلك من خلال انتصارهم في المعركة.

٩ - قام المملوك المكلّف من قبل صاحب قلعة الماهكي ببيعها للخليفة وقبض ثمنها مالاً وأسلحة وأمتعة. لقد تصرّف المملوك كما يتصرّف المرتزقة من المقاتلين الذين يحاربون من أجل راتب

يتقاضونه ويضعون أنفسهم بتصرّف الجهة التي تدفع لهم المبلغ الأكبر من المال.

فوحدات المرتزقة عُرفت خلال التاريخ العسكري، وكان يقودها نقباء المرتزقة الذين يجنّدون عناصرهم من مختلف الجنسيات ويعرضون خدماتهم المسلّحة على القيادات السياسية والعسكرية حين تكون بحاجة إلى مساعدتهم. وقام هؤلاء أحياناً بتغيير أنظمة سياسية، لاسيما في افريقيا وأميركا الوسطى. وهم لا يجدون حرجاً في ممارستهم لهذه المهنة، رغم أن القادة العسكريين النظاميين يعتبرون أن الخدمة العسكرية رسالة يؤدونها في سبيل الدفاع عن أوطانهم وشعوبهم ومجتمعاتهم، وليست سلعة تباع وتشترى بالمال.[١]

لقد عمدت الامبراطوريات القديمة في التاريخ إلى تجنيد المرتزقة بأعداد كبيرة واستعمالهم في حروبها المتنوّعة، كالامبرطورية الرومانية، وقرطاجة والاغريق وغيرهم. لكن هذه العادة تراجعت مع ظهور المفاهيم الحديثة للخدمة العسكرية وللجيوش المجنّدة من المجتمعات التي تقوم على حمايتها والدفاع عنها. لذلك ترتبط السلطة العسكرية بالسلطة السياسية وتنفذ استراتيجيتها وأوامرها. وعندما تنتفض السلطة العسكرية على السلطة السياسية تتعرّض الدولة لانقلاب عسكري قد لا تعرف نتائجه.

٥ – قتال الاسماعيلية

في ربيع الآخر من السنة تسع وأربعين وخمسمائة للهجرة، اجتمع عدد كبير من الاسماعيلية في قهستان، بلغ عددهم سبعة آلاف رجل بين فارس وراجل، وساروا يريدون خراسان. قصدوا أولاً أعمال خواف وما جاورها، فاستنجد صاحبها فرخشاه بالأمير محمد بن أنز[٢] الذي سار في

(١) للمزيد من التفاصيل عن موضوع الواجب العسكري، يمكن مراجعة كتابنا «المجتمعات العسكرية عبر التاريخ»، مرجع سابق.

(٢) محمد بن أنز من أكبر أمراء خراسان وأشجعهم.

جماعة من الأمراء وجيش من الجند، فاجتمعوا مع فرخشاه وتصدّوا للاسماعيلية فجّرت معركة عنيفة بين الجهتين انتصر خلالها فرخشاه وأنز وانهزم الاسماعيليون الذين كثر القتل بينهم وهلك أعيانهم وسادتهم، وأُسر بعضهم الآخر، ولم يسلم منهم سوى القليل، فخلت قلاعهم وحصونهم من حاميتها.(١)

٦ – عصيان الجزر وشمال افريقيا على ملك صقلية الفرنجي

في السنة ثمانٍ وأربعين وخمسمائة للهجرة توفي رجار الفرنجي صاحب صقلية وملك ولده غليالم الذي كان فاسد التدبير، فخرجت عن حكمه جزر عدّة من المتوسّط ومدن عديدة من افريقيا. وكان أبرز الخارجين عليه عمر الفريابي صاحب سفاقس الذي أمر أصحابه بالسيطرة على سور المدينة ومهاجمة الفرنجة بداخلها، ففعلوا وسيطروا على المدينة في السنة إحدى وخمسين وخمسمائة.(٢)

ثمّ تبعه في الخروج عن طاعة صاحب صقلية يحيى بن مطروح في طرابلس، ومحمد بن رشيد بقابس، وباقي مدن افريقيا ما عدا المهدية وسوسة.(٣)

ثمّ قصدت مجموعات من عرب شمال افريقيا مدينة زويلة فأعانوا أهلها على من فيها من الفرنجة وسيطروا عليها. ثمّ قصدوا مدينة المهدية وحاصروها قاطعين التموين عنها. وبعد أن انضمّ إليهم جند سفاقس وغيرهم من العرب، شدّدوا الحصار على المدينة.(٤)

خرجت حامية المهدية من المدينة وقامت بشن هجوم صاعق على عرب زويلة وسفاقس، فجرى قتال عنيف حول السور

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٩٩.
(٢) المرجع نفسه، ص ٤٠٣.
(٣) ابن الأثير، المرجع نفسه، جزء ٩، ص ٤٠٤.
(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٥٣.

انهزم خلاله العرب وتفرّقوا، وانتصرت حامية المهدية التي قصدت زويلة واحتلّتها وقتلت من وجدت فيها من النساء والأطفال، ونهبت أموالها.(١)

٧ – الحرب بين المسلمين والكرج

في شعبان من السنة سبع وخمسين وخمسمائة للهجرة، جمع الكرج جيشاً من ثلاثين ألف مقاتل ودخلوا بلاد الإسلام وقصدوا مدينة دوين(٢) فملكوها ونهبوها وأحرقوا الجامع والمساجد، وقتلوا حوالى عشرة آلاف من أهلها وساقوا نساءها سبايا.(٣)

فلما بلغ الخبر شمس الدين ايلدكز صاحب أذربيجان والجبل وأصفهان جمع جيشاً كبيراً، عُزّز بجند صاحب مراغة وغيرها، فبلغ عديده ما يزيد على خمسين ألف مقاتل، وقاده إلى بلاد الكرج حيث جرى قتال عنيف بين الفريقين دام أكثر من شهر كان الظفر خلاله للمسلمين، وانهزم الكرج الذين قتل عدد كبير منهم وأُسر عدد آخر، وسبيت النسوة والأولاد.(٤)

نقل ابن الأثير رواية عن الخطة التي استعملها المسلمون لربح المعركة وتطويق جيش الكرج، فكتب:(٥)

«وكان سبب الهزيمة أن بعض الكرج حضر عند ايلدكز فأسلم على يديه، وقال له: «تعطيني عسكراً حتى أسير بهم في طريق أعرفها، وأجيء إلى الكرج من ورائهم وهم لا يشعرون». فاستوثق منه، وسيّر معه عسكراً، وواعده يوماً يصل فيه إلى الكرج. فلمّا كان ذلك اليوم، قاتل المسلمون الكرج. فبينما هم في القتال وصل ذلك الكرجي الذي أسلم ومعه العسكر، وكبّروا وحملوا على الكرج من ورائهم، فانهزموا،

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢٥٦.

(٢) مدينة دوين تقع في أذربيجان.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٦٩.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٤٥٧.

(٥) المرجع نفسه، ص ٤٥٨.

وكثُر القتل فيهم والأسر وغنم المسلمون من أموالهم ما لا يدخل تحت الإحصاء لكثرته. فإنهم كانوا متيقنين الظفر لكثرتهم، فخيّب الله ظنهم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام بلياليها، وعاد المسلمون منصورين قاهرين».

وهكذا، أفاد المسلمون من عنصر المفاجأة فهزموا الكرج رغم تفوّق جيشهم العددي. كما أن تطويق جيش الكرج من قبل المسلمين كان عاملاً أساسياً في تأمين انتصار هؤلاء في المعركة.

ذيل: من نور الدين زنكي إلى صلاح الدين الأيوبي

قبل إنهاء الجزء الخامس عشر من هذه الموسوعة، وقبل إدراج الخلاصة العامة للأجزاء الخمسة عشر الأولى منها، لمسنا ضرورة التمهيد للجزء السادس عشر الذي يعالج موضوع الحروب الصليبية والصراع ضد الفرنجة.

هذا الصراع، الذي شكّل آل زنكي أبطاله في بلاد الشام، انتقل مركز الثقل فيه مع صلاح الدين إلى مصر، في وقت تراجع تأثير آل زنكي في الأحداث العسكرية في الشرق الإسلامي رغم أن نور الدين هو الذي سيّر الحملة إلى مصر وأعطى أوامره بفتحها وإعادتها إلى ظلّ الخلافة العباسية.

ترافق ذلك مع قيام الدولة الأيوبية في مصر وتمدّدها شمالاً إلى بلاد الشام، بعد خوض صلاح الدين معارك قاسية ضد أمراء المدن والقلاع في سوريا توّجت بسيطرته عليها. كما قام صلاح الدين باتخاذ خطوة توحيدية مهمّة من خلال إقامة الخطبة للخلافة العباسية في مصر وإنهاء وجود الخلافة الفاطمية فيها. ومنذ ذلك الحين تسلّم صلاح الدين وخلفاؤه، ومن بعدهم المماليك، مهمة التصدّي للوجود الفرنجي في الشرق الإسلامي وصولاً إلى إخراجهم نهائياً منه.

أ - حملة أسد الدين شيركوه الأولى على مصر:

في السنة تسع وخمسين وخمسمائة للهجرة سيّر نور الدين زنكي جيشاً إلى مصر

بقيادة أسد الدين شيركوه،[1] سبق وأوردنا بعض التفاصيل عن هذه الحملة الأولى إلى مصر.[2]

وبالفعل، تجهّز أسد الدين وسار إلى مصر، فوصل إلى مدينة بلبيس حيث جرى قتال بينه وبين صاحبها ناصر الدين الذي انهزم وفرّ إلى القاهرة. قصد أسد الدين القاهرة فخرج قائدها ضرغام[3] للقائه، حيث جرت معركة عنيفة دامت يومين انتصر فيها أسد الدين وقتل ضرغام وأُعيد شاور وزير الخليفة الفاطمي العاضد إلى وزارته، وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة.

ثمّ انقلب شاور على أسد الدين وأرسل إليه يأمره بالعودة إلى الشام. لكن هذا الأخير رفض وملك مدينة بلبيس وحكم شرقي مصر، الأمر الذي دفع شاور إلى الاستنجاد بالفرنجة الذين كانوا قد خافوا من أن يملك نور الدين، الملك المسلم القوي في الشرق، مصر. لذلك، سارعوا إلى تلبية الدعوة طامعين في الديار المصرية.

ولمّا تجهّز الفرنجة للتوجه إلى مصر بلغ ذلك نور الدين الذي سار بجيشه إلى أطراف بلادهم مهدّداً وهادفاً منعهم عن نقل جيوشهم إلى مصر. لكن ذلك لم يثنهم عن عزمهم، لاسيما أنهم شعروا بخطر سيطرة نور الدين على مصر والشام معاً وتوحيدهما تحت قيادة إسلامية واحدة. وهكذا سار ملك القدس مع مجموعة من الأمراء نحو مصر، بعد أن استعان بجمع من الفرنجة كانوا قد نزلوا على ساحل فلسطين لزيارة بيت القدس.

ولما قارب الفرنجة مصر فارق أسد الدين القاهرة وسار إلى مدينة بلبيس فأقام فيها مع جيشه، فاجتمعت الجيوش المصرية والفرنجية وحاصرت المدينة طيلة أشهر ثلاثة من دون التمكّن من احتلالها، رغم أن

---

(١) كان أسد الدين شيركوه مقدم عسكر نور الدين وأكبر أمراء دولته وأشجعهم.

(٢) انظر مقدّمة الفصل الثالث من هذا الجزء.

(٣) كان ضرغام قد قام بانقلاب ضد شاور وزير الخليفة العاضد.

سورها قصير جداً ولا يحيط بها أي خندق دفاعي.

لقد تمكّن أسد الدين من متابعة القتال رغم وضعه الصعب ورغم محاصرته من قبل جيوش تفوقه عدداً، وذلك بانتظار الأخبار التي أتت سريعاً عن أنّ نور الدين زنكي تمكّن من فتح حارم وهزيمة الفرنجة فيها، كما أنه سار إلى بانياس لمحاصرتها. أمام هذا الواقع رفعت الجيوش الفرنجية الحصار عن بلبيس وغادرت مصر، بعد أن تمّ الاتفاق بين قادتها وأسد الدين على الآتي:

- يغادر أسد الدين مصر إلى بلاد الشام.
- يسلّم ما بيده إلى المصريين.

أما سبب قبول أسد الدين بشروط الفرنجة فيعود إلى عدم معرفته بانتصارات نور الدين في وقت نقصت الأقوات والذخائر لديه.

ب - حملة أسد الدين شيركوه الثانية على مصر:

وفي السنة اثنتين وستين وخمسمائة للهجرة عاد أسد الدين فجهّز جيشاً من ألفي فارس وسار على رأسه، بأمر من نور الدين زنكي، إلى مصر التي بلغها وعبر نهر النيل إلى الجانب الغربي، ونزل الجيزة مقابل القاهرة حيث أقام نيّفاً وخمسين يوماً.

أمام هذا التهديد الجديد عاد شاور واستنجد بالفرنجة الذين سيّروا جيشاً إلى مصر عبر إلى الجانب الغربي من النيل، فيما كان أسد الدين قد انتقل بجيشه إلى الصعيد فبلغ مكاناً يعرف بـ«البابني».

لاحقت الجيوش الفرنجية والمصرية جيش أسد الدين الذي، أمام التفوّق الكبير لجيوش عدوّه وتطبيقاً لمبدأ الحرب الأول أي «نسبية الأهداف للوسائل»، وبعد استشارة أمرائه، مال إلى تطبيق الخطة الآتية:

- عبور النيل إلى الجانب الشرقي.
- مغادرة مصر إلى بلاد الشام.

لكن تدخّل بعض الأمراء الشجعان، لاسيما صلاح الدين ابن أخيه، أقنعه بالعودة إلى المجابهة العسكرية، فاجتمعت كلمة قادة جيشه على القتال. أمام هذا التصميم، أقام أسد الدين في مكانه إلى أن أدركه المصريون والفرنجة وهو على تعبئة تامة كالآتي:

- يقود بنفسه ميمنة جيشه مع مجموعة من أفضل مقاتليه.
- يقود صلاح الدين القلب ويتظاهر بالانهزام أمام الفرنجة، تمهيداً لتدخّل الميمنة، بقيادة أسد الدين، ضدهم.

وبالفعل، حمل الفرنجة على قلب الجيش الإسلامي الذي قاتلهم قتالاً يسيراً، ثمّ انهزم بين أيديهم، فلاحقه الفرنجة مبتعدين عن مكان المعركة. عند ذلك شنّ أسد الدين، مع ميمنة جيشه، هجوماً كاسحاً على من بقي في ساحة القتال من الجيش المعادي فهزمهم وأكثر القتل والأسر فيهم. فلما عادت بقية الجيش التي كانت تطارد صلاح الدين، وجدت الهزيمة أمام عناصرها الذين انهزموا بدورهم.

بعد هذه المعركة الناجحة سار أسد الدين إلى ثغر الاسكندرية فتسلّمه بمساعدة أهله، وسلّم قيادته إلى صلاح الدين، وعاد إلى الصعيد. لكن الفرنجة عادوا ونظّموا صفوفهم مع المصريين في القاهرة معيدين كلّ جيوشهم، وساروا إلى الاسكندرية فحاصروا صلاح الدين فيها مشدّدين الحصار عليه. صمد أهل المدينة رغم قلّة الطعام لديهم، وذلك في انتظار وصول جيش أسد الدين الذي سار من الصعيد إلى الاسكندرية مهدّداً الفرنجة الذين كانوا يحاصرون المدينة.

أسرع الفرنجة إلى عقد الصلح مع أسد الدين باذلين له خمسين ألف دينار، فشرط عليهم أن لا يقيموا بمصر ولا يتملّكوا أي قرية منها، فأجابوه إلى ذلك.

عاد أسد الدين إلى دمشق وعاد الفرنجة إلى الساحل الشامي بعد أن تركوا في مصر جماعة من فرسانهم.

ج - حملة أسد الدين شيركوه الثالثة إلى مصر:

وفي السنة أربع وستين وخمسمائة للهجرة عاد أسد الدين واتجه إلى مصر على رأس جيش إسلامي. أما سبب عودته، فذكره ابن الأثير الذي كتب:[1]

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص ١٢.

«وسبب ذلك، ما ذكرناه من تمكّن الفرنج من البلاد المصرية، وأنهم جعلوا لهم في القاهرة، شحنة، وتسلّموا أبوابها، وجعلوا لهم فيها جماعة من شجعانهم وأعيان فرسانهم، وحكموا على المسلمين حكماً جائراً».

وكان جيش فرنجي قد سار إلى مدينة بلبيس فحاصرها وملكها عنوة ونهبها وقتل أو أسر من فيها. ثمّ سار الفرنجة من بلبيس إلى القاهرة فحاصروها وهدّدوها، الأمر الذي دفع الخليفة الفاطمي العاضد إلى الاستنجاد بنور الدين زنكي لمنع سقوط القاهرة بيد الفرنجة.

نقل ابن كثير أن العاضد «بعث إلى نور الدين بشعور نسائه يقول: «أدركني واستنقذ نسائي من أيدي الفرنج»، وأنه التزم له بثلث خراج مصر على أن يكون أسد الدين مقيماً بها عندهم.[1]

وبالفعل جهّز نور الدين الجيوش لتسييرها إلى مصر. فلما علم الفرنجة بذلك، وخوفاً من سيطرة نور الدين على مصر، وافقوا على عقد الصلح مع الخليفة العاضد مقابل مليون دينار مصري يدفعه لهم.

إنما، ورغم الصلح، سيّر نور الدين جيشاً بلغ مجموعه سبعة آلاف فارس، إلى مصر بقيادة أسد الدين وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والأسلحة وغير ذلك. وسار مع أسد الدين جماعة من الأمراء منهم صلاح الدين الذي ذكر ابن الأثير أنه سار مكرهاً هذه المرّة إلى مصر.[2]

ومع اقراب الجيش الشامي من مصر رحل عنها الفرنجة، فاجتمع أسد الدين بالعاضد لدين الله الذي خلع عليه، وأُجريت على عساكره الجرايات الكثيرة رغم معارضة الوزير شاور الذي أخذ يماطل في دفع ما أجراه العاضد لأسد الدين وخاصة إفراد ثلث خراج البلاد لنور الدين.

عند هذا الحد تآمر صلاح الدين مع الأمير عز الدين جرديك وجمع من الأمراء فقتلوا شاور وأرسلوا رأسه إلى أسد الدين

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٨٠.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص ١٤.

الذي أرسله إلى العاضد بعد أن نهبت داره. ودخل أسد الدين القاهرة ولقب «الملك المنصور أمير الجيوش وولي وزارة الخليفة الفاطمي العاضد».

د - وفاة شيركوه وملك صلاح الدين مصر:

وفي الثاني من جمادى الآخرة من السنة أربع وستين وخمسمائة للهجرة توفي أسد الدين شيركوه، بعد أن ولّي وزارة العاضد مدّة شهرين وخمسة أيام.[1]

بعد وفاة أسد الدين تقدّمت جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا بمصر من الخليفة العاضد طالبين تولية أحدهم الوزارة بعد أسد الدين،[2] لكن العاضد رفض وأحضر صلاح الدين وخلع عليه وولاه الوزارة بعد عمه.

وعن سبب توليته، كتب ابن كثير:[3]

«فلما توفي أسد الدين، أشار الأمراء الشاميون على العاضد بتولية صلاح الدين يوسف الوزارة بعد عمه، فولاه العاضد الوزارة وخلع عليه خلعة سنية ولقّبه الملك الناصر».

أما ابن الأثير فنقل عن سبب توليته الآتي:[4]

«وكان الذي حمله على ذلك، أن أصحابه قالوا له: ليس في الجماعة أضعف ولا أصغر سناً من يوسف، والرأي أن يولّى، فإنه لا يخرج من تحت حكمنا».

(١) كان أسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب ابنا شادي من بلودين في أذربيجان، وأصلهما من الأكراد الزوادية، وقبيلهما من أشرف الأكراد. قدما بغداد وخدما مجاهد الدين بهروز شحنتها الذي جعل نجم الدين مستحفظاً لقلعة تكريت، فسار إليها مع أخيه أسد الدين. ولما هُزم الاتابك عماد الدين زنكي أمام قراجا الساقي كما سبق الحديث سنة ٥٢٦هـ، قدم إلى تكريت فخدمه نجم الدين وأسد الدين وأصبحا من أتباعه، فأقطعهما إقطاعات منها قلعة بعلبك. وبعد مقتل عماد الدين اتصل أسد الدين بنور الدين زنكي الذي قرّبه وجعله مقدم عسكره بعد أن لاحظ شجاعته وإقدامه. ولما أراد نور الدين تسيير جيش إلى مصر اختار أسد الدين شيركوه لقيادته.

(٢) من هؤلاء الأمراء: عين الدولة الباروقي وقطب الدين ينال وسيف الدين المشطوب الهكاري وشهاب الدين محمد الحارمي (خال صلاح الدين).

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٨١.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص ١٧.

كما نقل أيضاً أن أمراء جيش أسد الدين رفضوا خدمة صلاح الدين وعادوا إلى نور الدين بالشام.

أما ابن كثير، فكتب عن صفة صلاح الدين كنائب للملك نور الدين ما يأتي:[1] «وأقام الملك صلاح الدين بمصر بصفة نائب للملك نور الدين يخطب له على المنابر بالديار المصرية... وارتفع قدر صلاح الدين بين العباد بتلك البلاد، وزاد في إقطاعات الذين معه فأحبوه واحترموه وخدموه».

وبالفعل، تمكّن صلاح الدين من استمالة قلوب الناس في مصر، ثمّ طلب من نور الدين أن يرسل له إخوته وأهله، ففعل وشرط عليه طاعته والقيام بأمره ومساعدته، ففعل ذلك.

هـ - إقامة الخطبة للخلافة العباسية في مصر وانقراض الدولة الفاطمية:

ثبّت صلاح الدين حكمه في مصر وأزال المخالفين له منها، وضعف أمر الخليفة العاضد، وتحكّم صلاح الدين بقصره.

وفي السنة سبع وستين وخمسمائة كتب نور الدين زنكي إلى صلاح الدين يأمره بقطع الخطبة للعاضد الفاطمي، وإقامة الخطبة للخليفة العباسي المستضيء بالله، فامتنع صلاح الدين خوفاً من قيام ثورة في مصر ضد حكمه نظراً لميل الشعب إلى الفاطميين الشيعة. كما ان صلاح الدين لم يكن يرغب في ازدياد قوّة نور الدين خوفاً من أن يقصد مصر وينتزعها منه. لذلك كان يرغب في إبقاء الخطبة للعاضد ليكون مسيطراً بنفسه عليه وعلى أركانه. لكن نور الدين أصرّ وأرغمه على ذلك كونه نائبه في مصر.

واتفق أن العاضد مرض مرضاً شديداً ألزمه فراشه فأمر صلاح الدين بقطع الخطبة له في أول جمعة من المحرّم السنة سبع وستين وخمسمائة، وبالدعوة للخليفة العباسي. ثمّ توفي العاضد في يوم عاشوراء من السنة نفسها، من دون أن يعلم بقطع

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٢٨١.

الخطبة له، فجلس صلاح الدين للعزاء بعد أن استولى على قصر الخلافة وعلى كلّ ما فيه.[1]

وهكذا انتهى فصل طويل من فصول التفتّت الإسلامي وتعدّد الدول والخلفاء في الدولة الإسلامية. ففيما كان العالم الإسلامي، قبل صلاح الدين، تتنازعه الخلافة الأموية في الأندلس والخلافة العباسية في بغداد والخلافة الفاطمية في مصر، توحّد هذا العالم في الشرق في ظل خلافة واحدة، هي الخلافة العباسية.

وفي شوال من السنة تسع وستين وخمسمائة للهجرة، توفي الملك نور الدين زنكي فبويع بالملك بعده لولده الصالح إسماعيل الذي كان صغير السن، فتولى رعايته أتابكه الأمير شمس الدين بن مقدم. لكن الأعداء طمعوا من كلّ جانب بالمسلمين، وقرّر الفرنجة مهاجمة دمشق واحتلالها، وخُلق فراغ عسكري كبير في العالم الإسلامي الشرقي ملأه صلاح الدين بجدارة وعنفوان.

وفي السنة نفسها قام أمراء الملك الصالح بنقله إلى حلب وتسلّم الاتابك شمس الدين دمشق. لكن صلاح الدين قرّر ضم بلاد الشام إلى مصر وتوحيد الدولة الإسلامية في الشرق، فخطّط ونفّذ عمليات عسكرية ناجحة أدّت إلى تملّكه دمشق وحمص وحماه وقلعتي حمص وبعلبك السنة ٥٧٠هـ، وحلب وشمال سوريا السنة ٥٧٩هـ.

وفي السنة ٥٧٢هـ قصد بلاد الإسماعيلية فنهبها وخرّبها وأحرقها، وذلك قبل أن يتجه بعملياته إلى الصراع ضد الفرنجة فيتوَّج بذلك بطل هذا الصراع.

ولن نتوسّع أكثر من ذلك في الموضوع هذا، وفي العمليات العسكرية للدولتين الأيوبية والمملوكية في مصر، كون هذه العمليات ستشكّل المحور الرئيس للجزء السادس عشر من هذه الموسوعة.

---

(١) كان من نسب العاضد عشر خلفاء فاطميون هم:

الحافظ، المستنصر، الظاهر، الحاكم، العزيز، المعزّ، المنصور، القائم، المهدي والعاضد. أما الذين خطب لهم بالخلافة وليسوا من ذريته فهم أربعة:

المستعلي، الآمر، الظافر والغائز. - منهم في المغرب: المهدي والقائم والمنصور والمعزّ والباقون في مصر. وقد دام حكمهم من سنة ٢٩٩هـ إلى سنة ٥٦٧هـ.

خلاصة عامة

خلاصة عامة للأجزاء الخمسة عشر الأولى من الموسوعة

تشكّل الأجزاء الخمسة عشر الأولى من هذه الموسوعة وحدة متكاملة تعالج حقبة من التاريخ العربي الإسلامي تمتدّ منذ ما قبل الإسلام، مروراً بدعوة النبي العربي ﷺ والخلافة الراشدية والدولتين الأموية والعباسية وصولاً إلى بداية الصراع الإسلامي ضد الفرنجة في الشرق. لذلك، وقبل الانتقال إلى موضوع الصراع ضد الفرنجة، رأينا وجوب إدراج خلاصة عامة للأجزاء المذكورة.

جاء الإسلام وقبائل العرب يغزو بعضها بعضاً، فيما تزعّمتها مكة وقريش بالتحديد خلال مرحلة ما قبيل الدعوة النبوية الشريفة. وأتيح لمكة ولقريش الثراء والرفاه لقرب المدينة المقدّسة من ميناء جدة على البحر الأحمر، ولكونها محطة التجارة بين شمال شبه الجزيرة العربية وجنوبها. وكانت قريش سيّدة مكة، ولها الحجابة والسّدانة والرفادة، ثمّ تأكّدت زعامتها على العرب أجمعين بعد ظهور النبي محمد ﷺ فيها ونزول القرآن بلهجتها.

أولاً – العرب قبل الإسلام

وقبيل الإسلام لعب الصراع القبلي دوراً بارزاً في حياة العرب وأثّر في مجرى أمورهم وفي تحديد مواقفهم حيال كثير من القضايا السياسية المصيرية. فالعرب قبل الإسلام، كانت تسود حياتهم العصبية القبلية والاعتزاز بالانتماء إلى القبيلة والعشيرة والعائلة، إذ أن أفراد القبيلة متضامنون في

السرّاء والضرّاء، رغم قيام دول في بلاد العرب كدول الغساسنة والمناذرة ومعين وسبأ وحِمير وكندة. ومن مظاهر العصبية رفض البدوي الخضوع لقبيلة أخرى أو لسيد غريب عن قبيلته. وكانت الحروب تنشب عادة بسبب اعتداءات قبيلة على أخرى، وهذا ما فصّلناه في الجزء الأول من موسوعتنا تحت عنوان «أيام العرب».

قسّم المؤرّخون تاريخ العرب قبل الإسلام إلى قسمين كبيرين، هما تاريخ العرب البائدة أو عرب الشمال في الطور الأول، والعرب الباقية الذين مرّ تاريخهم بمرحلتين، الأولى سيطرت خلالها القحطانية أو دول الجنوب، والثانية العدنانية أو عرب الشمال. وكانت هذه المرحلة الأخيرة مرحلة انتقالية قبل ظهور الإسلام وتوحيد العرب.

خاضت دول العرب في الجاهلية معارك عدّة بين بعضها البعض وضد الخارج. وأبرز حروبها تلك التي خاضتها زنوبيا ملكة تدمر ضد الرومان والتي انتهت باحتلالهم مدينتها بعد أن تركها حلفاؤها وحيدة في ساح القتال ضد الامبراطورية الرومانية.

وفي اليمن ظهرت حضارة عريقة من القحطانية وأُنشأت السدود على الأنهار ومُورست الزراعة والتجارة على أوسع نطاق. كما خاض ملوك اليمن من سبأ وحِمير ومعين معارك عديدة برز خلالها قادة أظهروا عبقرية في القتال كسيف بن ذي يزن وأبرهة أبويكسوم وتُبّع ومعد يكرب وغيرهم. ولما كان ملوك حمير قد خاضوا معارك عنيفة في بلاد اليمن، فقد فصّلناها مشدّدين على تاريخ اليمن السياسي والعسكري.

وبعد سيطرة ملك الحبشة على اليمن وتنصيبه أبرهة الاشرم ملكاً عليها، بنى هذا الأخير كنيسة فيها وشنّ حملة عسكرية على الحجاز بهدف احتلال مكّة وتدمير الكعبة ذكرنا تفاصيلها لما لها من أهمية على ما تلاها من أحداث في مكّة المكرّمة. لاسيما أن حملة أبرهة عليها فشلت بسبب تدخّل الآلهة التي أرسلت طيور الأبابيل التي راحت ترمي الحجارة على جيش اليمن، الأمر الذي ردّ هذا الجيش عن الكعبة خائباً، وكان ذلك في عام الفيل أي السنة ٥٧٠م. التي ولد فيها سيّد العرب النبي محمد ﷺ.

ثانياً – العصبية القبلية

عالجنا في الجزء الأول من الموسوعة موضوع «أيام العرب» أي الوقائع والمعارك التي جرت بين القبائل العربية الشمالية في الطور الثاني من تاريخها سعياً إلى السيطرة على الواحات وإثبات الوجود، أو الأخذ بالثأر والانتقام من قبيلة أخرى، أو الدفاع عن قوافل القبيلة أو مراكز رعي الماشية...الخ.

هذه الوقائع لم تحصل لنصرة مبادىء أو عقائد، إنما بسبب العصبية القبلية التي كانت متأجّجة في الحقبة التي سبقت ظهور الإسلام في شمال شبه الجزيرة العربية.

وتمثّلت العصبية القبلية خاصة في حركة الردّة، إذ أن بعض القبائل العربية رفضت الانصياع لقيادة قريش، فمنعت الزكاة. لكن موقف الخليفة أبي بكر الحاسم من أهل الردّة جعل القبائل تتخلّى عن عصبيتها وتسلّم زمام أمرها لقريش التي تأكّدت قيادتها، ليس فقط على قبائل العرب في شبه الجزيرة العربية إنما خارجها أيضاً، لتشمل البلاد التي وجّهت إليها حركة الفتوحات الكبرى.

والعصبية العائلية دخلت أيضاً إلى داخل قريش، إذ حصل صراع بين آل هاشم وبني أمية أدى إلى الفتنة الكبرى في الإسلام حين تواجه العرب المسلمون بعضهم ضد البعض في أول حرب أهلية داخل الصف الواحد. تجسّد الصراع في الحرب بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، وانتهى باغتيال الأول وانتقال الخلافة من آل هاشم إلى بني أمية الذين أقاموا الدولة الأموية في بلاد الشام.

ومن آثار العصبية القبلية أيضاً ما وقع من أحداث في صدر الإسلام أدّت إلى نشأة الخوارج وقيام الثورات المتعدّدة ضد الحكم الأموي. وأول موقف خطير ظاهر تمثّلت فيه العصبية القبلية وساهم في تعزيز دور الخوارج كان حين اعترض الأشعث بن قيس الكندي على ترشيح عبدالله بن عباس لتمثيل الإمام علي في عملية التحكيم الشهيرة في دومة الجندل، إذ قال الأشعث يومذاك: «لا والله لا يحكم فيها مضريان حتى تقوم الساعة».

وما يظهر تأثّر الخوارج بالعصبية القبلية الموجّهة ضد قريش، عدم وجود أي قريشي في صفوفهم لحقبة طويلة من تاريخ حروبهم ضد الدولة الإسلامية.

ومن خسائر المسلمين الفادحة المتأتية من العصبية أحداث حروب الردّة. فبعد وفاة الرسول ﷺ ارتدّ كثير من القبائل العربية عن الإسلام وادّعى كثيرون النبوة، الأمر الذي أخّر الفتوحات الكبرى سنة كاملة أمضاها الخليفة الراشدي الأول أبو بكر الصديق في إعادة إخضاع القبائل المرتدّة وتوحيد صفوف المسلمين قبل الانطلاق في هذه الفتوحات الخارجية.

وخلال حروب الردة هذه برز قادة عرب سبق وتدرّبوا على أيدي الرسول ﷺ خلال مرحلة تثبيته للدين الجديد في مهده بين المدينة المنوّرة ومكّة المكرّمة. وأشهرهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجرّاح وشرحبيل ابن حسنة وسعد بن أبي وقّاص ويزيد بن أبي سفيان.

ثالثاً – ظهور الإسلام

أُنزل الدين الجديد من السماء فخاطب النبي ﷺ الناس عامة بلسان واحد دون أن يقدّم قبيلة على أخرى. فميزان التفاضل عند الله ليس بعراقة النسب، إنما بالإيمان والتقوى. كما حمل النبي ﷺ على دعوى الجاهلية، ولم يرَ فضلاً لعربي على أعجمي ولا لقريشي على تميمي إلاّ بالعمل الصالح. لذلك عملت عقيدة الإسلام على نقل ولاء العربي من دائرة قبيلته الضيّقة إلى دائرة الأمة الإسلامية التي اعتُبر النبي ﷺ سيّدها، والقرآن الكريم سنّتها وقانونها.

واستطاع الرسول ﷺ خلال سنين نبوّته القليلة أن يوحّد القبائل المتنافرة ويشدّها إلى بعضها ويحوّل تفاخرها بأيامها إلى التفاخر بالإيمان بالدين الجديد وبالجهاد في سبيل الدفاع عنه ونشره. لقد جمع الإسلام العرب تحت راية واحدة وجعلهم يحاربون أعداء دينهم تحت راية النبي ﷺ وخلفائه، من دون أن يعني ذلك أن العصبية القبلية قد زالت نهائياً من نفوس العرب. فقد لاحظنا خلال عرضنا معارك العرب في

الأجزاء الخمسة عشر الأولى من هذه الموسوعة أن الصراع القبلي كان حاضراً خلال تاريخ الدولتين الأموية والعباسية، وخاصة في تاريخ الدولة الأندلسية، وكان دائماً وبالاً على المسلمين وسبباً لحروب ووقائع عديدة سبق الحديث عنها.

وفي المدينة المنوّرة أمّن الرسول ﷺ للأمة الجديدة استقراراً سياسياً واجتماعياً مكّنه من الانصراف إلى تنظيم شؤونها بحيث أصبحت المدينة تضمّ أربع فئات هي: المهاجرون، والأنصار، والعرب الأوس والخزرج، واليهود.

وفي المدينة انتقل الرسول ﷺ بالمسلمين إلى مفهوم الأمة منظّماً العلاقة بين هذه الفئات الأربع، فيما اختلف وضعه في المدينة عمّا كان عليه في مكة. فبينما كان في هذه الأخيرة مضطهداً من قبل زعماء قريش، أصبح في المدينة رجل الدولة الجديد وسيّد الأمّة الإسلامية والحَكَم في النزاعات بين أتباعه.

الانجازات العسكرية:

على الصعيد العسكري خاض المسلمون بقيادة النبي ﷺ صراعاً طويلاً سعياً إلى نشر الدين الجديد. فبعد أن نظّم الأمة الجديدة أصبح جاهزاً لمتابعة رسالته خارج المدينة، فرأى أنّ عليه البدء بمكة حيث أهله وعشيرته كما أوصاه الله بأن يبدأ بعشيرته الأقربين.

وهكذا بدأ الرسول ﷺ بشنّ غزوات على قوافل قريش التجارية، وانتهى بفتح المدن والأمصار والممالك، ونجح في كلّ ما خطّط له. لقد شنّ غزوات عديدة ذكرت في الجزء الثاني من الموسوعة بلغت ستاً وعشرين غزوة ومعركة، أهمها تلك التي حصلت فيها معارك كبرى، أي بدر الكبرى وبدر الثانية وأُحد والخندق.

ومن إنجازات النبي ﷺ العسكرية خلال السنين العشر التي أمضاها في المدينة نذكر:

- وقف تجارة قريش مع جنوب شبه الجزيرة العربية.
- إخراج القبائل اليهودية المعادية من المدينة.
- الصمود في وجه هجمات قريش بجيوش كبيرة على المدينة.

- فتح مناطق عديدة، منها دومة الجندل وخيبر وفدك وتيماء.
- فتح مكّة المكرّمة وتحطيم أصنام العرب.
- ضمّ قريش إلى أتباع الدين الجديد.

بعد فتح مكة وإصدار الأحكام الرسولية فيها، تابع النبي ﷺ رسالة نشر الدين الجديد فسيّر الغزوات ضد القبائل العربية التي ما زالت على وثنيتها، من هوازن إلى طيء وجذيمة وثقيف. وحاصر الطائف وهدم اللات والعزّى، وصالح القبائل التي اعتنقت الدين الإسلامي فجاءت الوفود العربية من مختلف القبائل إلى المدينة معلنة خضوعها للدولة الإسلامية الجديدة.

وفي السنة العاشرة للهجرة أرسل حملات إلى المناطق العاصية، لا سيما أنّ بعض رؤساء العرب أعلنوا ردّتهم عن الإسلام، فحاربهم الرسول ﷺ. وأرسل خالد بن الوليد إلى نجران وعلي بن أبي طالب إلى اليمن، وذلك قبل أن يمرض فيُصدر حجة الوداع ويتوفّى من دون إعلان خليفة له لقيادة المسلمين.

رابعاً – حروب الردة

تلا ذلك صراع على السلطة بين فئات ثلاث:
- أهل النبي ﷺ وأقرباؤه بقيادة علي بن أبي طالب.
- بعض الصحابة برئاسة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب.
- الأنصار.

واجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة وقرّروا انتخاب سعد بن عبّادة خليفة، لكن تصميم عمر بن الخطاب ومفاجأته المجتمعين أمّنا انتقال الخلافة إلى الخليفة الراشدي الأول أبي بكر الصديق من دون قتال بين المسلمين.

لكن العالم الإسلامي الناشيء تعرّض مع بداية خلافة أبي بكر إلى زلزال كبير، تمثل بحركة ردّة القبائل العربية عن الإسلام لأسباب شتى، منها:
- ظهور أنبياء كذبة.
- رغبة بعض القبائل في العودة إلى حياة الجاهلية وفرض النفوذ في مناطقها.
- رفض بعضها الآخر تأدية الزكاة.

ورغم شمول حركة الردة مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية، فإن تصميم الخليفة أبي بكر على قمعها رغم نصائح معاونيه بالتريّث، ووجود جهاز عسكري ضخم بتصرّفه تدرّب قادته على أيدي النبي ﷺ طيلة سنين عشر، ساهما في قمع كلّ المرتدين وإعادتهم إلى حضن الطاعة. لقد أرسل أبو بكر أربعة عشر قائداً، اعتبروا من أبطال الإسلام، تمكّنوا خلال سنة واحدة من إعادة توحيد شبه الجزيرة العربية تحت قيادة الدولة الإسلامية الناشئة، تمهيداً للبدء بالفتوحات الكبرى التي لم تتأخر طويلاً.

خامساً – الفتوحات الكبرى

وفي أواخر السنة الثانية عشرة للهجرة فرغ أبو بكر من محاربة المرتدّين وانطلق بالقوات الإسلامية لنشر الدين الجديد خارج شبه الجزيرة العربية بعد أن بدأت صورة الجيش العربي الإسلامي وصورة قادته تتضح، في حركة دعيت بـ«الفتوحات الكبرى» ونفّذت في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر بن الخطاب بدءاً بجبهتين:

- الأولى: جبهة بلاد الشام، حيث اصطدمت الجيوش العربية بجيوش الامبراطورية البيزنطية حاسمة الصراع معها في بلاد الشام في معركة شهيرة هي معركة اليرموك، كان بطلها القائد العربي خالد بن الوليد. وشارك فيها القادة أبو عبيدة بن الجرّاح وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان.
- الثانية: جبهة العراق حيث اصطدمت الجيوش العربية المظفّرة بجيوش الدولة الساسانية فحسمت الصراع معها في معركة القادسية، التي كان بطلها القائد العربي سعد بن أبي وقّاص.

وتساءل المؤرّخون عن كيفية استطاعة الجموع العربية الخارجة من الصحراء، والتي لا تتقن سوى مبادىء بدائية في القتال، ولا تملك سوى أسلحة خفيفة، قهر الجيوش النظامية لأكبر امبراطوريّتين في الشرق الأدنى.

وقد أجبنا على هذا التساؤل في الجزء الثالث من هذه الموسوعة.

وعلى الجبهة العراقية، تمكّنت الجيوش العربية وفي إطار حركة الفتوحات الكبرى،

من الانتصار في معارك ذات السلاسل والثني والولجة وأُليس، قبل أن تفتح الحيرة حاضرة المناذرة، ثمّ الأنبار، وتنتصر في وقعات عين التمر ودومة الجندل والحُصيد ومُصيح والفراض. وكلّها وقعات تمهيدية للمعركة الحاسمة ضد الفرس في القادسية.

أ - جبهة بلاد الشام:

بعد معركة الفراض توقّفت العمليات الكبرى مؤقتاً على جبهة بلاد ما بين النهرين، لتنتقل مع خالد بن الوليد إلى بلاد الشام التي كانت قد وُجّهت إليها الجيوش العربية لفتحها، وهناك اصطدمت بمقاومة الامبراطورية البيزنطية القوية. وهكذا قرّر الخليفة أبو بكر نقل الجبهة الرئيسية في جهاد المسلمين إلى الشام لحسم القتال مع الروم قبل متابعة العمليات في العراق. وكلّف خالد بن الوليد بالانتقال فوراً إلى سوريا لتسلّم قيادة كلّ الجيوش الإسلامية وقيادة الصراع ضد الامبراطورية البيزنطية فيها. انتقل خالد إلى الشام مجتازاً الصحراء بينها وبين العراق في مدّة قصيرة اعتبر عمله خلالها إنجازاً عسكرياً خارقاً.

وفي طريقة إلى الشام فتح خالد على التوالي تدمر وحوارين وبصرى، وظهر في منطقة حوران قبل أن يجتمع بباقي الفرق الإسلامية وينتصر في معركة أجنادين على جيش بيزنطي يفوق عدد جيشه بأضعاف. وكانت هذه المعركة تمهيدية للمعركة الكبرى التي ستغيّر مجرى تاريخ بلاد الشام في اليرموك.

ففي اليرموك انتصرت الجيوش العربية المجتمعة، وقوامها ٢٤ ألف مقاتل، على جيوش الروم بقيادة تيودور شقيق الامبراطور هرقل والتي فاق عددها جيوش المسلمين بأضعاف. وتجلّت في هذه المعركة عبقرية القائد خالد بن الوليد بأحلى معانيها إذ كانت اليرموك معركة إفناء شبيهة بمعركتي كان واوسترليتز، وأنهت الوجود البيزنطي في سوريا.

ب - الجبهة العراقية:

بعد اليرموك تابعت الجيوش العربية فتح دمشق وشمال وشرق بلاد الشام، وثبّتت أقدام المسلمين فيها قبل ان يُنقل الجهد الرئيسي في قتال المسلمين إلى الجبهة

العراقية التي تتالت فيها المعارك ضد مملكة فارس، من النمارق إلى السقاطية وباروسما والجسر وأليس والبويب، وصولاً إلى المعركة الفاصلة الثانية التي زلزلت دعائم المملكة الساسانية تمهيداً لسقوطها النهائي، وهي معركة القادسية حيث سطع نجم القائد العربي الكبير سعد بن أبي وقاص.

لقد جنّد المسلمون للقادسية جيشاً ضخماً عُزّز بوحدات استقدمت من جبهة الشام ومن الحجاز. لذلك اعتبرت القادسية من أبرز معارك الفتوحات الكبرى التي خاضتها الجيوش الإسلامية، وجاءت نتيجتها مهمّة بالنسبة إلى الدولة العربية الناشئة، إذ أنها ثبّتت أقدام المسلمين في العراق بعد أن سبق وثبّتتها في بلاد الشام، تمهيداً لمتابعة الفتوحات في الشرق الأدنى شمالاً وشرقاً وجنوباً.

وبالفعل، وبعد القادسية، اندفعت الجيوش العربية الإسلامية على جبهة العراق وفارس، فافتتحت المدن والحصون وهزمت الجيوش الفارسية، الواحد تلو الأخر، وصادرت من بلاد فارس كنوزاً وأموالاً وغنائم كثيرة جداً كان الأكاسرة قد دأبوا على جمعها من الشعوب التابعة لهم منذ مئات السنين.

فبعد القادسية قرّر العاهل الفارسي خوض معركة فاصلة مع العرب خلافاً لرأي قائد جيشه رستم. لكن المعارك التي جرت بين جيشه والجيوش الإسلامية فتحت طريق هذه الجيوش إلى المدائن عاصمة ملكه فملكتها السنة ١٦هـ. بعد أن فرّ منها الملك يزدجرد مع أهله وقسم من كنوزه وأمواله إلى حلوان فالنهروان.

وبعد سقوط المدائن تابعت الفتوحات في شمال العراق وصولاً إلى السيطرة على بلاد ما بين النهرين كلها وغزو بلاد فارس من الأهواز إلى السوس وجند يسابور ونهاوند وهمذان وأصبهان وقزوين وزنجان والريّ وطبرستان وأذربيجان والباب وخراسان ونيسابور ومرو وبلخ، وصولاً إلى حدود بلاد الترك والصغد والصين، قبل أن يستشهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وتنتقل الخلافة إلى الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه). وفي عهد الخليفة عثمان جرى تثبيت الوجود العربي

الإسلامي في العراق وفارس رغم الانتفاضات الكثيرة التي قام بها الفرس والتي أُخضعت جميعها ضمن استراتيجيات التعامل مع الشعوب المغلوبة.

أخيراً قتل الملك يزدجرد وصادرت الجيوش العربية الأموال والكنوز من خزائنه والتي كان يحتفظ بها في مرو، وزالت دولة الفرس نهائياً من الوجود فانتقلت شعوبها إلى ظلّ الخلافة الإسلامية واعتنقت الدين الإسلامي وقامت لاحقاً بلعب دور مهم في تاريخ الدولة العباسية.

وفي عهد الخليفة عثمان (رضي الله عنه) أيضاً قامت الجيوش العربية الإسلامية المظفّرة بفتوحات ناجحة في بلاد السند والهند وصولاً إلى كشمير والملتان وكابل.

ج - إكمال فتوح بلاد الشام:

بعد أن نجح العرب في فتح العراق وفارس وما جاورهما شمالاً وشرقاً، وجّهت الجيوش الإسلامية مجدداً إلى بلاد الشام لإكمال فتحها. فمعركة اليرموك التي هزّت دعائم الامبراطورية البيزنطية، ورغم أنها عُدّت من المعارك الفاصلة في التاريخ العسكري الإسلامي، فانها لم تنهِ وجود هذه الامبراطورية، إذ بقي لدى الامبراطور هرقل حاميات موزّعة في مختلف أنحاء بلاد الشام. هذا رغم أن الجيوش الإسلامية المنتصرة كانت قد تابعت زحفها شمالاً حتى جبال طوروس حيث فرّ هرقل أمامها مردّداً:

«وداعاً يا سوريا، وداعاً لا لقاء بعده».

وهكذا أكملت الجيوش العربية فتح بلاد الشام فجرت معركة مهمة بينها وبين الروم في «مرج الصفر»، وفتحت مناطق شمال سوريا من بعلبك إلى حمص وقنسرين وحلب وإنطاكية وقيسارية والجزيرة. وكان فتح تلك البلاد بغالبيته «يسيراً» وفق البلاذري، إذ أنّ أهالي بلاد الشام من النصارى كانت تفرّقهم مع الامبراطورية البيزنطية خلافات مذهبية وعقائدية، فانحاز قسم كبير من حاميات مدنهم إلى جانب العرب الفاتحين.

ونظّم الفاتحون المنطقة في أجناد خمسة هي: جند فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين، قبل التوجّه جنوباً لفتح

بيت المقدس التي رفض أهلها تسليمها إلاّ للخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، الذي توجّه إليها ففتحت المدينة صلحاً وأحسن العرب معاملة سكانها.

د - فتح مصر وليبيا:

بعد إتمام فتح بلاد الشام سيّر الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) القائد عمرو بن العاص إلى مصر لفتحها، فبدأ الفتوحات في بابليون فالاسكندرية. وخلال العمليات التي أدّت إلى فتح مصر، سُجّل انحياز أقباطها، وعلى رأسهم المقوقس، إلى جانب الفاتحين العرب، الأمر الذي ساعد على انتصارهم على جيوش الروم وإخراجها من البلاد. لكن بيزنطية لم تسلّم بسقوط إقليم مصر، بل عادت وسيّرت حملات بحرية تمكّنت من استعادة الاسكندرية وغيرها من المناطق، لاسيما أن السيطرة البحرية البيزنطية كانت كاملة على البحر الأبيض المتوسّط.

بعد ذلك، ورغم تردّد الخليفة عمر (رضي الله عنه) الذي رفض أن يفصله ماء عن الجيوش الإسلامية الغازية، تابعت الفتوحات في شمال إفريقيا غرباً، ففُتحت برقة والفيّوم وطرابلس وقرطاجة وقبرص. لكن هذه الجيوش لم تستطع السيطرة النهائية على مصر وليبيا إلاّ بعد انتصار الأسطول العربي على الأسطول البيزنطي في معركة ذات الصواري التي كانت أول معركة بحرية كبرى تخوضها الجيوش العربية. هذا الانتصار البحري أمّن للجيش العربي، ليس فقط السيطرة على مصر وليبيا، إنما متابعة الفتوحات غرباً وفتح جزر عديدة في البحر المتوسّط.

سادساً – الفتنة الكبرى في الإسلام

توقّف الدفع العملاني والعسكري الإسلامي إلى حين بسبب مصيبة كبرى ألمّت بالعالم الإسلامي يومذاك، تمثّلت بمقتل الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان (رضي الله عنه) ومبايعة الإمام علي ابن أبي طالب (رضي الله عنه) بالخلافة، وعصيان والي الشام معاوية بن أبي سفيان وقيام ما دعي بـ«الفتنة الكبرى» في العالم الإسلامي.

اضطر الخليفة علي (رضي الله عنه) إلى خوض صراع عسكري طويل على جبهات ثلاث:

١ - جبهة الحجاز حيث انتصر في معركة الجمل ضد عائشة أم المؤمنين والزبير وطلحة.

٢ - جبهة الشام ضد واليها معاوية بن أبي سفيان، فوقعت معركة صفين التي تواجهت فيها جيوش العراق بقيادة الإمام علي مع جيش الشام بقيادة معاوية. ورغم ميل كفّة النصر إلى جانب الإمام علي، فإن خدعة رفع المصاحف والتحكيم أدّتا إلى متابعة الصراع بين الجانبين.

٣ - جبهة الخوارج الذين رفضوا التحكيم رغم أنهم دفعوا الإمام علي إلى القبول به. وقد اضطر هذا الأخير إلى مجابهتهم في حروب طويلة أُوقعت بهم خلالها هزائم متتالية، لكنها لم تنهِ وجودهم وثوراتهم التي تتابعت في العصرين الأموي والعباسي.

هذا الصراع العسكري الطويل الذي انتصر جيش الإمام علي في غالبية معاركه، انتهى باستشهاده على يد الخوارج وانتقال الخلافة من الحجاز إلى الشام، ومن الفرع الهاشمي في قريش إلى الفرع السفياني الممثل بالخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان.

سابعاً – المغرب والأندلس

بعد تثبيت الدولة الأموية في بلاد الشام وتمدّدها، من حدود الهند وباكستان شرقاً إلى مصر غرباً وآسيا الصغرى شمالاً، تطلّع الخلفاء إلى شمال إفريقيا حيث كانت تقطن قبائل بدوية وحضرية أطلق عليها العرب تسمية «البربر».

فبعد تعثّر مشروع فتح القسطنطينية من الشرق، سارت الجيوش الإسلامية غرباً، انطلاقاً من مصر، فخاضت معارك عنيفة في شمال إفريقيا وتوصّلت في نهايتها إلى فتح كامل المغرب وموريتانيا وصولاً إلى المحيط الأطلسي. وانطلاقاً من المغرب الأقصى شخصت أنظار القادة المسلمين شمالاً نحو إسبانيا، فاجتاز جيش لهم بقيادة طارق بن زياد مضيق أعمدة هرقل وسيطر

على رأس جسرٍ في جنوب اسبانيا، فتمكّن المسلمون من متابعة فتح تلك البلاد وصولاً إلى جبال البيرينه شمالاً.

نقلنا في الجزء السابع من هذه الموسوعة أن بعض المؤرّخين يرون ان فكرة فتح المدن الأوروبية في الغرب وتشكيل أحد فكّي كماشة عسكرية ضخمة لمحاصرة القسطنطينية من الغرب فيما الجيوش الأموية تحاصرها من الشرق مشكّلة فك الكماشة الآخر، قد راودت أفكار القادة العرب المسلمين. وهذا ما دفعهم إلى اجتياز جبال البيرينه شمالاً واجتياح جنوب فرنسا وصولاً إلى مدينة بواتييه حيث وقعت معركة كبرى سنة ٧٣٢م (١١٤هـ) فقدت فيها الجيوش العربية السيطرة على فرنسا، فتوقّف المدّ العسكري الإسلامي شمالاً.

لقد اعتبرت معركة بواتييه (أو بلاط الشهداء) من المعارك الكبرى في التاريخ العسكري فكانت لها نتائج بعيدة المدى على الصراع بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي فاقت بأهميتها أهمية المعركة في حدّ ذاتها.

وبعد السيطرة على بلاد الأندلس طيلة قرون ثمانية، تراجع العرب والمسلمون عنها، بعد أن نفّذ الاسبان حركة استرداد طويلة وواسعة لبلادهم دامت أربعة قرون.

وهكذا، وبعد تراجع المسلمين عن الأندلس، وبعد توصّل الأتراك العثمانيين إلى فتح القسطنطينية التي صمدت طويلاً أمام الغزوات العربية، تثبّتت الحدود النهائية بين عالمين:

- العالم الشرقي الاسلامي.
- العالم الغربي المسيحي.

فكثيرون هم الاستراتيجيون الذين يرون في الحملات العسكرية العربية والإسلامية على القسطنطينية وصولاً إلى فتحها على يد العثمانيين، والحروب بين المسلمين والاسبان والأوروبيين في الاندلس؛ إنما كانت مظهراً من مظاهر الصراع بين الشرق والغرب الذي بدأ بالحروب الميدية بين الفرس واليونان، وتابع حتى أيامنا هذه.

إنما، ورغم فشل المسلمين في السيطرة الكاملة على بلاد الأندلس، فإن التقاء العالمين الشرقي والغربي على أرضها عمل على تماذج الحضارتين الشرقية والغربية

فيها، الأمر الذي ساهم في قيام حضارة أندلسية متميّزة في الميادين الفكرية والعلمية والأدبية والعمرانية والصناعية كانت إيجابية على الصعيد العالمي.

ثامناً – العصر الأموي

هذا في الغرب.

أما في الشرق، فكان الحكم الأموي قد استتبّ في دمشق التي أصبحت عاصمة العالم الإسلامي، وأمسى الحجاز مركزاً دينياً لهذا العالم. ورغم مبايعة أنصار الإمام علي بالخلافة لابنه الحسن، فإن ميله للموادعة وعدم المجابهة دفعه إلى مصالحة معاوية قبل أن يُقتل وتنتقل الخلافة الشيعية إلى أخيه الإمام الحسين.

كان عهد معاوية حافلاً بالانجازات العسكرية. فبعد مصالحته مع الإمام الحسن وتثبيت سيطرته على الأمصار وانتصاره على الخوارج ونجاحه في استقطاب زياد بن أبيه وتعيينه والياً على العراق، سيّر معاوية الجيوش التي غزت بلاد السند وبلاد الروم وهراة وبخارى وكابل. كما أقام الثغور لتنطلق منها الجيوش الإسلامية إلى غزو بلاد الروم. ونشط الأسطول العربي في المتوسّط فراح يتصدّى بنجاح للأساطيل البيزنطية حتى انتصرَ عليها في معركة ذات الصواري.

شرقاً، سارت الجيوش العربية إلى خراسان ففتحتها، ووصلت طلائعها إلى حدود بلاد الترك. ثمّ توّجت الإنجازات العسكرية للخليفة الأموي الأول بالحملة الأولى على القسطنطينية التي تمكّنت من السيطرة على أحد المواقع المهمّة المجاورة للعاصمة البيزنطية، قبل أن تتراجع عن المدينة بسبب منعة أسوارها واستعمال البيزنطيين النار الاغريقية بنجاح ضد الأسطول الأموي، واستبسال الروم في الدفاع عن عاصمتهم.

علاوة على الإنجازات العسكرية، حقق معاوية إنجازاً مهماً لعائلته تمثّل بتغيير مفهوم الاستخلاف ونقله من استراتيجية الشورى بين المسلمين إلى مفهوم الوراثة العائلية، وذلك عبر تأمينه البيعة لابنه يزيد خلال خلافته، رغم تمنّع زعماء الحجاز

الثلاثة: الحسين بن علي وعبدالله بن الزبير وعبدالله إلى عمر.

قام اثنان من هؤلاء الثلاثة بمعارضة استخلاف يزيد بن معاوية، الأمر الذي أدّى إلى نتيجتين:

الأولى: استدعاء أهل الكوفة الإمام الحسين لنصرته في حربه ضد الخليفة يزيد، ثمّ تراجعهم عن مؤازرته، وصولاً إلى محاربته في معركة كربلاء التي استشهد فيها الإمام الحسين وأهل بيته، والتي هزّت العالم الإسلامي يومذاك وعملت على شقّه إلى عالمين منفصلين متحاربين:

- العالم السني بقيادة الخلافة الأموية.
- العالم الشيعي بقيادة أحفاد الإمام علي بن أبي طالب.

الثانية: إعلان عبدالله بن الزبير ثورته الكبرى التي دامت حوالي ثلاثين سنة وهزّت دعائم الخلافة الأموية وأنزلت هزائم متتالية بجيوشها. وقد سيطرت جيوش ابن الزبير على الحجاز والعراق والجزيرة وحصرت التأثير الأموي في بلاد الشام.

علاوة على ثورة عبدالله بن الزبير، قامت في وجه الأمويين ثورات عديدة، ساهم بعضها في إنزال هزائم كبرى بجيوشهم وكان أبرزها:

- ثورة المختار الثقفي.
- ثورة التّوابين.
- ثورة المدينة.
- ثورة مطرّف بن المغيرة بن شعبة.
- ثورة عبد الرحمن بن الأشعث.
- ثورة زيد بن علي بن الحسين.

خلال إخضاع الثائرين قُيّض للخلافة أن تجنّد والياً للعراق اعتبر من قادة العالم الإسلامي يومذاك هو الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي تمكّن بعناده وقسوته وتصميمه وعدم مراعاته للأصول الدينية، من إخضاع ثورات عدّة لاسيما ثورة عبدالله ابن الزبير بعد أن قصف مكة المكرّمة والكعبة المقدّسة بالمنجنيق.

من جهة أخرى واجه الأمويون، طوال عصرهم وصولاً إلى العصر العباسي، خطراً كبيراً وعدواً مصمّماً على المواجهة، تمثّل بثورات الخوارج المتتابعة التي شغلت جيوش الدولة الأموية ردحاً طويلاً من

الزمن، وأنزلت بها خسائر فادحة، ونزعت سيطرتها عن أجزاء واسعة من العالم الإسلامي.

إلى جانب العمل في إخضاع الثورات، مرّت الدولة الأموية بمراحل متنوّعة من السيطرة والتراجع في الأهمية نختصرها بالآتي:

١ - مرحلة تثبيت الدولة بعد معركة صفّين.

٢ - مرحلة القوة والفتوحات التي بدأت مع عبد الملك بن مروان وافتُتحت خلالها مناطق واسعة من الشرق الأدنى.

في هذه المرحلة برز قادة عرب مسلمون كبار ساهموا في تثبيت الحكم الإسلامي وفي فتح المدن والامصار ضمن إطار الجهاد في سبيل الدين.

٣ - مرحلة التراجع والسقوط التي بدأت مع الخليفة هشام وصولاً إلى الانهيار النهائي أمام ضربات العباسيين تمشياً مع رأي بول كنيدي في كتابه «صعود الأمم وهبوطها» الذي يرى أن كلّ دولة تمرّ بمراحل ثلاث خلال تاريخها هي: مراحل التطوّر فالمراوحة فالتراجع.

وترتبت على نجاح الثورة العباسية وانتقال الخلافة إلى آل العباس نتائج عديدة على العالم الإسلامي، أهمها:

- انتقال السيادة في الدولة الإسلامية من العرب إلى الشعوبيين الفرس.
- انتقال مركز الخلافة من الشام إلى العراق الذي بدأت عاصمته بغداد تتألّق حضارياً.
- انتصار الهاشميين على السفيانيين في الحرب التي كانت قد بدأت بين الأسرتين منذ ما قبل الإسلام.

تاسعاً – العصور العباسية

مرّت الخلافة العباسية خلال تاريخها الطويل في عصور أربعة هي:

- عصر النفوذ الفارسي.
- عصر النفوذ التركي.
- عصر النفوذ البويهي الفارسي.
- عصر السيطرة السلجوقية التركية.

أ - العصر العباسي الأول:

تميّز العصر العباسي الأول بتمازج الشعوب الإسلامية والتفاعل الحضاري

بين ثقافات الشرق الأدنى القديم، تمازج بلغ ذروته في عهد هرون الرشيد الذي اعتبر ذروة تطوّر الحضارة العربية التي ساهمت في نقل الناتج الفكري والعلمي والثقافي عن الحضارات الفارسية والهندية والسريانية إلى اللغة العربية التي حفظت هذا التراث ونقلته إلى العالم.

سياسياً، اعتبر الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور القائد الذي ثبّت الحكم العباسي وقضى على أبي مسلم الخراساني بطل الثورة العباسية، وعلى عمه عبدالله بن علي بطل معركة الزاب الأعلى التي حسمت الصراع الأموي العباسي لمصلحة العباسيين. كما عمل المنصور على إخضاع الثورات الداخلية التي واجهت الحكم العباسي منذ بدايته، لينطلق بعد ذلك في إكمال الفتوحات نحو الشرق. ومن إنجازات المنصور البارزة بناء مدينة بغداد التي أصبحت عاصمة العالم الإسلامي يومذاك.

تتابعت الفتوحات الخارجية مع خليفتي المنصور المهدي والهادي، خاصة في بلاد الهند والروم إذ سيّرت حملتان إلى القسطنطينية قاد الثانية منها هارون الرشيد الذي سيصبح أقوى وأهم شخصية في العالم الإسلامي بعد وصوله إلى سدّة الخلافة.

وتكمن أهمية الرشيد ليس فقط في النواحي العسكرية التي ركّزنا عليها في هذه الموسوعة، إنما أيضاً في النواحي الاقتصادية والثقافية والعلمية والحضارية. فعسكرياً تابع الرشيد سياسة إرسال الصوائف والشواتي إلى بلاد الروم التي تمكّنت من فتح المدن والحصون، وتوّجت إنجازاته بفتح هرقلة. وحضارياً عُرفت بغداد خلال هذه المرحلة بالإشعاع الفكري الذي بلغ أوروبا والهند والصين وافريقيا، وألهم الشعراء والكتّاب والمؤرّخين الذين حقّقوا إنجازات كبيرة في ميدان التأليف والإنتاج. وتكفي مطالعة مجموعة «ألف ليلة وليلة» لتكوين فكرة واضحة عن مدى التطوّر الحضاري الذي تحقّق مع الرشيد.

لكن الرشيد، ورغم تعقّله وعمق تفكيره وإنجازاته، عاد ووقع في الخطأ الذي ارتكبه قبله الخلفاء الأمويون، فأوصى بولاية العهد

لولديه الأمين والمأمون، الأمر الذي أدّى إلى وقوع حرب شاملة بينهما قسّمت العالم الإسلامي إلى معسكرين:

- معسكر مؤيّد للمأمون قوامه الشعب الفارسي.
- معسكر داعم للأمين قاعدته من العرب.

ومع هذا الصراع بدأت تظهر ملامح حركة الشعوبية التي عرفتها الخلافة العباسية والتي ضمّت شعوباً إسلامية غير عربية نادت بالتخلّص من الهيمنة العربية على العالم الإسلامي، ونجحت في تحقيق رغبتها إذ سيطر على الخلافة العباسية بالتتابع الفرس فالترك فآل بويه فالسلاجقة فآل زنكي فالأيوبيين فالمماليك وصولاً إلى العثمانيين.

ومع انتصار المأمون بدأت الانجازات العسكرية تتوالى في عالم الخلافة التي تمكّنت من القضاء على مختلف التحرّكات الثورية الداخلية التي هدّدت وجودها، ومن متابع التقدّم العسكري على جبهات آسيا الصغرى وما وراء النهر ومصر وشمال افريقيا وجزر البحر المتوسّط. وتوّجت هذه الإنجازات بفتح عمورية التي كانت تعتبر من أهم مدن الروم في آسيا الصغرى، وذلك على يد الخليفة المعتصم بعد نداء الاستغاثة: وامعتصماه! الذي أطلقته الأسيرة الهاشمية.

إلاّ أن المعتصم قام بتغييرات عسكرية أدت إلى انتهاء عصر تحكّم الفرس في الخلافة وبدء تحكّم الأتراك فيها الذين أكثر منهم في جيشه وبنى لهم مدينة سامرّاء. وبهذا التغيير انتقلت الخلافة العباسية من عصرها الأول إلى عصرها الثاني أي إلى عصر سيطرة الترك.

ب - العصر العباسي الثاني أو عصر سيطرة الترك:

بدأ العصر العباسي الثاني بخلافة المتوكّل على الله في السنة ٢٣٢هـ، وانتهى بخلافة المتقي بالله في السنة ٣٣٣هـ، واعتبر عصر سيطرة الضباط الأتراك على الخلافة.

فبعد أن انصرف الخلفاء عن إدارة شؤون الدولة إلى الغرق في مجالس الأنس والمجون، تركوا هذه الإدارة للوزراء والقادة الذين سيطروا على الخليفة نفسه فراح يتبع تعليماتهم وينفّذ رغباتهم. واتسمت الخلافة خلال هذا العصر بظواهر أهمها:

- انعدام هيبتها.
- سيطرة الترك وبدء نفوذهم في العالم الإسلامي.
- تفكّك الدولة وخروج الولايات عن حكمها.

وتزايدت أهمية الضباط الأتراك بعد أن راح الخلفاء يوزّعون عليهم الاقطاعات مقابل دفع أثمانها. وبدأ هؤلاء يرتكبون التجاوزات ويستبدّون بسكّان العاصمة، الأمر الذي دفع المعتصم إلى بناء مدينة سامرّاء لهم لإبعادهم عن بغداد.

ومع تزايد النقمة ضد الأتراك، خاصة لدى العرب والفرس والخراسانيين، ترجم ذلك بالثورات التي قامت في وجه الخلافة العباسية، والخلافات والصراعات الداخلية التي شغلت الجيوش الإسلامية وأبعدتها عن الجهاد ضد الامبراطورية البيزنطية.

لقد تكاثرت الثورات في العالم الإسلامي، من ثورة أرمينيا إلى انتفاضة أهل حمص، فغارات البجاة على مصر والفتنة في الموصل، واستيلاء يعقوب بن الليث على كرمان وفارس وسجستان وطبرستان، وثورة الزنج التي دامت عشرات السنين وأوقعت هزائم عديدة بجيوش الخلافة.

كما ظهر خطر القرامطة الذين توسّعوا من البحرين واستولوا على مكة وانتزعوا منها الحجر الأسود. وخرج على الخلافة كثيرون، منهم عمرو الصفّار وابن طولون ومحمد بن زيد العلوي وبنو شيبان واسحق بن أحمد الأطروش وكثير بن أحمد وابن أبي الساج وحمدان بن حمدان.

وفي العصر العباسي الثاني قامت الدولة الحمدانية في شمال بلاد الشام والخلافة الفاطمية في شمال افريقيا. وفي أواخر هذا العصر بدأت أسرة فارسية جديدة تبرز على الساحة السياسية والعسكرية الإسلامية هي الأسرة البويهية التي تسلّمت منصب أمير

الأمراء الذي اعتمده الخليفة في أواخر العصر العباسي الثاني.

وبظهور الأسرة البويهية بدأت شمس هذا العصر تميل إلى المغيب وبدأت سيطرة الضباط الأتراك تتراجع لمصلحة القادة الفرس الذين سيطروا على بغداد والخلافة؛ ومعهم بدأ العصر العباسي الثالث.

ج - العصر العباسي الثالث:

أصبح الخليفة خلال العصر العباسي الثالث زعيماً دينياً لا أمر له ولا نهي، في حين سيطر سلاطين آل بويه على مقدرات الخلافة فبات الخلفاء تحت وصايتهم. واعتبرت سيطرة آل بويه على الخلافة نوعاً جديداً من الهيمنة، إذ كان هؤلاء يدينون بالمذهب الشيعي، فيما كان الضباط الأتراك الذين برزوا في العصر العباسي الثاني على المذهب السني.

وهكذا وقعت الخلافة العباسية السنية للمرة الأولى في تاريخها تحت سيطرة الشيعة الزيديين الذين انتقموا من الخلفاء بسبب تاريخ العباسيين في ملاحقة الشيعة، فقام أمير الأمراء معز الدولة باعتقال الخليفة المستكفي وإهانته وسجنه وخلعه من الخلافة.

إثر ذلك اصطدم معز الدولة عسكرياً بالقوى السياسية السنية في العراق والشام ومع دولة الحمدانيين في الموصل وغيرها، لكنه خرج منتصراً من هذا الصراع فقامت دولته على رقعة أكثر اتساعاً.

وفي عهد البويهيين بدأ الإقطاع العسكري الذي تطوّر لاحقاً وأصبح أحد ركائز العمل الزراعي نظراً للجوء سلاطين آل بويه إلى منح القادة والجند إقطاعات بسبب عدم توفّر المال لديهم لدفع مرتّباتهم المستحقّة.

وقام صراع في أواخر هذا العصر بين آل بويه والأتراك، الأمر الذي أضعف الجيش الإسلامي ومنعه عن القيام بواجبه في المحافظة على وحدة الدولة من جهة، وحماية حدودها من جهة ثانية. وكان لذلك نتيجتان:

- الأولى: قيام الدويلات الإسلامية المستقلّة في مختلف مناطق الخلافة، واستقلال دول أخرى، وقيام خلافتين مستقلّتين عن الدولة العباسية هما الخلافة الفاطمية في مصر والخلافة الأموية في الأندلس. وهكذا راح يتنازع العالم الإسلامي خلفاء ثلاث يتصارعون في ما بينهم.

- الثانية: إنتقال مسؤولية الصراع ضد الامبراطورية البيزنطية من الدولة العباسية إلى الدولة الحمدانية في شمال بلاد الشام والدولة الفاطمية في البحر المتوسّط الشرقي وجزره.

وخلال هذا العصر برزت دولة إسلامية حقّق قادتها إنجازات عسكرية بارزة في آسيا، هي دولة آل سبكتكين التي قامت في ما وراء النهر، وتميّز من ملوكها القائد محمود بن سبكتكين الذي سيطر على خراسان وسجستان ونفّذ حملات ناجحة ضد بلاد الهند افتتح خلالها مناطق لم يصل إليها قبله أي قائد مسلم، كما أزال الدولة السامانية من الوجود.

وفي هذا العصر قامت دويلات إسلامية في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي، منها، علاوة على الخلافتين الفاطمية والأموية، الدول التالية:

- الحمدانيون في حلب.
- الادارسة والاغالبة في المغرب.
- بنو حمدون.
- القرامطة.
- الاسماعيليون.
- بنو قتادة.
- الترك.
- الغورية.
- بنو عقيل.
- بنو صالح.
- بنو مزيد.
- الاخشيديون والطولونيون في مصر.
- بنو مروان في ديار بكر.
- بنو الصفّار في سجستان.
- السامانيون.

- بنو سبكتكين.

- الديلم.

بنو شاهين.

وغيرهم.

وفي أواخر العصر العباسي الثالث بدأ نفوذ آل بويه يتراجع لمصلحة قبيلة تركية جديدة ظهرت على الساحة السياسية العباسية تعود بأُصولها إلى الغز السلاجقة، الذين سيطروا على بغداد والخلافة العباسية اعتباراً من السنة ٤٢٩هـ حين دخلوا نيسابور بعد معركة عنيفة مع دولة آل سبكتكين ومنح الخليفة رئيسهم طغرلبك لقب «ملك الملوك».

ومع سيطرة السلاجقة الأتراك، دخلت الخلافة العباسية عصرها الرابع.

د - العصر العباسي الرابع: عصر النفوذ السلجوقي:

فيما كانت بغداد تعيش صراعاً بين وزير الخليفة ابن مسلمة وقائد الجيش البويهي البساسيري، كانت الخلافة الفاطمية في مصر تحاول أخذ دور العباسيين من خلال مناصرة آل بويه الشيعة؛ الأمر الذي دفع الخليفة إلى الاستعانة بالأتراك السلاجقة السنّة متخلّصاً في الوقت عينه من البويهيين الشيعة ومن الخلافة الفاطمية.

شكّل دخول طغرلبك على رأس قواته المظفّرة إلى بغداد بداية سقوط الدولة البويهية وقيام السلطنة السلجوقية مكانها في الوصاية على الخلافة العباسية، ودعماً للتأثير السني في بغداد والعالم الإسلامي. واحتاج طغرلبك مدّة من الزمن لتصفية الدولة البويهية، كان الحظر الأكبر عليه خلالها ناجماً عن قائد الجيش البويهي البساسيري، الذي كان قد استولى على بغداد وأعلن نهاية الخلافة العباسية وقيام الخلافة الفاطمية على أنقاضها.

ورغم بقاء البساسيري مسيطراً على بغداد لمدّة سنة، فإن ثورته انتهت بدخول السلاجقة إليها وإعادة الخليفة العباسي إلى عرشه، ثمّ الانتصار على البساسيري وقتله،

الأمر الذي أرسى قواعد الامبراطورية السلجوقية ووحّد العراق وإيران في بوتقة واحدة تدين بالزعامة الروحية للخليفة العباسي، وبالزعامة السياسية للسلطان السلجوقي.

وبعد طفرلبك أعاد السلطان ألب ارسلان إخضاع شمال بلاد الشام بهدف حماية مؤخّرة جيوشه من الخطر الفاطمي تمهيداً لتوجيه الحملات العسكرية شمالاً لمحاربة الامبراطورية البيزنطية. لقد تمكّن ألب ارسلان من تحقيق إنجازين عسكريين بارزين هما:

١ - نقل الصراع ضد الامبراطورية البيزنطية من ثغور بلاد الشام إلى آسيا الصغرى.

٢ - نقل الصراع ضد الخلافة الفاطمية إلى جنوب بلاد الشام بعد أن تمكّن من فتح الرملة وبيت المقدس وما جاورهما.

ومن إنجازات السلطان ألب ارسلان العسكرية صدّ الهجوم العام الذي شنّه الامبراطور البيزنطي رومانوس على الثغور الإسلامية الشامية، وانتصاره في معركة ملاذكرت وأسر رومانوس. وبعد هذه المعركة أصبحت الطريق مفتوحة أمام المسلمين للتوسّع في آسيا الصغرى، فتمكّن سليمان بن قطلمش من تأسيس دولة «سلاجقة الروم» التي هدّدت المصالح البيزنطية في آسيا الصغرى، وكان إنشاؤها من أهم الأسباب التي ساهمت في توجّه اوروبا إلى غزو الشرق من خلال ما دعي بـ «الحروب الصليبية».

وتتابعت الإنجازات العسكرية السلجوقية في عهد خليفة ألب ارسلان السلطان ملكشاه، الذي واصل الحرب ضد الخلافة الفاطمية في بلاد الشام فاستولى على دمشق وعيّن أخاه تتش ملكاً عليها. ثمّ توارثها أبناؤه من بعده، وقامت بذلك مملكة «سلاجقة الشام» بعد قيام دولة «سلاجقة الروم».

إنما، ورغم الإنجازات العسكرية الخارجية، تكاثرت الفتن والحروب الداخلية في عهد ملكشاه بين القادة المسلمين، الأمر الذي نقل التوجّه العسكري السلجوقي من ميدان الجهاد الخارجي في سبيل الدين إلى ميدان قمع الثورات الداخلية.

لقد خاض ملكشاه ووزيره نظام الملك حروباً عدّة مع عمّه قاروت بك وأخيه تتش وفخر الدولة بن جهير وإبن مروان، ومع حاميات سمرقند وبلاد ما وراء النهر وغيرهم، واضطرّ إلى التدخّل مرات عدّة داخل بغداد بسبب الفتن الداخلية فيها.

ومن الملاحظ أيضاً أن حروباً عديدة تواجه خلالها القادة المسلمون الأخرون، فقام صراع في مصر بين الأتراك والعبيد، وحاصر الأقسيس مدينة دمشق ومصر، وملك شرف الدولة حلب، وحاصر دمشق وقاتل أهل حرّان وجرى صراع طويل بينه وبين سليمان بن قطلمش. كما تواجه فخر الدولة وابن مروان مع شرف الدولة.

ومن الأخطار الخارجية التي تعرّض لها العالم الإسلامي خلال عصر السيطرة السلجوقية نذكر:

- استيلاء البيزنطيين على زويلة.
- عصيان سمرقند.
- الحملة الفاطمية على بلاد الشام.
- نهب العرب البصرة.
- احتلال الفرنجة جزيرة صقلية.

كلّ هذه الخلافات الداخلية والأخطار الخارجية ساهمت في إنحسار السيطرة السلجوقية عن مقدرات العالم الإسلامي والتمهيد لظهور سلالة إسلامية جديدة تابعت رعاية شؤون الشعوب الإسلامية في الشرق والصراع ضد الخطر الجديد الذي بدأ يلوح في الأفق قادماً من أوروبا عبر آسيا الصُّغرى، وقد تمثّل هذا الخطر بالحملات الصليبية على الشرق. هذه السلالة الإسلامية الجديدة هي سلالة آل زنكي التي سيطرت على الموصل مع مؤسّسها الأمير عماد الدين زنكي.

لقد بلغت الامبراطورية السلجوقية ذروة اتساعها وعظمتها في عهد السلطان ملكشاه الذي عمل على خطين.

- الأول، قضى بالتخلّص من وزيره القوي نظام الملك.
- الثاني، قضى بإخراج الخليفة العباسي من بغداد إلى الحجاز.

لـكـن وفـاتـه السـنـة ٤٨٥هـ حـالـت دون تـنفيذ هذه الخطة المزدوجة. وبعد وفاته نشب نزاع بين القادة السلاجقة لخلافته، سـانـدت كـلّ مـنـهـم فـئـة مـن الـتـركـمـان، فرجحت في نهايتها كفّة ابنه بركيارق الذي خـاض صـراعـاً ضـد عـمّـه تـتش بـن ألب إرسلان.

بـعـهـد بركـيارق توزّع العالم الإسلامي الشرقي بين قادة سلاجقة ثلاثة كالآتي:

- خراسان وبلاد ما وراء النهر لسنجر.
- العراق لبركيارق.
- بـلاد الشـام والـموصـل وبعض المـناطق الأخرى لمحمد طبر.

وتلقّب كلّ من الثلاثة بلقب السلطان.

وهكذا توزّعت الامبراطورية السلجوقية إلـى سـلـطـنـة عـظـمـى تـحـمـي الـخـلافـة، وسلطنتين أدنى تسيطر كلّ منهما على جزء مـن الـعـالـم الإسـلامـي، وتـديـن بـالـطـاعـة للسلطان الأعظم.

وبوفاة بركيارق بويع شقيقه محمد طبر الذي عرف عهده قيام فرقة الاسماعيلية الحشاشين، بزعامة حسن الصباح (شيخ الجبل) التي راحت تـنفّذ الاغتيالات السياسية، والتي سيّر السلطان ضدها حملات عدّة باءت جميعها بالفشل.

بـعـد مـحـمـد طبر وقع خلاف بين ابنه محمود وأخيه سنجر أدّى إلى إعلان الأخير نفسه سلطاناً على كلّ السلاجقة. وخلال عهده نشب صراع طويل بينه وبين قبائل الغزّ والقرلق التركمان الذين تمكّنوا من هزيمته.

وبوفاة سنجر أُسدل الستار نهائياً على عصر السيادة السلجوقية، فتوزّعت السلطنة إلى سلطنات ودول أتابكية عدّة. وانقرضت دولـة السـلاجـقـة فـي خـراسـان وبـلاد الري والـجـبـل ومـا وراء الـنـهر على أيدي ملوك خوارزم. ثمّ انقرضت الدولة الخوارزمية على أيـدي الـمـغـول فـي عـهـد جـلال الـديـن خوارزمشاه. ومن أصل هؤلاء قامت دولة المماليك في مصر.

خلال هذه الحملة تجسّد الخطر الفرنجي في الشرق الإسلامي باحتلال السواحل السوريـــة - اللبنانية - الفلسطينيـــة وصولاً

إلى بيت المقدس، من قبل الحملة الصليبية الأولى. وبعد هذه الحملة جرت حروب طويلة ودموية بين الفرنجة والقادة المسلمين في الشرق، فصّلت في الجزءين السادس عشر والسابع عشر من هذه الموسوعة.

من جهة أخرى شنّ السلاطين السلاجقة، وخاصة محمد، حملات عديدة على الاسماعيليين الباطنية، انتهت بتدمير عدد كبير من قلاعهم وحصونهم وقتل الآلاف منهم.

وفيما تضعضعت أوضاع الدولة السلجوقية بسبب الخلافات بين قادتها وراحت تتفكّك إلى سلطنات ودويلات أتابكية، برزت على الساحة السياسية والعسكرية إحدى هذه الدويلات التي أسّسها الأمير عماد الدين زنكي في الموصل وديار بكر والجزيرة، وأخذت على عاتقها مسؤوليتين عسكريتين هما:

- حماية الخلافة العباسية.
- الصراع ضد الفرنجة في بلاد الشام والعراق.

هـ - من النفوذ السلجوقي إلى سيطرة آل زنكي:

كان أول ظهور لآل زنكي في السنة تسع وتسعين وأربعمائة للهجرة حين قبض بعض قادتهم على الخارج عن السلطة منكبرس وسلّموه إلى السلطان السلجوقي محمد الذي أقرّهم على إقطاعاتهم في الأهواز وهمذان.

وفي السنة ثمان وخمسمائة للهجرة سيّر السلطان محمد جيشاً كبيراً بقيادة آقسنفر البرسقي، يعاونه عماد الدين زنكي، لقتال الفرنجة، فحققت الحملة نجاحات كبيرة.

ثمّ توالت العمليات العسكرية التي شارك فيها أُمراء أسرة زنكي، منها ما كان يوجّه لإعادة إخضاع الولاة الخارجين على السلطة، ومنها ما كان يهدف إلى الصراع ضد الفرنجة. وحقق أمراء آل زنكي، لاسيما برسق بن برسق وآقسنفر البرسقي وعماد الدين، إنجازات عسكرية مهمة لمصلحة السلطان السلجوقي، الأمر الذي دفعه إلى تقديمهم وإقطاع الأمير آقسنفر الموصل

وأعمالها السنة ٥١٥هـ، فبدأ هذا الأخير يلعب دوراً في إدارة الشؤون السياسية والعسكرية الإسلامية.

ومنذ ذلك التاريخ بدأت مسيرة آل زنكي المظفّرة، فسيطروا بالتوالي على حلب وشمال بلاد الشام، حيث أصبح الجهاد ضد الفرنجة من مسؤولية هذه العائلة.

بعد آقسنفر برز عماد الدين، الذي تمكّن من السيطرة على ولاية الموصل وتسلّم مناطق عديدة من العراق والجزيرة وشمال بلاد الشام، الأمر الذي أهّله لإقامة دولة آل زنكي في العراق والشام وبدء الاضطلاع بدور حماية الشرعية الإسلامية في وجه المطامع الداخلية والخارجية.

بعد عماد الدين تابع خليفته نور الدين مسيرة آل زنكي العسكرية والسياسية فافتتح المدن والقلاع وملك الولايات في مرحلة من أهم مراحل تاريخ الخلافة العباسية، إذ تجابهت فيها مع خطر خارجي داهم وخطير قادم من أوروبا برعاية البابا والامبراطور البيزنطي ومتمثّل بالحملات الصليبية على الشرق.

ضمن الإطار الخارجي هذا خاض نور الدين صراعاً طويلاً أهّله لأن يعدّ من أبطال العالم الإسلامي الشرقي العسكريين، إذ أن إنجازاته كانت كبيرة. لقد ملك على التوالي مدينة أرتاح وحصن العزيمة وسنجار وحصون منطقة إنطاكية في بلاد جوسلين الفرنجي الذي أسره نور الدين. ثمّ سيطر على كامل بلاد الشام وتطلّع إلى مصر حيث كانت الخلافة الفاطمية تجتاز آخر مراحل تاريخها.

ورغب نور الدين في إعادة توحيد العالم الإسلامي الشرقي تحت لواء الخلافة العباسية، فأرسل جيشاً كبيراً بقيادة الأمير أسد الدين شيركوه إلى مصر لمؤازرة وزير الخليفة العاضد لدين الله الفاطمي الذي استنجد به. وقد تمكّن هذا الجيش من السيطرة على مصر وإعادة الوزير شاور إلى وزارته. ورافق أسد الدين في حملته على مصر ابن أخيه صلاح الدين الذي سيلعب دوراً محورياً في التاريخ الإسلامي إذ أنّه تمكّن لاحقاً من توحيد العالم الإسلامي وإنهاء وجود الخلافة الفاطمية والدعوة للخلافة العباسية في مصر.

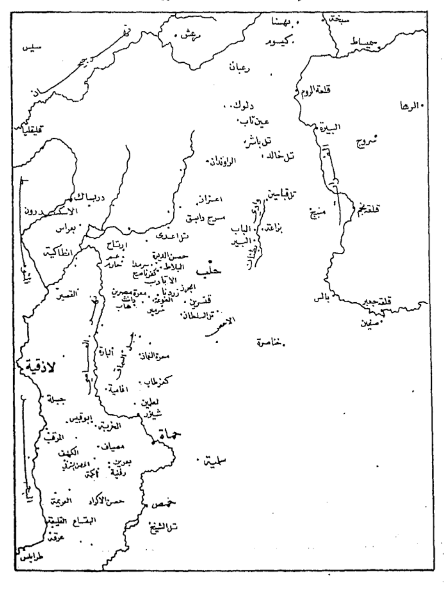
تلت الحملة الأولى حملتان على مصر سيّرهما نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه الذي عُيّن وزيراً للعاضد الفاطمي. وفي السنة ٣٦٥هـ توفي شيركوه فتولّى الوزارة بعده صلاح الدين الأيوبي الذي ثبّت الحكم العباسي في مصر وقطع الخطبة للخليفة الفاطمي بأمر من نور الدين زنكي، وأقام الخطبة للخليفة العباسي. وهكذا تمكّن صلاح الدين من توحيد الدولة الإسلامية في الشرق، وذلك قبل قيام الدولة الأيوبية في مصر وتمدّدها إلى بلاد الشام واضطلاعها بمسؤولية الصراع الإسلامي ضد التمدّد الفرنجي في الشرق.

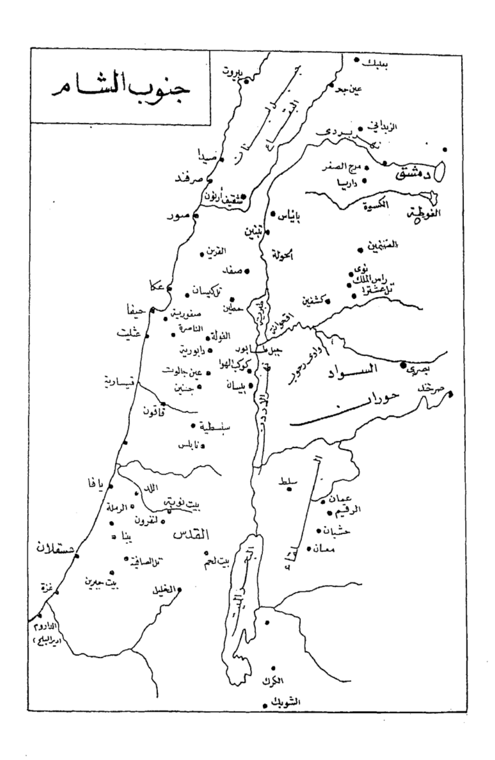
هذه المسيرة الناجحة لآل زنكي أعادت إبراز مفهوم الجهاد في سبيل الله واعتماده من قبل العالم الإسلامي الشرقي الموحّد برعاية الدولة الأيوبية، وبعدها الدولة المملوكية التي تمكّنت من إخراج الفرنجة نهائياً من الشرق.

منطقة الجزيرة

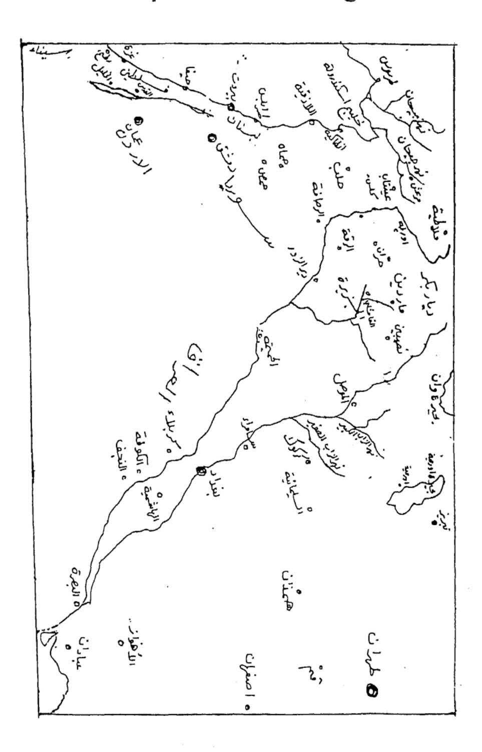


الشام الشمالي

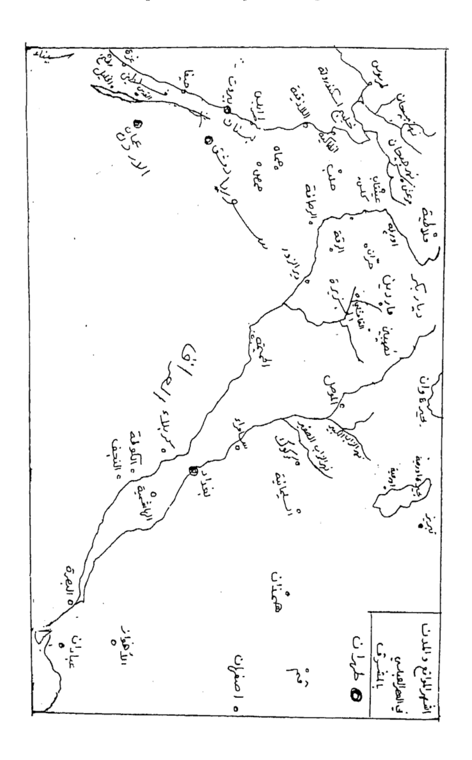



جنوب الشام
بعلبك
بيروت
عين جر
الزبداني
نهر بردى
صيدا
صرفند
مرج الصفر
دمشق
داريا
شقيف أرنون
الكسوة
الغوطة
صور
بانياس
تبنين
الحولة
الصنمين
صفد
نوى
رأس الملك
تل عشترا
عكا
تل كيسان
حطين
كشفين
حيفا
صفورية
الناصرة
عثليث
الفولة
دابورية
جبل طابور
كوكب الهوا
عين جالوت
السواد
بصرى
قيسارية
جنين
بيسان
صرخد
حوران
قاقون
سبسطية
نابلس
يافا
اللد
بيت نوبة
الرملة
لفرون
عمان
الرقيم
القدس
حسبان
عسقلان
معان
بيت لحم
بيت جبرين
غزة
الخليل
الكرك
الشوبك

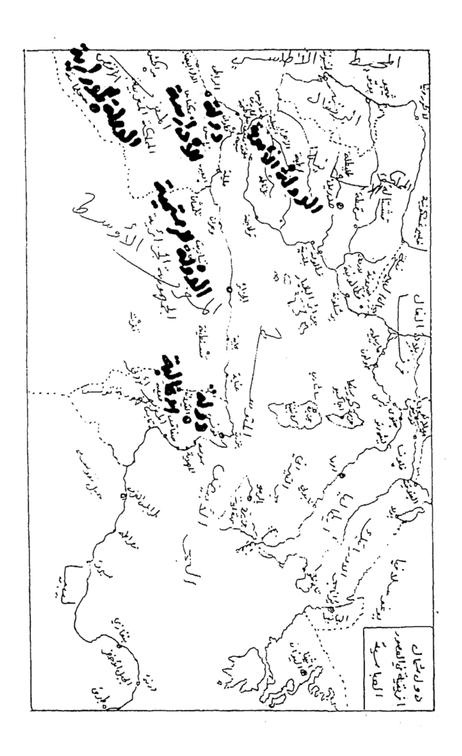
المواقع والمدن خلال العصر العباسي الأول



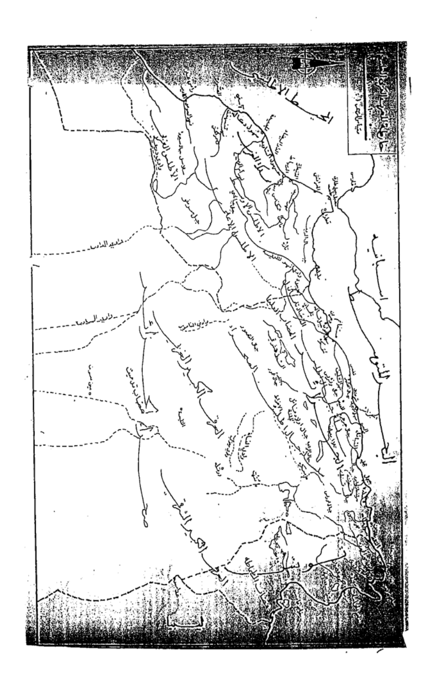
أشهر المواقع والمدن في العصر العباسي بالمشرق



دول شمال افريقية في العصور العباسية



خارطة المغرب العربي الطبيعية



المصادر والمراجع
للأجزاء الخمسة عشر الأولى من الموسوعة

أولاً - المصادر:

- القرآن الكريم.
- العهد القديم.
- أبو بكر المالكي، رياض النفوس.
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن الاتابكي، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، ١٩٦٣.
- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، ١١ جزءاً.
- ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥.
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد، جمهرة أنساب العرب، دار المعارف، مصر، ١٩٦٢.
- ابن حيان، أبو مروان بن خلف القرطبي، المقتبس في تاريخ الأندلس، باريس، ١٩٣٧.
- ابن خلدون، عبد الرحمن المغربي، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٩٩، ١٤ جزءاً.
- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله التلمساني، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبدالله عثمان، القاهرة، ١٩٥٦.
- ابن عبدربه، أحمد بن محمد الأندلسي، العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، بيروت.

- ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبدالله القرشي، فتوح مصر، مكتبة المثنى، بغداد.
- ابن عذارى، أبو عبدالله محمد المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولان - ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري، الإمامة والسياسة، القاهرة.
- ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر القرطبي، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبدالله طبّاع، دار النشر للجامعيين، بيروت.
- ابن كثير، أبو الفداء حافظ، البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، ١٥ جزءاً.
- الإلياذة، هوميروس.
- الإدريسي، محمد بن عبد الوهاب، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ١٨٩٣.
- البلاذري، فتوح البلدان، مؤسّسة المعارف، بيروت، ١٩٨٧.
- البغدادي، عبد القاهر بن طاهر، الفِرق بين الفرق، القاهرة، ١٩١٠.
- الحموي، ياقوت، شهاب الدين أبو عبدالله، معجم البلدان، القاهرة، ١٩٠٦.
- المراكشي، عبد الواحد بن علي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سيد العريان، القاهرة، ١٩٦٣.
- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الكتب العلمية، بيروت، ٤ أجزاء.
- الأصفهاني، الأغاني.
- الطبري، أبو جعفر بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، ٦ أجزاء.
- أعمال الاعلام، فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت، ١٩٥٦.

- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، القاهرة، ١٩١٣.
- المقري، أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق أحسان عباس، بيروت، ١٩٦٨.
- النويري، نهاية الإرب في فنون الأدب.
- الانياد، فرجيل.
- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢، جزءان.
- ديوان أبي نؤاس، دار نوبليس للنشر، بيروت، ٢٠٠٥.
- ديوان امرىء القيس، دار نوبليس للنشر، بيروت، ٢٠٠٥.
- ديوان عمر بن أبي ربيعة، دار نوبليس للنشر، بيروت، ٢٠٠٥.
- ديوان المتنبي، دار نوبليس للنشر، بيروت، ٢٠٠٥.

ثانياً - المراجع:

- أشياخ، يوسف، تاريخ الأندلس، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤١.
- أمين، أحمد، موسوعة الحضارة الإسلامية، دار نوبليس للنشر، بيروت، ٢٠٠٦، ٢٤ جزءاً.
- بدر، أحمد، دكتور، الأندلس وحضارتها من الفتح حتى الخلافة، دمشق، ١٩٧٢.
- بدر، أحمد، دكتور، تاريخ الأندلس - عصر الخلافة، دمشق، ١٩٧٤.
- بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٣.

- بروفنسال، ليفي، الاسلام في المغرب والأندلس، ترجمة د. عبد العزيز سالم، القاهرة، ١٩٥٨.
- البستاني، بطرس، معارك العرب في الأندلس، دار مارون عبود، بيروت، ١٩٨٧.
- البستاني، بطرس، موسوعة بطرس البستاني، المركز الثقافي الحديث، طبعة ثانية، بيروت، ٢٠٠١.
- بيضون، إبراهيم، دكتور، الدولة العربية في الأندلس - من الفتح حتى سقوط الخلافة، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦.
- بيضون، د. إبراهيم. ود. سهيل زكار، تاريخ العرب السياسي، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٤.
- تغريبة بني هلال، المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٩٩.
- حياة النبي محمد، موسوعة، دار نوبِليس للنشر، بيروت، ٢٠٠٥، ١٦ جزءاً.
- الحايك، سيمون، عبد الرحمن الداخل، الحقوق محفوظة، بيروت، ١٩٨٢.
- الحايك، سيمون، اوراكة ملكة قشتالة، بيروت، ١٩٩٠.
- حتي، فيليب، تاريخ العرب، دار غندور، بيروت، ١٩٦١.
- حسن، حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل.
- حوراني، البرت، تاريخ الشعوب العربية، دار نوفل، بيروت، ١٩٣٧.
- ديغول، شارل، جنرال، نحو الجيش المحترف، دار المكشوف، بيروت، ١٩٤٣.
- كرم، كرم ملحم، صقر قريش، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٠.
- ريحانا، سامي، عميد دكتور، المجتمعات العسكرية عبر التاريخ، دار الحداثة، بيروت، ١٩٩٦.
- ريحانا، سامي، عميد دكتور، شعوب الشرق الأدنى القديم، دار نوبِليس، بيروت.

- ريحانا، سامي، عميد دكتور، تاريخ الجيش اللبناني المعاصر، دار نوبِليس، بيروت، ١٩٩٣، ٥ أجزاء.
- زيدان، جرجي، المؤلّفات الكاملة، دار نوبِليس، بيروت، ٥٠ جزءاً.
- سالم، عبد العزيز، دكتور، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢، جزآن.
- سالم، عبد العزيز، دكتور، تاريخ المسلمين في الأندلس، دار المعارف، بيروت، ١٩٦٤.
- سرهند، الميرالاي إسماعيل، تاريخ دول المغرب، تقديم ومراجعة د. حسن الزين، دار الفكر الحديث، بيروت، ١٩٨٨.
- سعيد، أمين، حروب الاسلام والامبراطورية الرومية، القاهرة، ١٩٣٥.
- سويد، ياسين، مقدم دكتور، معارك خالد بن الوليد، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٣.
- سيرة بني هلال، المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٩٩.
- العبادي، أحمد مختار، دكتور، في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية.
- العبادي، أحمد مختار، دكتور، الدولة العربية في اسبانيا، دار النهضة العربية.
- العروي، عبدالله، تاريخ المغرب، ترجمة الدكتور ذوقان قرقوط، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٧.
- فارس، محمد خير، دكتور، تاريخ الجزائر الحديث - من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، كلية الأداب، جامعة دمشق، ١٩٦٩.
- العقاد، عباس محمود، عبقرية خالد، دار الهلال، القاهرة.
- العقاد، صلاح، دكتور، المغرب العربي، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٩.
- لواساني، أحمد، نظرات جديدة في تاريخ الأدب.

- لين، بول، العرب في اسبانيا، الحقوق محفوظة.
- محمد عمرو، الشيخ يوسف، أبو تراب، دار المؤرخ العربي، بيروت، الطبعة الخامسة.
- معروف، نايف محمود، دكتور، الخوارج، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٧.

- مفرج، ط. ب، عالم المخابرات، دار نوبليس للنشر، بيروت، ٢٠٠٥، ٢٤ جزءاً.
- موريز، إيريك، مدخل إلى التاريخ العسكري، دار الارشاد، بيروت، ١٩٧٠.
- يعقوب، د، إميل بديع، موسوعة الأدب والأدباء العرب، دار نوبليس للنشر، بيروت، ٢٠٠٥، ١٦ جزءاً.

ثالثاً - باللغات الأجنبية:

- DOZY, Histoire des Musulmans d'Espagne, 3 volumes, Ed. Lévi provinçale, 1932.
- CLAUSEWITZ, De la guerre, Ed. de Minuit, Paris.
- Le Cid, Corneille.
- HITEHIMS, Christopher, Regime change, London, 2003.
- JULIEN, André, Histoire de l'Afrique du Nord,
  Tome I, des origines à la conquète arabe, Paris, Payot, 1968.
  Tome II, de la Conquète à 1830, Paris, Payot, 1969.
- MILANI, Colonel Andy, Rifalls of technology, U.S. Army War College, April 2003.
- MURRY, Williamson, Gulf War air power, 2003.
- NAAS, Peter, Good Kills, New York times magazine, April 2003.
- RAMO NET, Ignacio, Irak, histoire d'un désastre, Galilée 2005.
- UNA Gronica Anomina, Levi Provincale. Abd-Al-Rahman III Al Nasir.
- VOLNEY, Voyage en Egypte et en Syrie, Ed. Mouton et Cie, Paris, 1959.
- WILLIAM A, Admiral, Lifting the fog of war, N.Y, 2000.
- WRIGHT, Evan, The Killer elite, June 2003.



فهرس الجزء (١٥)

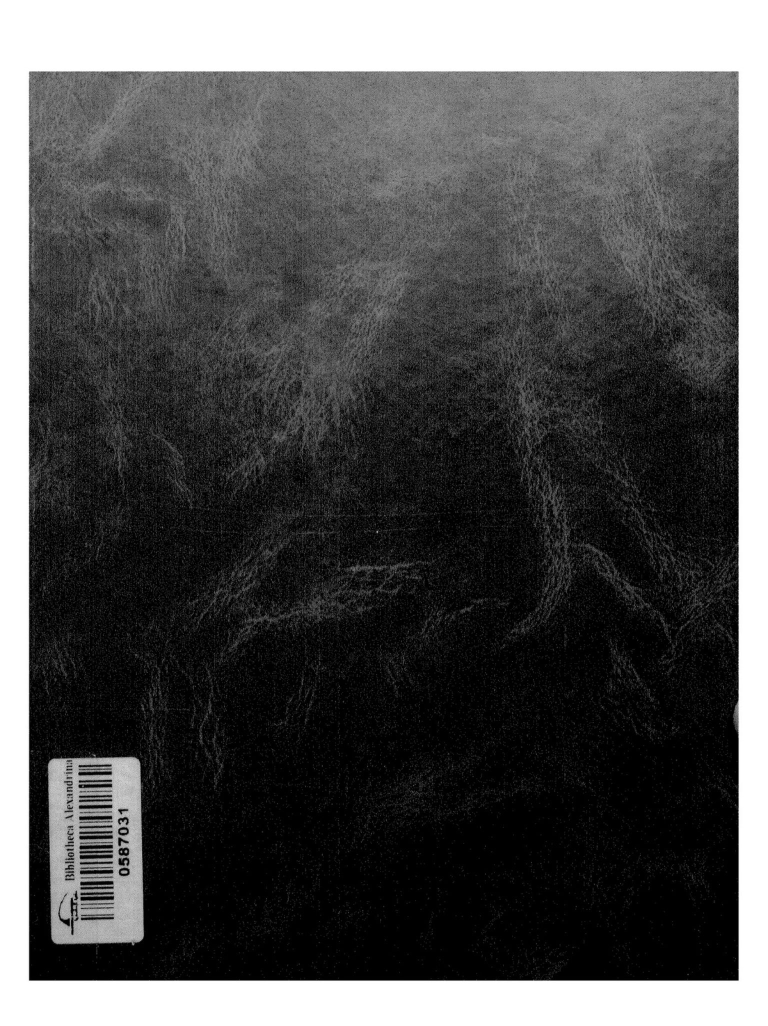
الصفحة

الخرائط:








Bibliotheca Alexandrina
0587031